بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نستعينه ونستهديه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً ρ عبده ورسوله، بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة، وجاهد في سبيل الله حق جهاده حتى أتاه اليقين من ربه، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه، وعلى كل من اهتدى يهديه واتبع سنته واقتفى أثره إلى يوم الدين.

اللهم ارض عنهم وعنا معهم برحمتك يا أرحم الراحمين.

أما بعد:

فهذا الكتاب محاولة لتركيز العقيدة الإسلامية جمعتها بغية تقديمها للناس في صفحات بعيدة عن التطويل والتعقيد.

فإن الحاجة ملحة إلى كتاب موجز يحوي جوانب العقيدة الأساسية بأسلوب يسير بعيد عن العبارات الكلامية الصعبة والتفريعات الفلسفية المعقدة التي لا يزيد الناس إلا بعداً عن فهم دينهم وتتعارض والطريقة القرآنية الواضحة، وتتعارض مع بساطة هذا الدين ويسره.

وقد تمت ترجمة هذا الكتاب بكامله إلى اللغة الإنجليزية نظرا لإهمية هذا الموضوع وحاجة الناطقين بها إلى هذه المواضيع.

فنرجوا الله أن يجعل هذا العمل صالحاً مقبولاً نافعاً للمسلمين وأن يخلص نوايانا إنه هو السميع العليم.

وصلى الله على سيدنا محمد النبي الكريم وعلى آله وأصحابه ومن اتبع هداهم إلى يوم الدين.

العودة إلى العقيدة الصافية

إن دعوة الإسلام الأولى قد تلقاها الأوائل بصفائها ونقائها وارتقوا بها إلى المقامات السامية والمجد والرفعة، ثم لم تزل الزيادات والأفكار الدخيلة تأخذ حيزاً في ثقافة المسلمين وعقيدتهم حتى أفرطوا في دينهم وطغت هذه الإضافات والعلوم الدخيلة على عقائد الإسلام ومناهجه، مما أورث انحطاطا فكريا بين المسلمين كان له الدور البارز في تخلفهم.

إن هذه الأمة لن تنهض من كبوتها وغفلتها إلا بعد أن تعود إلى المصادر الأولى فتتلقى عقيدتها على نور الكتاب وما صح من السنة النبوية، من غير أن تحتاج إلى آراء أهل المنطق والكلام لتفهم عقيدتها من خلالهما، وقد كان لدخول المنطق والفلسفة أسوأ الأثر في هدم الدين وتحريف تعاليم الأنبياء، ومن هنا وقف الصحابة بعد موت النبي ρ من العلوم الدخيلة موقف الحذر أن يدخل شيء منها في الدين، ويفتتن بذلك المسلمون.

ذكر ابن خلدون أنه لم فتح المسلمون أرض فارس ودخلوها وجدوا فيها كتباً كثيرة، فكتب سعد بن أبي وقاص إلى عمر بن الخطاب ليستأذنه في شأنها وتنقيلها للمسلمين، فكتب إليه عمر أن اطرحوها في الماء، فإن يكن فيها هدى فقد هدانا الله بأهدى منها، وإن تكن ضلالاً فقد كفانا الله. فطرحوها في الماء – أو في النار – وذهبت علوم الفرس منها عن أن تصل المسلمين.[1]

فهكذا كانت غيرتهم على دين الله، وهكذا يجب على كل مسلم أن يعمل على حماية دين الله من مناهج الدخيلة التي استحسنها بعض المفتونين أو دسها بعض المغرضين، ولا مساومة على دين الله.

ـ إنه لا بد للأمة من تطهير تصوراتها الكلية، ومبادئها التوحيدية من أدران الانحراف وعوج المفاهيم التي اختلطت بها، ولقد صدق الإمام مالك حيث قال:« لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها»

---

[1] مقدمة ابن خلدون480 دار القلم.

الدين الصحيح والأديان الباطلة

الأديان كثيرة جداً، ينتمي إلى كل دين منها كمَ من الناس، بعضهم يبلغ مئات الملايين على أن الكثرة ليست دليلاً على الصحة، فإن البوذية دين وثني يستحوذ على مئات الملايين من البشر، وتليها من حيث العدد الديانة الهندوسية وهي وثنية أيضاً.

وبين هذه الأديان قواسم مشتركة: ونقاط افتراق واختلاف، فهي تتفق على الإقرار بأن الله هو الخالق الرازق المدبر لهذا الكون، وتختلف على تفاصيل هذا الإيمان وكيفيته، فمن موحد لا يعبد إلا الله ولا يرضى إتخاذ شركاء وأنداداً مع الله من أصنام وأبطال وقديسين، ومن مشرك لا يؤمن بالله إلا وتراه يخلط مع إيمانه شركاً ووثنية كما قال تعالى:﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾ (يوسف (106)

وليس من شك أن من بين هذه الأديان ديناً واحداً فقط ارتضاه الله لعباده لا يقبل دينا سواه، ولا تقبل الأعمال الحسنة والعبادات إلا من خلاله، يهدي الله إليه من يشاء من عباده ممن علم فيهم خيراً، ويضل عنه من شاء لكبرهم كما قال:﴿ سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق﴾ وإعراضهم: إخلادهم إلى الدنيا وإعراضهم عن الآخرة.

والدنيا دين آخر ينضوي تحته كثيرون ينتمون انتماء تقليدياً إلى المسيحية والإسلام واليهودية في حين نجد اهتمامهم الكلي منصباً نحو الدنيا التي أشغلتهم عن الآخرة وعن الاستعداد لها وعن البحث عن الدين الحق، قال تعالى﴿ كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة، فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾

إننا نرى اسم كل دين مشتق من اسم مخلوق إلا الإسلام.

فالمسيحية مشتقة من اسم سيدنا المسيح عليه أفضل الصلاة والتسليم، ولكن: هل كان المسيح مسيحياً؟ بالطبع لا، لقد كان متبعاً للناموس (أي توراة موسى) واليهودية مشتقة من اسم يهوذا، ولكن ماذا كان دين يهوذا؟ هل كان يهوذا يهوديا؟ إننا نرى ولادة دين جديد مع ولادة المسيح ويهوذا، ولولاهم لما نشأ اسم لهاتين الديانتين!

والبوذية تشتق لها اسماً من بوذا ولكن هل كان بوذا بوذياً؟ وماذا كان اسم الدين في عهده؟

ونسأل أيضاً: ماذا كان دين أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام: هل كان يهودياً أم نصرانياً وقد جاء يهودا والمسيح من نسله فيما بعد! ولم تنزل التوراة والإنجيل إلا من بعده!

ولو قلنا إن أحد هاتين الديانتين هو دين الله فما حكم الذين ماتوا قبل المسيح ولم يعرفوا دين المسيحية؟ وما حكم الذين ماتوا قبل يهودا ولم يعرفوا اليهودية؟

وللإجابة على هذه الأسئلة التي تبدو محيرة نقول: ما من شك في أن الأنبياء كلهم كانوا خاضعين مستسلمين لأمر الله، وهذا ما يسمى بالعربية(إسلاماً) أي استسلاماً وخضوعاً، وبهذا نكون قد عرفنا ما هو الدين الذي تآخى فيه الأنبياء، إنه دين الإسلام.

فالإسلام لا يشتق اسمه من مخلوق، وليس هو اسماً أصلاً، إنما هو اسم دال عل صفة يتحلى بها من عمل بمقتضاها، فمن خضع لأمر الله واستسلم لأحكامه وأعلن طاعته المطلقة له وولاءه الكامل له فهو المسلم.

والله لا يجعل اسم دينه مشتقاً من أسماء البشر، أو موقوفاً على ولادتهم، لأنه دين البشر جميعاً من لدن آدم إلى آخر مؤمن على هذه الأرض.

لقد أمر الله جميع عباده أنن يسلموا له فقال (وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون) (الزمر 54) وقال (ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفاً) (النساء 125) وقال (أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه ترجعون) (آل عمران 83)

لقد كان الأنبياء جميعهم أول المستسلمين الخاضعين لأمر الله، ولهذا جاء وصفهم في القرآن بأنهم مسلمون(إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور، يحكم بها النبييون الذين أسلموا) (المائدة 44) (ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين).

لذا فإن الصفة التي تجمع بين الأنبياء هي الإسلام، لأنهم كانوا أكثر الناس خضوعاً لأمر الله واستسلاماً له في كل شيء، لقد كانوا إخوة في الدين الواحد، ألزموا أنفسهم الخضوع والإستسلام له، ولهذا قال رسول اللهε « الأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى، ودينهم واحد»[1].

وبناء على هذه الحقيقة فما أبعده عن دين الأنبياء من تسمى اسماً بالإسلام بينما لا يستسلم لله ولا يصلي له، أفيكون مسلماً مستسلماً لله من لا يقيم الصلاة ولا يؤتي الزكاة ولا يصوم رمضان ولا يحج البيت وهو مع ذلك لا يرتدع عن ارتكاب المحرمات كالزنا وشرب الخمر، وإذا كان عدم سجود إبليس لآدم أدى به إلى أن يكون شر المخلوقات، فما بالك بمن هو مأمور بالسجود لله(لا لآدم) ثم هو يستكبر ويرفض؟!

[1] متفق عليه .

سبب تعدد الأديان

وإذا كان الأنبياء إخوة في دين واحد هو، فما سبب تعدد الأديان ومن المسؤل عن ذلك؟

إننا نؤمن بأن الأنبياء قد بلغوا رسالات ربهم على أحسن وجه، غير أن الناس اختلفوا من بعدهم وغيروا وبدلوا تعاليمهم وفرقوا دين الله إلى أديان عديدة، واشتقوا من أسماء أنبيائهم أسماء لدياناتهم الباطلة، يدعي كل منهم أنها تمثل ما كان عليه الأنبياء.

قال تعالى(كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم)(البقرة 213)

ولقد حذرنا من أن نحذو حذوهم فقال(ولا تكونوا من المشركين، من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً، كل حزب بما لديهم فرحون)(الروم32)

ـ فالأنبياء ليسوا مسؤولين عن فوضى تعدد الأديان، ولم يأمر عيسىu الناس أن يسموا أنفسهم مسيحيين، بل قال له أتباعه(آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون)(آل عمران52) ولم يأمر يهودا الناس أن يسمَوا أنفسهم يهودا وإنما قال موسى(يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين)(يونس84)

ولما تنازع النصارى واليهود على إبراهيم: هل كان يهودياً أو نصرانياً؟ جاء رد الله عليهم قائلاً(ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً[1] وما كان من المشركين) (آل عمران 67)

رب واحد ودين واحد

ولهذا دعا القرآن إلى دين واحد هو الإسلام الذي هو دين الأنبياء فقال(إن الدين عند الله الإسلام) (آل عمران19) وأنه الدين الذي ارتضاه لعباده(اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً)(المائدة 3) لا يرضى ديناً غيره، به تتحقق الصلة بين العبد وربه ويقبل عبادته وصلاته وبره وصدقاته، فمن عبد الله من خلال دين آخر فعبادته مردودة عليه لا تزيده من الله إلا بعداً، قال تعالى(ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين)(آل عمران 85)

[1] الحنيف هو المستقيم من غير عوج والحنفية هي الميل عن الشر إلى طريق الخير وكانت هذه الكلمة تطلق على فريق من العرب كانوا يستكبرون عبادة الأصنام.

السعادة وسبيل تحقيقها

أن كل إنسان متطلع بطبعه إلى ما يحقق له السعادة، هذه السعادة التي يسعى كل الناس في شتى أعمالهم للحصول عليها.
ـ فمنهم من يسعى لمتعة دنيوية مؤقتة يحسبها سعادة حقيقية تعقبها في الآخرة شقاوة وحزن، ومنهم من علم أن طاعة الله واتباع دينه في والارتباط الإيماني به هو منتهى السعادة التي لا توازيها كنوز الدنيا ومتاعها.

* وإذا غمرت هذه السعادة قلب العبد المؤمن عاش في الدنيا كأنه في الجنة، فهؤلاء هم السعداء حقاً.

وأي سعادة أعظم وأكمل من التذلل لله وعبادته والسعي في كسب رضاه والفوز يوم القيامة بجنته والنجاة من عذابه؟!! ليست السعادة في مال زائل ولا دنيا فانية.
إن المؤمن يعيش حلاوة إيمان في قلبه لو يشعر بها ملوك الأرض لقاتلوه عليها بالسيوف .

الإنسان بين غذاء الجسد وغذاء الروح

الإنسان محتاج دائماً إلى الغذاء اليومي لنماء جسده وسلامة بدنه، ولو توقف عن هذا الغذاء وقتاً من الزمن لانتابه المرض شيئاً فشيئاً، وربما أدى به ذلك إلى الهلاك، غير أنه محتاج في نفس الوقت إلى غذاء من نوع آخر، ألا وهو الغذاء الروحي الذي يغذي القلب.

* ومن المؤسف أن الناس يحرصون على الغذاء الأول الذي فيه سلامة أبدانهم، من غير أن يكونوا حريصين على الغذاء الثاني الذي به حياة قلوبهم وسلامتها.

إن حاجة القلوب إلى الغذاء الإيماني كحاجة البدن للغذاء المادي، فأمراض الذبحة القلبية وتصلب الشرايين وغيرها ليست بأقل فتكاً بالقلب من الأمراض الروحية كالرياء والشرك والكبر والنفاق وقسوة القلب التي تقع نتيجة هذه الآفات.

ولو أصيب هذا الغافل بمرض مادي في بدنه لهرع إلى المستشفى خوفاً على نفسه من الهلاك، بينما لا يهرع لمداواة قلبه وصيانته من أمراض خطيرة كالشك والشرك والنفاق والحسد والقسوة والكبر والتعلق بالدنيا، وكأن الخطر على القلوب مقتصر عنده على الجانب المادي فقط.

* إن الشرك بالله أعظم الأمراض فتكاً بالقلب، وأعظم سبب في خسارة الدين والدنيا، ودواؤه توحيد الله والإخلاص له والارتباط به ظاهراً وباطناً.

* فلا عجب بعد ذلك أن يصير التوحيد دعوة الإسلام الأولى وشعاره (لا إله إلا الله) كلمة الحق التي هي:

ـ مفتاح الدخول إلى الإسلام في الدنيا ومفتاح الدخول ‘لى الجنة في الآخرة.

ـ وهي أفضل ما تحركت به الألسن وأفضل ما قاله الأنبياء، قال رسول اللهε « أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي:لا إله إلا الله»[1]

ـ وهي أفضل كلمة يختم بها العبد كلامه عند الموت، قال ε «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة»[1]

* هذا ولا يقتصر الإسلام في مسألة التوحيد على مجرد الإقرار لله بوحدانيته في خلق السماوات والأرض وما بينهما، وإنما يأمر بتوحيد الله في العبادة[2] فلا يتقرب في العبادة إلا إليه ولا يقدم الصلاة والصيام إلا إليه.

ـ بل إن عدم التوكل على الله وعدم التحاكم إلى شرعه والخشية مما سوى الله، ومحبة ما سوى الله أكثر من الله أو مثل حب الله والتطير بالأرقام والطيور وغيرها علامة على وجود الشرك وعلى عدم صفاء التوحيد في قلب العبد، هذا مع كونه يشهد أن لا إله إلا الله، إذ لا تخلو هذه الآفات من مناقضة لمفهوم(لا إله إلا الله) وشروطها ومقتضاها.

---

[1] رواه الترمذي (3579)بإسناد حسن لغيره .

[1] رواه أبو داود(3116)والحاكم351/1 وصححه ووافقه الذهبي.

[2] العبادة هي: كمال الحب لله مع كمال الذل والخضوع.

ـ بل قد حذر الإسلام من الشرك الخفي الذي قد يخفى على صاحبه وحذر من الوقوع في الرياء سواء أكان داخل الصلاة أو خارجها.

أما في الصلاة فمثل أن يحسن المرء الصلاة ويظهر الخشوع حين يشعر بمراقبة صديق أو أخ له، ولذلك أوصى الإسلام المتصدق أن يخفي صدقته حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، وأن يسرَها عن أعين الناس لأن الله «لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه».

كل ذلك لينزع عنه كل أشكال الشرك المتعارضة مع التوحيد ليكون عمله خالصاً لله وحده.

يا أيها الناس اعبدوا ربكم

هل فكرت يوماً في سر وجودنا؟ من أين جئنا؟ ولماذا خلقنا الله؟ ماذا يريد منا؟ ولماذا أوجدنا على هذه الأرض؟

هل فكرت يوماً لماذا نموت؟ وأين يذهب بنا وما سيكون حالنا بعد موتنا؟

هل تفكرت في نفسك: لماذا جعل الله الدنيا وما فيها في يد الإنسان، سخر له الجبال والليل والبحار والنهار والشمس القمر؟ كما قال﴿الهه الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم، وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره، وسخر لكم الأنهار وسخر الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سألتموه﴾(إبراهيم33)

ـ ما الذي كان مطلوباً منه في حياته؟ وما الذي أخذه معه يوم أن خرج من الدنيا راغماً؟ أليس من حكمة وراء ذلك كله؟ أم أنه لا حكمة وإنما نعيش في هذه الدنيا كالأنعام نأكل ونشرب ونتمتع ثم نموت كمن قال:

جئت لا أعلم من أين ولكنـي أتيت
ولقد أبصرت قدامي طريقًا فمشيت
وسأبقى سائراً إن شئت هذا أم أبيت
كيف جئت؟ كيف أبصرت طريقـي؟
لست أدري... لست أدري لست أدري

هل خلقنا الله لمجرد الطعام والنكاح أم أن هناك هدفاً أسمى من ذلك يغفل عنه كثيرون؟ إن أكثر الناس لم يجشموا أنفسهم عناء البحث عن جواب لهذه الأسئلة فإن همهم منصبة نحو الحياة الدنيا فقط من غير أن يتفكروا في يوم تنقضي فيه حياة الناس.

والله تعالى لم يترك البشر يتيهون في بحر من الحيرة من غير أن يبين لهم سر وجودهم على هذه الأرض إذ قال﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون﴾(المؤمنون110) ولم يتركهم هملاً﴿أيحسب الإنسان أن يترك سدى﴾(القيامة36) وإنما أنزل الكتب وأرسل الرسل وأقام الميزان بالقسط بين الناس اختباراً لهم ليعبدوه وفق شرعه وحكمه﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمنّ الكاذبين﴾(العنكبوت1)

* فهذه الدار دار اختبار وامتحان، دار عمل ننتقل منها إلى دار جزاء لا عمل فيها، إنها دار ثواب أو عقاب، دار حصاد لما زرعناه في الدنيا، عندها يحصد الناس ما كانوا قد زرعوا من العمل حين كانوا في دنيا العمل﴿يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾(الزلزلة6)

ولذا قيل:الدنيا مزرعة الآخرة، ثم يكون الناس يومئذ فريقان: إما سعيد في الجنة وإما شقي في النار.

* فالغاية الأسمى من خلق الله لنا هي عبادته وحده﴿ وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾(الذاريات57)

* ولكن أيريد منا أن نلازم المساجد وأن لا نفارقها أبداً؟ أم يريد منا أن نعبده بطاعته وامتثال أمره، فالصلاة والصوم عبادة، وترك المحرمات عبادة، وإعانة الناس والإحسان إليهم عبادة والإنفاق على الزوجة والولد عبادة، والعمل الحلال عبادة، والسعي في الإصلاح بين الناس عبادة.

وهكذا كل شأن من شئون الحياة عبادة وليس الصلاة والصيام فحسب، إن مفهوم العبادة في الإسلام أوسع من ذاك المفهوم الضيق الذي يفهمه أهل الديانات الأخرى.
قال رسول اللهε «وفي بضع أحدكم صدقة، قالوا: يا رسول الله: أياتي أحدنا شهوته ويكون له أجر؟ قال: أرأيتم إن وضعها في حرام أكان عليه وزر؟ قالوا بلى، قال: فكذلك إذا وضعها في حلال كان له أجر.

قاعدتان ثمينتان

يعطينا القرآن قاعدتين هما شرطان مهمان في قبول العبادة، قال تعالى﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾(الكهف110) هذه الآية تبين لنا شريطين لقبول العبادة:

أولهما: إخلاص النية لله تعالى﴿ولا يشرك بعبادة ربه أحدا﴾(الكهف110) وقال نبينا ρ «إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً وابتغى به وجهه»[1] ولا يقتصر الأمر على رد عمله إذا كان مشركاً فحسب، بل يجعله الله هباءً منثوراً﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً﴾(الفرقان23) ثم يعاقبه على عدم خلوص النية وإن كان ظاهر العمل الصلاح لأن الله لا يطلع على ظاهر العمل فحسب، إنما يطلع على باطنه فيعلم صلاح القلب أو فساده.

* لقد تلا الفضيل بن عياض قوله تعالى﴿ الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا﴾(الملك2) ثم قال«أحسن العمل أخلصه وأصوبه.

فقيل له: ما معنى ما تقول يا أبا علي؟

قال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، ولا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً صواباً.

1- والخالص أن يكون ابتغي به وجه الله تعالى.

2- والصواب أن يكون موافقاً للكتاب والسنة.

وجاء في الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه، عن النبي ρ في حق من حسن عمله وساءت نيته«أن أول الناس يدخل النار يوم القيامة ثلاثة نفر:

1- عالم جمع القرآن، أي حفظه.

2- ومجاهد قتل في سبيل الله.

3- وغني كثير المال.

فأول من يدعي للحساب قارئ القرآن فيقول الله له:

ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي؟

قال: بلى يا رب.

قال: فماذا عملت فيما علمت؟

قال: كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار رجاء ثوابك.

فيقول الله: كذبت، وتقول الملائكة: كذبت، ويقول الله: بل أردت أن يقال فلان قارئ وقد قيل ذلك، اذهبوا به إلى النار.

ويؤتى بصاحب المال فيقول الله: ألم أوسع عليك حتى لا أدعك تحتاج إلى أحد؟ قال : بلى يا رب.

قال: فماذا عملت فيما آتيتك؟

فيقول: رب قد رزقتني مالاً فوصلت به الرحم، وتصدقت به على المساكين رجاء ثوابك وجنتك.

فيقول الله: كذبت، وتقول الملائكة: كذبت، ويقول الله : إنما أردت أن يقال فلان جواد وقد قيل_أي قيل فيك ما كنت ترجو أن يقولوه عنك_ اذهبوا به إلى النار.

---

[1] رواه النسائي في الجهاد(59) بإسناد حسن.

ثم يؤتى بالذي قتل في سبيل الله فيقول الله: لماذا قتلت؟
فيقول: رب خرجت في سبيلك فقاتلت حتى قتلت رجاء ثوابك وجنتك.
فيقول الله كذبت، وتقول الملائكة كذبت، ويقول الله، إنما كنت تقاتل ليقال إنك جريء وشجاع، وقد قيل، خذوا به إلى النار.

قال رسول الله ρ «يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة»[1].

فهاتان القاعدتان دعامة التوحيد الخالص كما جاء به الإسلام: عبادة الله وحده على نور من كتابه وسنة نبيه ρ ومن عمل بهما بريء في عبادته منن الشرك والابتداع في الدين، فالشرك في عبادة الله والابتداع في دينه هما السببان اللذان ضلت الأمم بهما.

[1] رواه الترميذي والحاكم 111/3 وقال هذا حديث صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

الحاجة إلى علم التوحيد

التوحيد حق الله على عباده الذين خلقهم من العدم وسخر لهم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة، وقد تكفل لمن قام بهذا الحق أن يدخله الجنة كما قال رسول الله ρ لمعاذ«يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله؟ قال معاذ: الله ورسوله أعلم، قال : حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً»[1].

* فالتوحيد أشرف العلوم لتعلقه بالله وأسمائه وصفاته وهو ما كان يدعو إليه الرسل﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾(الأنبياء25) وتعلمه واجب على كل مسلم ومسلمة، لأن صلاح دين المرء مرتبط بصلاح عقيدته.

وقد حرم الله الجنة على المشرك، وحرم الخلود في النار على كل موحد، لذا كانت حاجة البشر إلى التوحيد تفوق حاجتهم إلى الطعام والشراب، فإن يك في فقدان الطعام والشراب فقدان مقومات الحياة.

فإن في فقدان التوحيد فقدان مقومات السعادة في الدنيا والآخرة، وفقدان حلاوة الإيمان وطمأنينة النفس بصلتها بالله الواحد، وإن العبد لا يسكن قلبه إلا بصلته بربه وبالتقرب إليه بما يرضيه والابتعاد عما يسخطه.

* فما من خير إلا والتوحيد أصله، ولا شر في الدنيا والآخرة إلا والشرك سببه، وما من شدة من شدائد الدنيا إلا وبالتوحيد زوالها، فبكلمة التوحيد نجا يونس حين نادى وهو في بطن الحوت(لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) وقد جعلها الله تعالى نجاة كل مكروب.

---

[1] رواه البخاري(7373).

مزايا عقيدة التوحيد

إن لعقيدة التوحيد مميزات عديدة منها:

* أنها تقوم أولا على الإيمان بالله رباً واحداً لا شريك له، خلق السماوات والأرض وما بينهما، وتقوم على الإيمان به إلهاً واحداً لا شريك له في ألوهيته.

* أنها عقيدة سهلة خالية من التعقيدات والفلسفات لا تتخللها غوامض ولا أسرار.

* أنها تحرر الإنسان من الشرك وتخرجه من عبودية العباد إلى عبادة الإله الواحد، قال تعالى﴿إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه﴾ فالحاكم والمحكوم محكومان تحت حكم الله وحده، وقد قال الخليفة والحاكم الأول بعد رسول الله ρ حين تقلد زمام الخلافة«أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم».

* أنها عقيدة ملائمة للفطرة لا تصادم بينهما، فالفطرة ودين الله يشدا إلى التوحيد، فلا ثالوث ولا شريك ولا وثن ولا وسائط ولا بدع.

* أنها ثابتة واضحة المعالم لا تتطور بمرور الأزمان وتعاقب الأجيال.

* أنها مبرهنة تقيم البراهين والحجج على صحة كل مبدأ منها، ولك أن تتأمل هذه الآيات:

* ﴿يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له، إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه، ضعف الطالب والمطلوب﴾(الحج73)
* ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا، فسبحان الله رب العرش عما يصفون﴾(الأنبياء22)
* ﴿مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت، اتخذت بيتاً، وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون﴾(العنكبوت41)

* ﴿قل أفرءيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته؟ قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون﴾(الزمر38)
* ﴿إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين﴾(الأعراف194)
* ﴿أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى ، بلى إنه على كل شيء قدير﴾(الأحقاف33)
* أنها تدعو إلى نبذ التقليد الأعمى للآباء والأجداد وإلى التأمل والتدبر وطلب الحق بتجرد وإنصاف﴿وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾(الزخرف22)
* ﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أول كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون﴾(البقرة170)

* أنها تدعو دائماً إلى الوسط فلا إفراط ولا تفريط، ولا غلو ولا إجحاف، وقد كان للغلو في الدين أسوأ الأثر، فالإسلام وسط بين من سبوا المسيح وآذوه حتى رفضوه، وبين من أفرطوا في محبته حتى عبدوه، وليس المسيح كذاباً كما قالت اليهود ولا رباً كما ادعت النصارى وإنما هو عبد الله ورسوله.

وهناك ترابط لا يتجزأ في العقيدة الإسلامية بمعنى أن سلاسل الاعتقاد مرتبط بعضها ببعض غاية الارتباط بحيث أن إنكار شيء منها يعتبر إنكاراً لكل شيء، فلا ينفع إيمان من آمن بمحمد ρ وكفر بالمسيح ρ ولا ينفع إيمان من آمن بالله وكفر باليوم الآخر، ولا ينفع إيمان من آمن بالقرآن وكفر بالتوراة والإنجيل، ولا ينفع إيمان من آمن بمحمد ρ وكفر بعيسى أو موسى.

ولا يزال اليهود والنصارى يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، يكفر اليهود بعيسى ρ ويكفر النصارى بمحمد ρ، وبينما نرى النصارى يطالبون اليهود أن يؤمنوا بالمسيح، نجدهم يقفون من محمد ρ موقفاً شبيهاً بموقف اليهود من عيسى ρ بل إن كلا الملتين تتفقان على الكفر بمحمد ρ أما الإسلام فإنه يدعو كلا الطائفتين إلى الإيمان بكل الرسل وبكل الكتب، وجعل لك ركناً من أركان الإسلام.

* إن النصارى لن يطالبوا المسلم بالإيمان بعيسى أو بموسى عليهما السلام، لأن المسلم يعلم أن الإيمان بعيسى وموسى شرط من شروط الإيمان، ولا يقبل الله إيمان من آمن بمحمد وكفر بالأنبياء الآخرين، لأن إنكار نبوة نبي واحد كفر لا ينفع معه إيمان بنبي آخر، ولعل هذا معنى قوله تعالى (كذبت قوم نوح المرسلين) وقوم نوح لم يكذبوا كل المرسلين وإنما كذبوا نوحاً فقط، لكن الله اعتبر ذلك بمثابة تكذيب كل المرسلين، لأن الكفر بنوح لا ينفع معه الإيمان بباقي الأنبياء.

ولهذا قال تعالى﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا، أولئك هم الكافرون حقا﴾ ثم انتقل السياق إلى المؤمنين فقال ﴿والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيماً﴾

ـ غير أن المسلم لا يزال يطالب اليهود والنصارى أن يؤمنوا بمحمد ρ وهم لا يزالون يستكبرون عن الإيمان بنبوته[1] فشعار المسلم دائماً﴿لا نفرق بين أحد من رسله﴾ وشعار غيره التفريق.

---

[1] نذكر بأن اسم نبينا محمدع موجود إلى الآن في الكتاب الذي بأيدي اليهود (سفر نشيد الأنشاد 16/5).

الإيمان بالله

ويتضمن قضايا رئيسية ثلاث:

(1) الله هو الرب الخالق الرازق المحيي المميت وهذا أمر بديهي لا يحتاج إلى دليل، فإن شئون الخلق والرزق والملك والتدبير بيد الله لا يشاركه فيها أحد من المخلوقات ، وهذا أمر مركوز في الفطرة البشرية، اللهم باستثناء من أنكر ذلك مكابرة واستهزاء فإن سريرته تشهد بوجود الله تعالى وإن تظاهر بالإنكار والجحود كما قال تعالى عن فرعون وقومه ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوا﴾(النمل41)

ومع أن فرعون كان يسأل بسخرية وتبجح﴿وما رب العالمين﴾ إلا أن موسى لم يكن يزيد على أن يقول له﴿لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر﴾(الإسراء102)

ولذلك كان أول ما يدعو إليه الأنبياء: عبادة الله﴿أعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ ولو كان الدليل على وجود الله غير فطري وإنما يكون بالتعليم لكان أول ما دعوا إلى الإيمان بوجود الله قبل الدعوة إلى عبادته، ولذلك حين سئل أعرابي عن الدليل على وجود الله قال: سبحان الله! البعرة تدل على البعير، والأثرة تدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، أفلا يدل ذلك على العليم الخبير؟!

* والدليل العقلي شاهد على أن كل شيء موجود دال على وجود الخالق، فإنه ما من مخلوق إلا وله خالق أوجده من العدم إلى الوجود، ولا يمكن أن يكون خلق نفسه، فلم سبق إلا أن يكون لها موجود أوجدها من العدم.

لذا كان وجود هذه الموجودات دليل بنفسه على وجود الخالق، قال تعالى﴿أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون﴾(الطور35)بل إن الدليل كامن فينا كما قال تعالى﴿وفي أنفسكم أفلا يبصرون﴾أليست أطوار الرحم آية من آيات الله؟ أليست الأوعية الدموية والشرايين والقلب واختلاف بصمات أصابع كل واحد من البشر عن الآخر لدليل عظيم على وجود هذا الخالق العظيم؟

ولكننا لسنا إلا دليلاً صغيراً بالنسبة لهذا العالم الكبير الذي خلقه الله عز وجل﴿ لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾(غافر57)

أنظر إلى هذه الكواكب السابحة التي تعد بالملايين وإلى سيرها الدقيق المنتظم، لا يصطدم بعضها ببعض على كثرتها وسرعتها الهائلة التي تذهل العقول، أنظر إلى الكرة الأرضية من يحملها على ما فيها من بحار وجبال وبشر وحيوان من يمسكها من الهوى والدمار؟ أنظر إلى شمسنا من يمدها بالوقود ويبقيها على درجة واحدة من الاشتعال وعلى مسافة محددة ومقدرة طيلة قرون طويلة؟ لو اقتربت قليلاً لمات أهل الأرض احتراقاً، ولو ابتعدت قليلاً لماتوا برداً، هل يحتاج مع هذه الأدلة إلى دليل آخر على خالقها؟

إنه الله الذي﴿خلق كل شيء فقدره تقديرا﴾ هو خالق هذا الكون وبارئه ومالكه، لا شريك له في خلقه وأمره، وكل ما سوى الله مملوك مخلوق لا حول له ولا قوة إلا بربه الذي خلقه، والذي لا راد لما قضى ولا معقب لما حكم.

* وقد كان المشركون الذين بعث فيهم نبينا محمدﷺ يعتقدون بوجود الله وأنه خالق كل شيء ومليكه، لا ينكرون ذلك أبداً، وإنما كانوا ينكرون أن يدعوهم أنبياؤهم إلى إله واحد فقط هو الله ونبذ الآلهة الباطلة التي ورثوها عن آبائهم، ولهذا قالوا﴿أجعل الآلهة إلها واحداً إن هذا لشيء عجاب﴾

فهذا سبب النزاع بين الأنبياء وبين قومهم، ولذلك قال تعالى﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم﴾ وقد كانت أول كلمة يدعو الرسول إليها﴿اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ ولم يدعهم إلى اعتقاد أن الله الرب الخالق الرازق المحيي المميت لاستقرار ذلك في نفوسهم، ولو أرسل الله الرسل لتعليم قومهم وجود الله ووحدانيته في الخلق والرزق والإيجاد لم يحصل اختلاف بين الأنبياء وأقوامهم بتاتاً لاتفاقهم على ذلك بالضرورة الفطرية.

غير أن القرآن يلزم المشركين بما أقروا به من وحدانية الخالق كدليل على وحدانية المعبود سبحانه، بمعنى فإن اعتقدتم أن الله هو الخالق وأن ما سواه مخلوقون فلماذا لا تتوجهون إلى معبود واحد هو الخالق نفسه؟

وتأمل قوله تعالى﴿أمنّ خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها، أإله مع الله﴾ فالله يذكر المشركين بما يعترفون به – من أنه خلق السماوات والأرض – ليصل بهم إلى ما ضلوا عنه وهو إفراده وحده بالعبادة والكفر بأصنام لا تنفع ولا تضر - ولهذا ختم الآية بقوله﴿أإله مع الله﴾ أي تعترفون أنه الخالق وحده وتشركون معه من لا يخلق شيئاً ولا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً؟!

وقوله﴿يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فأنى تؤفكون﴾(فاطر4) فهو يذكرهم بواحدنيته في الخلق ثم تنتهي الآية بتقرير وحدانيته في العبادة لا إله إلا هو.

إعراض عن الله وليس إنكاراً

إن الإلحاد الذي يعم الغرب إنما هو في الحقيقة إعراض عن الله تحدث الله عنه﴿وإذ أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض﴾(فصلت51) ﴿والذين كفروا عما أنذروا معرضون﴾(الأحقاف46) ﴿اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون﴾(الأنبياء1)

وهؤلاء ينسون إلحادهم إذا وقعوا في مأزق وشدة.

فهؤلاء معرضون متناسون لربهم في الحقيقة وليسوا ناسين، فالله أخذ الميثاق على بني آدم جميعهم الاعتراف بأن الله ربهم ولم تستثن الآية فرعون ولا ماركس ولا غيرهم من أئمة الدعاة إلى نفي وجود الرب.

(2)الرب واحد: إله واحد

وذلك أن الله هو الإله الواحد المستحق للعبودية وحده، لا نعبد إلا إياه، ولا ندعو إلا إياه كما علمنا في القرآن أن نقول (إن صلاتي ونسكي ومحيياي ومماتي لله رب العالمين) (الأعراف162) وكل معبود اتخذه الناس من دونه فهو معبود بالباطل، لا يخلق شيئاً ولا يملكه كما قال تعالى(ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل)(لقمان30) فإن الإله هو (المألوه) أي (المعبود).

وإذا كان الله هو رب الناس وحده، مالك الناس وحده، كان هو إله الناس وحده.

ولذلك نرى هذه الحقيقة تتجلى في الثلاث آيات الأولى منن سورة الناس(قل أعوذ برب الناس ملك الناس إله الناس).

ويكون من حقه على عباده حينئذ أن يعبدوه وحده، وأن يتوجهوا إليه وحده بالدعاء والرجاء والخوف والتوكل والإنابة والخضوع والذبح والنذر.

وهذا هو المقصد الأعظم من بعثة الرسل عليهم السلام، وهو الذي بسببه وقعت بينهم وبين قومهم الخصومة والعداوة فأرسل الله إبراهيم إلى قومه الذين كانوا يعبدون الأصنام التي ترمز إلى جماعة من صالحي قوم نوح والنجوم التي يعتقدون أنها مجسمات للملائكة، ويتخذون من دون الله أنداداً ووسائط وشفعاء لم يأذن الله لهم، ليجعلوا منهم قربة إلى الله فقط! وكان القرآن يندد بهم.

ـ (ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله)(يونس18)

ـ (ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقاً من السموات والأرض شيئاً ولا يستطيعون)(النحل73)

ـ (قل أرأيتم ما تدعون من دون الله، أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات، إئتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين، ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون)(الأحقاف5)

ـ (قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هنّ كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته؟ قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون)(الزمر38)

ـ (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله، لا يملكون مثقال ذرة في السموات والأرض)(سبأ22)

ـ (ذلكم الله ربكم له الملك، والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير، إن تدعوهم لا يسمعوا دعائكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم، ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خير)(فاطر14)

ـ (ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك، فإن فعلت فإنك إذاً من الظالمين)(يونس106) أي من المشركين، فإن الشرك بالله أعظم الظلم، وهو ظلم موجه إلى خالق السماوات والأرض.

فلا يكفي في التوحيد اعتقاد وحدانية الله ولكن لا بد من إخلاص التوحيد ظاهراً من دعاء وذبح ونذر، وباطناً في تصحيح النية والحذر من دخول لشرك عليها كالرياء.

غاية الإيمان بالله.

وليست غاية الإيمان بالله مجرد الاعتقاد بوجوده فإن هذا متفق عليه بين المؤمن والكافر، بين الصادق والمنافق، بين الموحد والمشرك، فإن إبليس يعتقد أن الله موجود،

وقد أقسم بعزة الله أمام الله أنه سيغوي بني آدم كما يبين لنا القرآن ذلك﴿فبعزتك لأغوينهم أجمعين﴾ وإنما توحيد الله هو إخلاص العبادة لله والحرص على أن تصرف العبادة لله خالصة، فما يؤمن أكثر الناس إلا وهم مشركون يتخذون شركاء بحجة أنهم شفعاء ووسطاء مع الله هذا هو الشرك المصيدة التي هلك كثير من الخلق بها.

روح العبادة[1]

«والعبادة لها روح ولها جسد، روحها العقيدة التي دفعت إليها، والغاية التي عملت من أجلها، وجسدها عمل الجوارح من لفظ اللسان وحركات الجسم، فإن لم يكن الدافع إلى الصلاة والزكاة والحج والصيام والجهاد محبة الله وابتغاء رضوانه كانت الصلاة جسداً ميتاً لا روح فيه» والقلب الذي يعلم أن النفع والضر والتحليل والتحريم كله بيد الله، يمتلئ بتعظيمه وستشعر معنى«الله أكبر» فيصغر معه كل شيء في جنب الله لذا كان فساد العمل مرجعه إلى فساد في العقيدة.

لله الأسماء الحسنى

إن هذه التسمية (توحيد الأسماء والصفات) تسمية مهمة ومع ذلك فقد يعترض البعض على إدراجها ضمن مسائل التوحيد، ولكن الخوض في هذا الباب بغير علم قد يؤدي إلى الشرك والكفر.

* فمثلاً تجد اليهود قد كثر إلحادهم وضلالهم فيه مع زعمهم أنهم يمتازون على النصارى بالتمسك بالتوحيد، كقولهم أن يد الله مغلولة، وأنه تعب فاستراح بعد ستة أيام من خلق السماوات والأرض، وانه خلق الإنسان على شبهه، وأنه كان يندم ويحزن ويبكي ويصفق حتى زعموا أنه نزل إلى الأرض وصارع يعقوب فصرعه يعقوب.

* وتجد النصارى يجعلون من صفات الأبوة ويجعلون له جزءاً ويسوَون الله بغيره حتى صارت صفات الله عندهم لا تختلف عن صفات البشر.

ولذلك تجد القرآن يحكي بعض أقوال أهل الباطل ثم ينزه نفسه عن باطلهم فيقول﴿سبحان الله عما يصفون﴾ وهؤلاء ينكشف لهم ضلالهم يوم القيامة فيقولون لمن كانوا معبودين عندهم﴿تالله إن كانا لفي ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين﴾(الشعراء98)فهذا شرك بالله فيما يختص له من الأسماء والصفات.

وإن من تسوية صفات الله بصفات البشر إعطاء المخلوقين صفات يختص الله بها دون سواه كرفع الأيدي بالدعاء إلى غير الله لقضاء الحوائج ودفع الكربات والمصائب واتخاذ قبور الأنبياء والصالحين أمكنة للدعاء والعبادة اعتقاداً منهم أنهم يسمعون، ولولا اعتقادهم فيهم أنهم يسمعون_ وهم في قبورهم_ كل من يناديهم وأنهم ينفعون سائلهم ويضرون عدوه يشفعون له عند الله ما دعاهم ولا أتى إلى قبورهم طالباً تحقيق الحوائج منهم.

ولو أن النصارى ألغوا الاعتقاد بألوهية المسيح وبالثالوث ولم يبق إلا أنهم يسألون المسيح ومريم والقديسين من دون الله لكانوا ما زالوا يعبدونهم من دون الله.

---

[1] هذا الفصل مأخوذ من كتاب تعريف عام بدين الإسلام لفضيلة الشيخ علي الطنطاوي 79.

هذه حقيقة يغفل عنها كثيرون: وهي أن النصارى لا يعبدون المسيح فقط، وإنما يعبدون كل قسيس وقديس يسألونه مع الله ولهذا قال تعالى للمسيح﴿أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلاهين من دون الله﴾ ومعلوم أن النصارى لا يقولون أن مريم إله من دون الله، ولكنهم عبدوها بأفعالهم وإن لم يصرحوا بألوهيتها فالعبرة بحقيقة الشيء لا باسمه.

من هنا كان موضوع توحيد الله في أسمائه وصفاته من أهم المسائل التي يجب التنبه لها. ولا ننسى أن أعظم آية في كتاب الله (آية الكرسي) ليس فيها إلا أسماء الله وصفاته، وأن سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن وليس فيها إلا أسماء الله وصفاته.

ثلاث قواعد في الأسماء والصفات

هذا ويرتكز موضوع الأسماء والصفات على ثلاث قواعد:

الأولى: تحريم الخوض في صفات الله بغير علم ولا هدى فإنه لا سبيل إلى معرفة أسماء الله الحسنى وصفاته بالعقل لأن ذلك من شئون الغيب لا سبيل إلى العقل في العلم بها إلا من خلال ما علمنا الله إياه كما قال﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء﴾

فطريقة أهل السنة: الإيمان بما ثبت وصف الله به من كتاب الله أو سنة رسوله ρ من غير تحريف له أو زيادة عليه، إذ هو أعلم بما يليق به منا، فلو كانت الصفات التي أوحاها لا تليق به لما وصف بها نفسه، ولذلك قال الإمام أحمد«لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه رسوله ρ لا يتجاوز القرآن والسنة»

لذا فلا يقدر أحد أن يحصي أسماء الله أو يحد لها عدداً، فإن من الأسماء ما استأثر الله بعلمه لا يعلمه أحد من خلقه ولا أنبياؤه كما قال رسول الله ρ « اللهم... أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ونور صدري»[1].

وأما قوله ρ «إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة» فقد اتفق أهل العلم أنها غير محصورة في هذا العدد، وإنما المعنى أن من أسماء الله ما إن أحصاه العبد دخل الجنة، معنى الإحصاء هنا: جمعها.

* حفظاً ومراعاة لها ومحافظة على حدودها في معاملة الله بها فمن علم أن الله سميع بصير : استحيا منه أن يعصيه وهو يعلم أنه رقيب لا يخفى عليه شيء، ولو لم يعلم الناس أن الله غفور رحيم لأصابهم اليأس من معاصيهم فهم يرجون رحمة الله، ولولا علمهم بأن من صفاته الجبار المنتقم لأمنوا عذابه وفعلوا ما يحلو لهم وهكذا.
* دعاء لله بها، كما أفاده الحديث السابق، ولقوله تعالى﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾.

الثانيـة: تنزيه الله عن مشابهة الخلق وعن أي نقص، وهذا معنى قول القائل(سبحان الله) أي تعالى عن كل نقص وعيب مما يليق بالمخلوقين.

الثالثة: قطع الطمع عن إدراك كيفية هذه الصفات ، وعدم الخوض في السؤال عن الكيفية فلو قال لك قائل: كيف ينزل الله إلى السماء الدنيا؟ فنقول له: كيف هو ؟ فسيقول: لا أعلم كيفيته، فنقول له حينئذ: وأنا لا أعلم كيفية نزوله، إذ العلم بكيفية الصفة يتطلب العلم بكيفية الموصوف بهذه الصفة.
فما أعلمنا الله إياه من خلال وحيه علمناه، وما لم يعلمنا إياه فلا سبيل إلى التوصل إليه بعقولنا، إذ ليس للعقول قانون ثابت، بل قد تختلف العقول والأمزجة، فيرى صاحب هذا العقل ما لا يراه صاحب ذاك العقل، قال تعالى﴿ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت

[1] رواه أحمد 391/1 وهو حسن.

السموات والأرض ومن فيهن) وهذا ما حدث بالفعل حين تضاربت عقول من اتفقوا عل تقديم العقل على النصوص الشرعية ورأى كل منهم فساد عقل صاحبه.

فبعضهم قالوا: يستحيل عقلاً رؤية الله يوم القيامة لذا اضطررنا إلى تأويل قوله تعالى(وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) فقال لهم المخالفون لهم « بل إن رؤية الله ممكنة عقلاً» وهذا لا يعني إبطال دور العقل فإن للعقل وظيفة وطاقة محددة.

فليس من العقل إطلاق العنان للعقل في أمور غيبية لا يكاد يطيقها ويعجز عن تحملها، فأين دور العقل في التعرف على سر أرواحنا الملازمة لنا صباح مساء، إنه عاجز عن التوصل لأدنى المعلومات عنها، فكيف يجوز تحكيمه فيما هو أعظم من ذلك؟ وهل نتصور أن تتحاكم نصوص القرآن والسنة إلى محكمة العقل والعقول مختلفة متناحرة؟ وليس من العقل تقديم عقل الإنسان القاصر على شرع الله الكامل.

قاعدة مهمة: إن مثل العقل من النقل(النصوص الشرعية) كمثل العين من الشمس،فإن استعمال العين ضروري للرؤية، ولكن لا يمكن للعين أن تؤدي وظيفتها من دون الشمس التي تمدها بالضوء، وكذلك استعمال العقل ضروري وإنما يعمل العقل على نور من وحي الله_ الكتاب والسنة_ ولا يستقل العقل عن هذا النور الإلهي إلا كان مآله التخبط والضياع.

والله أعلم بنفسه وبما يليق به من الصفات، وهو أقوم قيلاً وأحسن وأصدق حديثاً، ولا يصف نفسه بصفات تماثل صفات البشر، وإنما يوصف بالصفات التي تليق بعظمته وقدرته، كما أن العباد يوصفون بما يليق بهم من صفات الضعف والفقر، غير أن هناك أسماء كلية مشتركة إذا أضيفت إلى أحد ما أختص معناها بمن أضيفت إليه، مثال ذلك:

«القدرة» :وهي صفة وصف الله بها نفسه فقال(والله على كل شيء قدير)ووصف بها عباده(إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم) ومع ذلك فشتان بين قدرة الخالق وقدرة المخلوق.

فهذه الصفة لما أضيفت إلى الله صار لها معنى مختصاً بالله تعالى لا يشاركه فيه أحد، ولما أضيفت إلى العبد صار لها معناها الخاص بالعبد والذي يتنزه الله عنه، وهذا حاصل بالنسبة للمخلوقين أنفسهم، فإننا نجد أسماء يشترك فيها نوعان من المخلوقات، ومع ذلك فلا يزال كل من المخلوقين مختلفاً عن الآخر تماماً، لا تشابه ولا تماثل.

* فالإنسان حي، النبات حي، ومع ذلك فحياة الإنسان مختلفة عن حياة النبات، فإذا كان التماثل والتشابه في الكلمة الواحدة بين المخلوقين لا يلزم معه أن تكون حقيقة أحدهما مثل حقيقة الآخر، كان ذلك في حق الخالق من باب أولى.

* ونحن نعلم الفرق بين عسل الجنة وبين عسل الدنيا، وبين أنهار الجنة وأنهار الدنيا، وبين فاكهة الجنة وفاكهة الدنيا، وبين خمر الجنة وخمر الدنيا، فإذا كان «ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء» [1] فكذلك ليس فيما وصف الله به نفسه مما وصف به

[1] قاله ابن عباس في تفسير (وأتوا به متشابهاً).

عباده إلا الأسماء، أما الحقيقة والكيف فـ «ليس كمثله شيء» فإن حقائق الصفة المشتركة بين مخلوق ومخلوق مختلفة فكيف بين المخلوق والخالق؟

فإذا فهمنا هذه الحقيقة نجونا من التأويلات والأوهام التي وقع فيها كثيرون ممن خاضوا في صفات الله حتى انتهى بهم خوضهم إلى الحيرة وبآخرين إلى التحريف ووصفوا الله بصفات النقص ظناً منهم أنها الدواء من أوهام التشبيه، وإنما يصف الله نفسه بصفات الكمال.

أما من رغب عما وصف به نفسه وآثر طريق التأويلات والظنيات: فسيصف ربه بصفات النقص كما قال بعضهم ان الله«ليس بذي طول ولا عرض وليس من المطعومات ولا من المشروبات ولا يستوي ولا ينزل ولا يشار إليه، وأنه ليس فوق ولا تحت ولا داخل العالم ولا خارجه» فهذا من صفات العدم.

* وهذه الطريقة السلبية التي تبدأ دائماً بـ(ليس) تخالف المنهج القرآني الذي يذكر ما يليق بالله من الصفات الإيجابية بالتفصيل ولا يأتي على صفات السلب إلا بشكل مجمل ومقترن في نفس الوقت مع صفات الإيجاب المفصلة كقوله﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ فابتدأ بالسلب﴿ليس كمثله شيء﴾ رداً على الذين يشبهونه بخلقه، وانتهى بالإيجاب﴿وهو السميع البصير﴾رداً على الذين ينفون ما وصف به نفسه بحجة الهروب من التشبيه.

* والصفات السلبية إذا تجردت عن الصفات الإيجابية فلا تثبت مدحاً ولا ثناءً، والله يصف نفسه بما يستوجب مدحه والثناء عليه، كما قال ρ « لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك»[1] فلو أنك وصفت ملكاً من الملوك بأنه ليس جاهلاً ولا غبياً لآمر بمعاقبتك مع أنك ما تقصد إلا تنزيهه عن النقائص، إن هذا التنزيه المزعوم تنقيص في صورة تنزيه أخطأ من استعمله في حق الله جل وعلا.

فالمنهج السليم إثبات ما أثبته الله لنفسه وما وصفه به رسوله ρ من غير تشبيه ولا تعطيل ولا تحريف ولا تكذيب، بمعنى آخر: نثبتها لله إثباتاً بلا تشبيه وتنزيهاً بلا تعطيل، فكل وصف ثبت للمخلوق وأمكن اتصاف الخالق به[2] فالخالق أولى بهذه الصفة من مخلوقاته.

[1] رواه الترمزي(3561)وأبو داود(1427)وهو صحيح.
[2] وهذا القيد إذ ليست كل صفة كمال للمخلوق كمالاً بالنسبة للخالق، العبد الذي يأكل وينام وينجب أكمل حالاً من الذي لا يستطيع أكلاً ولا نوماً ولا إنجاباً، مع أن هذه الصفات صفات نقص إذا أضيفت إلى الله.

أنواع الصفات

وصفات الله على نوعين:

* الصفات الذاتية: وهي التي لا تنفك عن الله أزلاً وأبداً كصفات العلم والحياة والقدرة والسمع والبصر والكلام والعظمة والكبرياء والرحمة.

* الصفات الفعلية: وهي ما تعلق بمشيئة الله وقدرته، كالكلام الذي تكلم الله به، والاستواء والنزول والمجيء والرضى والغضب...الخ.

التأويل داء المرضى لا دواؤهم

إن أعمال التأويل في أسماء الله وصفاته داء وقع فيه نوعان من الناس:

* **النوع الأول:** قوم التبس عليهم الأمر وخافوا من الوقوع في تشبيه الله بخلقه فظنوا أن التأويل ينجيهم من ذلك، غير أن التأويل لم ينه المشكلة، فقد وقعوا في شر مما ظنوه شراً وهربوا منه.

* **النوع الثاني:** وهم قوم مفتونون أصلاً، فتنتهم علوم المنطق وتراث أرسطو وأفلاطون وغيرهم من المتكلمين وفلاسفة اليونان الذين خاضوا في الذات الإلهية خوضاً فلسفياً بغير سلطان ولا هدى من الله .

وقد وقعت الفتنة بعدما تمت ترجمة كتبهم إلى العربية، وأدخلت علوم الفلاسفة في أخطر باب من أبواب أصول الدين الإسلامي وهو باب صفات الله عز وجل، ثم اتخذ المفتونون منها قواعد جدلية ظنوها يقينية سليمة تساعد على تنزيه الله، وإنما كان في الحقيقة سموماً أضرت في دينهم وحاولوا التوفيق بينها بين نصوص الإسلام الشرعية، ثم ما لبثت أن أوقعتهم في تعطيل الصفات التي وصف الله لها نفسه، وكان لذلك أكبر الأثر في تفرق المسلمين.

التأويل بدعة متأخرة

ولا شك أن مرض التأويل لم يظهر قبل ذلك وإنما ظهر بظهور كتب المنطق والفلسفة والكلام، وقد مضت قرون الإسلام الأولى ولم ينقل لنا عن أحد تأويل صفة من صفات الله تعالى، ولو كان التأويل هو الصحيح لسبقونا إليه ولأوجبه الله ورسوله ρ ، إذ الله أعلم من عباده فيما يليق بجلاله من التنزيه كما قال(قل ءأنتم أعلم أم الله) فكيف يقال بعد هذا إنها تحتاج إلى تأويل كشرط للتنزيه وإلا لزم من إثباتها تشبيهاً لله بخلقه.

وهل دعا النبي ρ إلى هذا التأويل ودلنا عليه؟

فإما أن يكون التأويل هو الحق وقد فاته هذا الحق! وإما أن يكون قد علمه ولكن كتمه عن الناس.

وكلا الأمرين محال، فلم يبق إلا أن يكون التأويل هو الباطل، فنسخ الوساوس والأوهام التي يلقيها الشيطان ليس بإعمال التأويل في آيات الله، وإنما بنسخ ما يلقيه بالآيات المحكمة(ليس كمثله شيء) (ولم يكن له كفواً أحد) (هل تعلم له سميا) فالمحكمات تنسخ الوساوس كما قال تعالى(فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم آياته).

شهادة التوحيد ميزة هذا الدين

التوحيد هو أول شرط في دخول الإسلام، وكفى بها علامة على صحة هذا الدين وبطلان ما سواه من الأديان، فإنه ما من دين يشترط عليك هذا الشرط ولا يعترف بعضويتك فيه إن لم تستوف هذا الشرط.

إن (لا إله إلا الله) هي مفتاح الجنة وسر النجاة من النار، ومن يأت يوم القيامة من دون هذا المفتاح فلا نجاة له من النار ولا دخول له إلى الجنة حتى وإن آمن بمحمد وقرأ القرآن وصلى وصام وآمن بكل شيء.

بل إن الله قد بين لنا أن من أشرك بالله حبط عمله ولو كان نبياً أو رسولاً، فوجه الله هذا الخطاب إلى نبيه ρ كما وجهه إلى الأنبياء من قبله﴿ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين، بل الله فاعبد وكن من الشاكرين﴾(الزمر65) وقال﴿ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون﴾(الأنعام 88)

* لا إله إلا الله: هي كلمة الإخلاص الطيبة، وأساس التوحيد وعنوان الإسلام ومقدمته، وهي منهاج الحياة المتكامل، ومفتاح كل سعادة وخير في الدنيا، وسر النجاة في الآخرة.

* لا إله إلا الله:أصدق الكلام وأفضله كما قال رسول اللهε «أفضل ما قلته أنا والنبيون قبلي: لا إله إلا الله»[1].

* لا إله إلا الله: كلمة تحرر الإنسان من عبودية العباد والخضوع والتذلل للسلاطين والمتألهين لتجعل منه عبداً لمن خلقهم وحده.

* لا إله إلا الله: تعني خلع العبادة عن كل ما سوى الله، وإثبات هذا الحق لله الحق وحده.

* لا إله إلا الله: شعار التوحيد الذي هو روح الإسلام وجوهر عقيدته، فلا قيمة للعبادة عند الله ولا قبول له من غير شعار التوحيد.

* لا إله إلا الله: أول ما كان يدعو إليه الرسل قومهم﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾(الأنبياء25)

والنفي في هذه العبارة(لا إله) مقدم على الإثبات (إلا الله) ذلك أنه لا يتم الإيمان بالله إلهاً واحداً بعد الكفر بالآلهة الباطلة الأخرى المعبودة من دونه، كما قال تعالى﴿فمن يكفر بالطاغوت[1] ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ﴾(البقرة 256)

وكما قال رسول الله ρ «من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله»[2].

---

[1] رواه الترمذي (3579)بسند صحيح.

[1] الطاغوت هو كل وسيلة تؤدي إلى الطغيان ومجاوزة الحد، فكل ما عبد من دون الله فهو طاغوت، وكل من أمر بعبادة غير الله فهو طاغوت، فالشيطان طاغوت والصنم طاغوت وكل من دعا إلى نبذ حكم الله وتحكيم غير الله من دون الله فهو طاغوت.

[2] رواه مسلم رقم(32)في الإيمان.

شروط لا إله إلا الله

ولا يكتفي بمجرد التلفظ بلا إله إلا الله من غير فهم لمعناها وعمل بشروطها كما هو حال العديد من المسلمين اليوم ممن لا يخضعون لأمر الله ونهيه، ولا يتحاكمون إلى شرعه، يضيعون الصلاة ولا يؤتون الزكاة، ويأكلون الربا، ويظنون أن مجرد قولهم (لا إله إلا الله) ضامنة لنجاتهم، لقد كانت قريش تعلم أن
(لا إله إلا الله) لها شروطاً ومقتضاها بما يجب الالتزام به، ولهذا لم تستجب لها، ولو كانت مجرد قول باللسان لقالتها ولوفرا على أنفسهم الويلات والقتل والحروب.

فمن شروطها:

1- العلم بحقها وبما تقضيه، قال تعال﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله﴾ وقال ρ «من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة»[1] وفي رواية« من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة».

* وهنا مسألة مهمة وهي أن التثبيت على التلفظ بالقول الثابت(لا إله إلا الله) من عند الله الذي هو أعلم بمن يستحق أن تكون آخر كلامه كما قال﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين، ويفعل الله ما يشاء﴾(إبراهيم27) فمن كانت أعماله مخالفة لمقتضاها وشروطها لن يثبته الله على التلفظ بها عند الموت، بل لا يثبته على الجواب عن أسئلة القبر.

2- اليقين بها من غير شك فيها، قال ρ «من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه(وفي رواية) غير شاك فيها (وفي رواية) بصدق ويقين، دخل الجنة[2] (وفي رواية) يواطئ قلبه لسانه: دخل الجنة.

3- التلفظ بكلمة الإخلاص(لا إله إلا الله) بإخلاص، ومن قالها مخلصاً من قلبه رزقه الله الإخلاص في العبادة، قال ρ « أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه»[3].

4- القبول لما تقتضيه قولاً باللسان واعتقاداً بالقلب وعملاً بالجوارح، فإن المنافقين يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم.

5- الانقياد لما تقتضيه هذه الشهادة من العمل بما أمر الله به والانتهاء عما نهى عنه، وأن يطاع الله ولا يعصى، وأن تقدم طاعته على طاعة غيره، فلا يطاع غير الله في معصية الله، قال رسول اللهε «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»[1].

وقال ρ « من التمس رضا الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس»[2]

---

[1] رواه مسلم رقم(26).
[2] جمع هذه الروايات الشيخ ابن رجب رحمه الله.
[3] رواه البخاري رقم(6570).
[1] رواه أحمد 432/4 بسند صحيح (السلسلة الصحيحة 179.
[2] رواه القضاعي في مسند الشهاب بإسناد حسن وصححه الألباني في شرح الطحاوية (299).

والعمل نتيجة الإيمان وثمرة من ثمراته، ولذلك قرن الله الإيمان بالعمل الصالح دائماً(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات)

نواقض الشهادة

النواقض جمع ناقض وهو المفسد، وقد يكون الناقض للشهادة من أصلها، وقد يكون ناقضاً لأشياء منها تقدح في كمالها، ومن هذه النواقض:

أولاً: الناقض القولي: كـ (سب) الله أو سب الرسول أو سب دين الإسلام أ الاستهزاء بالدين.

ثانياً: الناقض الفعلي كالسجود لغير الله والصلاة لغيره، والتحاكم إلى غير دين الله.

ثالثاً: الناقض الاعتقادي: وهو الشرك المنافي للتوحيد، كالاعتقاد بوجود إله آخر، أو أن هناك من يستجيب الدعاء ويكشف السوء ويعلم الغيب ويملك الضر والنقع غير الله.

رابعاً: إنكار أسماء الله وصفاته أو سب الله أو أحد رسله أو إنكار شيء مما جاءوا به من الرسالات.

خامساً: الجهل بمعناها واعتقاد معان أخرى مخالفة لمعناها الحقيقي كما يعتقد أن معناها (لا موجود إلا الله) أو(لا رب خالق إلا الله) أو(لا معبود إلا الله) وقد يقولها قائل وهو جاهل بها فيحتاج إلى تعليم وتذكير، والصحيح أن معناها (لا معبود بحق إلا الله) أي أن كل معبود سوى الله فهو معبود بباطل.

سادساً: الترك لمعناها ولفظها جملة وتفصيلاً، كمن لا يصلي ولا يصوم ولا يزكي ولا يحج، وهو يتمنى على الله في الوقت نفسه أن يرتفع إلى أعلى مقامات الجنة.

سابعاً: موالاة الكفار والمشركين ومظاهرتهم على المسلمين قال تعالى﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم﴾ أو التحاكم إلى غير ما أنزل الله والسحر والعرافة.

ثامناً: الغلو في الدين وسيلة الانحراف وأحد الأسباب المؤدية إلى الشرك، إن مبدأ الغلو والمبالغة في الدين سبب كل فتنة وأصل كل انحراف،قال رسول الله ρ « إياكم والغلو في الدين، فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين»[1] وقال ρ « لا تطروني كما أطرت النصارى بن مريم، إنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله»[2]

---

[1] رواه النسائي في الحج268/5 وإسناده صحيح.
[2] رواه البخاري 478/6.

علامات التوحيد الصحيح

من علامات التوحيد الصادق أن يشتمل على ما يلي:

* **الإخلاص لله في العمل:** وهو« أن يقصد الإنسان بقوله وعمله وجهاده وجه الله ورضوانه وابتغاء ما وعد له من الثواب واجتناب ما توعد عليه من العقاب، غير ناظر إلى مغنم أو جاه أو لقب أو شهرة وغيره من أمور الرياء والشرك المحبطة للعمل:
كما قال ربنا﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء﴾(البينة 5).

وكما قال رسولنا ρ «إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً وابتغي به وجهه»[1].

فإن توحيد العبادة مبني على إخلاص العبادة له.
«وقد يكون العمل صالحاً في ذاته ولكن لم يصح المقصد منه، ولم تسلم النية ولم تكن خالصة لله، فيتحول صلاحه إلى فساد، وحسنه إلى قبح»[2]

* **التحاكم إلى شرع الله:** وذلك بأن يجعل العبد من وحي الله وشرعه منهجاً للحياة ودستوره الذي يتحاكم إليه في إي شأن من شؤون دينه أو دنياه، قال تعالى﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم (الكافرون) (الظالمون) (الفاسقون)﴾ بمعنى آخر:إفراد الله بالحكم دون سواه من الأحكام الوضعية التي يشرعها البشر لأنفسهم، والتي يضطرون إلى تعديلها كل يوم ومع ذلك لا يستقيم ميزانها.

أما الله فإنه هو الذي خلق الدنيا وهو أعلم بشؤون تصريفها، وخلق البشر وهو أعلم (منهم) بما هو خير للعباد في دينهم ودنياهم قال تعلى﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾(الملك14)وقال﴿إن الحكم إلا لله﴾(يوسف40) وقال ﴿أفحكم الجاهلية يبغون؟ ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾(المائدة50).

فالله أحل الحلال وحرم الحرام، وليس هناك طريق آخر يعرف به الحلال والحرام إلا من خلال ما أوحى الله به إلى رسولهε
1-إما بنص من الكتاب والسنة.
2-وإما بقواعد مستنبطة من نصوص الكتاب والسنة.
فمن اتبع غير الله في تحليل ما حرم الله، أو تحريم ما أحل الله فقد أشرك بأحكم الحاكمين حاكماً آخر.
قال تعالى﴿أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله﴾(الشورى21)

شرك الطاعة فيما كان معصية لله

ومن الشرك الذي وقع فيه اليهود والنصارى أنهم ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾(التوبة31) وقد أثارت هذه الآية تسآؤل الصحابي عدي بن حاتم حين أسلم - وكان نصرانياً – فقال « يا رسول الله ما كنا نعبدهم! فقال النبي ρ «ألم يكونوا يحلون لكم الحرام ويحروا عليكم الحلال فاتبعتموهم؟ قال: بلى، قال فتلك عبادتهم» وفي رواية« أنهم

[1] رواه النسائي رقم (3140) بسند حسن كما قال الحافظ العراقي في تخريج الإحياء 384/4.
[2] تعريف عام بدين الإسلام 91 .

لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه»[1].

* **محبة الله:** وتقتضي تقديم محبة الإله على ما سواه وتقديم ما يحبه ويريده من خلقه على ما تحبه النفس وتهواه، وأن يفوق حبنا لله حب المال والأهل والولد، قال تعالى(ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله، والذين آمنوا أشد حباً لله)(البقرة 165)

ففي الآية توبيخ لمن تكون محبته لغير الله مثل محبته لله، فكيف الحال فيمن هو أشد حباً لغير الله من الله! وقال تعالى(قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره)(التوبة24)

وقال ρ «إذا تبايعتم بالعينة[2] وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم»
ـ وكذلك لا يكمل إيمان أحد حتى يكون رسول الله ε أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين، وأن يكون محباً لما يحبه الله ورسوله، ويحب المرء لا يحبه إلا لله.

علامات المحبة الصادقة

ومن علامات صدق محبة الله: أن تتعلق القلوب بخالقها فلا تفعل إلا ما يرضيه ويتجنب ما يسخطه ويغضبه، ولا يتوكل إلا عليه ولا تخشى إلا إياه، ولا تدعو إلا إياه، ولا تذل ولا تتضرع إلا إليه، ولا تحب ولا تبغض إلا فيه.

* **الخوف من الله:** إن من أعبد الناس وأقربهم إليه وأشدهم منه خشية قال تعالى(ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون، يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون)(النحل50)وقال(إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير)(الملك12) ونهى عن مخافة الناس فيما لا يجوز الخوف فيه إلا من الله فقال(فلا تخشون الناس واخشون)(المائدة44) ووبخ قوماً كانوا يطلبون قتال العدو فقال(فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية)(النساء77) فقال لهم (أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين)(التوبة13)

* **التوكل عليه حق التوكل** وهو الثقة بالله والاعتماد عليه وتفويض الأمور إليه والاستعانة به في أمور الرزق، مع الأخذ بالأسباب التي جعلها الله بحكمته موصلة إلى مسبباتها كما قال(ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه)(هود123) وقال(قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون)(الزمر38)وقال ε «لو توكلتم على الله حق التوكل لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتعود بطاناً»[1].

---

[1] رواه الترمذي (3094) بإسناد حسن بمجموع طرقه.
[2] نوع مكروه من أنواع البيوع يشبه الربا، والحديث رواه أبو داود 3462 بسند صحيح.
[1] رواه أحمد1/33 والترمذي رقم (2345).

* الإنابة إليه كما قال(وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون) وذلك في السراء والضراء لا في السراء فقط كما قال ربنا(وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيباً إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله)(الزمر8).

* **الخضوع له والتسليم لحكمه والتحاكم إلى شرعه** كما قال تعالى(فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً) وقال (إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون).

* **السمع والطاعة** وعلى المسلم أن يتلقى الأمر الإلهي كما يتلقى الجندي الأوامر في ساحة المعركة فينفذها ولا يردَ منها شيئاً، ولا يكون كالذين قالوا بألسنتهم (سمعنا وأطعنا) بينما أعمالهم تثبت أنهم يقولون (سمعنا وعصينا) كما كان حال بني إسرائيل من قبل، قال تعالى(يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولّوا عنه وأنتم تسمعون ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون)(الأنفال20).

* **دعاء الله والتضرع إليه:** في السراء والضراء(وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين)(غافر 60) وقال(وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون)(البقرة186).

* أما التوجه بالدعاء إلى الله عند المصيبة فقط مع الإعراض عنه بعد زوالها فليس من شأن المخلصين، قال تعالى(وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونئا بجانبه، وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض) (فصلت 51) وقال(وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً، فلما كشفنا عنه ضره مرَ كأن لم يدعنا إلى ضر مسه)(يونس12) وقال(فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين، فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون)(العنكبوت65).

والدعاء عبادة لله لا يجوز أن ترتفع الأيدي بالدعاء إلا إليه وحده، كما قال(فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون)(غافر14)

* ومن تأمل أكثر الآيات المتعلقة بالمشركين وجدها تنكر عليهم دعاءهم لغير الله:
(قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض)(سبأ22).
(قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً)(الإسراء56).
(إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين)(الأعراف194).
[لا يَسْمَعُوا دُعَاءكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ](فاطر14).
[وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ] (الأحقاف 5).

وهذا الشرك في الدعاء شرك في العبادة قال تعالى ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ﴾ (الأنعام 56).

ولما قال إبراهيم لقومه ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي﴾ عقب الله على ذلك فقال ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ (مريم 48) وبين أن دعاءهم غير الله شرك في عبادة الله.

ولهذا قال النبي ρ[1] "الدعاء هو العبادة". وقال[2] "أدعو إلى الله وحده الذي إن مسك ضر كشفه عنك، والذي إن ضللت بأرض قفر دعوته رد عليك، والذي إن أصابتك سنة[3] فدعوته أنبت عليك"

وقال[4] لابن عباس – وكان غلاماً – "إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله".

دوام ذكر الله: وحقيقة الذكر "حضور المذكور في قلب الذاكر. والذكر هو أفضل العبادات كلها فإنها ما شرعت إلا لتعين على ذكر الله عز وجل"[5].

وإذا كان الناس يذكرون ما ينشغلون به. فإن المؤمن يذكر ربه لأنه منشغل به وبذكر اليوم الآخر. فهو على موعد قريب مع دار أخرى وعالم آخر. وما هذه الدنيا إلا محطة من محطات ارتحاله إلى تلك الدار. يقول تعالى "أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه"[1].

* تذلل القلب له وتعقله به خوفاً من عذابه وطمعاً في رحمته. قال تعالى {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} [الأنفال 2].

وقال {إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ، تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} [السجدة 16].

وقد اجتمعت هذه المعاني في دعاء عظيم كان يدعو به النبي ρ في تهجده "اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخّرت، وما أسررت وما أعلنت"[2].

---

[1] رواه أبو داود (1479) والترمذي (3244) وهو صحيح.
[2] رواه أحمد في المسند 5: 64 وسنده صحيح.
[3] معناها الجدب والقحط.
[4] رواه الترمذي وصححه (2518) وأحمد 1: 293 و303.
[5] دعوة التوحيد 50 خليل الهراس.
[1] البخاري (7505) ومسلم (2675) والترمذي (3598).
[2] رواه البخاري ومسلم.

مصادر تلقي العقيدة

العقيدة الإسلامية من الأمور التي لا يصح الاجتهاد فيها بمجرد الرأي، وإنما تؤخذ من الكتاب والسنة وبالطريقة التي تلقاها السلف الصالح.
يا ايها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله
وأول مصادر أهل السنة في تلقي عقيدتهم هو القرآن الكريم الذي أنزله الله على محمد ρ خاتم النبيين. ثم السنة النبوية. والقرآن والسنة لم يفصلا شيئاً مثل تفصيلهما لأمور العقيدة: ما يجوز اعتقاده وما يحرم.

القرآن الكريم

لم يلق كتاب على وجه الأرض عناية مثل عناية الأمة الإسلامية لهذا القرآن. فقد كانت تنزل الآية فيحفظها النبي ρ ثم يتلوها ساعة نزولها على المحيطين به، ثم يأمر كتبة الوحي بتدوين ما أنزل إليه ثم يأمرهم بترديدها على مسمعه. وكان هو يحتفظ بنسخة مما كتب في داره.

وقد ورد في وصفه أنه "كتاب الله: فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل. من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسن، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه. وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا {إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا 1 يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ} من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عَدَل، ومن دعا إليه هدِيَ إلى صراط مستقيم.

القرآن الكريم خاتم الكتب السماوية الذي جعله الله مصدقاً لما تقدمه من الكتب ومهيمناً عليها {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ} (يونس 108).

القرآن المعجزة

الذي لا يقدر بشر أن يأتي بمثله أو بشيء من مثله مهما أوتي من نبوغ وبيان وفصاحة. كتاب نزل بين فصحاء العرب وبلغائهم وشعرائهم فبُهتوا لدى سماع آياته وخرست ألسنتهم وأذعنوا لعظمته. لكنهم لم يلبثوا أن كابروا وجحدوا متجاهلين ما أقرت به أنفسهم زاعمين أنه من قبيل السحر والشعر الذي ليس من الصعب الاتيان بمثله. فتحداهم الله تعالى أن يأتوا بمثله أو بعشر سُوَر من مثله، أو بسورة واحدة على الأقل. وقد جاء فيه التحدي الموجه إلى كافة الخلق انسهم وجنهم {قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا} (الإسراء 88).

وقد مضى على هذا التحدي ألف وخمسمائة سنة، وحتى الآن لم يتقدم أحد ليقف أمام هذا التحدي. قال تعالى {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} (يونس 38).

وقد تكفل الله بحفظه وصونه عن أن تمتد إليه أيدي العابثين فقال {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} (الحجر 9) ولا يقتصر الإعجاز القرآني على الناحية البلاغية فحسب. بل ما من زمن إلا وتُكشف فيه أوجه أخرى من الإعجاز لم يعرفه أسلافنا من قبلنا.

واليوم وفي عصر العلم والتكنولوجيا نجد المتعلمين المنصفين من أبناء اليهود والنصارى يعترفون بالتوافق بين نصوص الآيات القرآنية وبين ما أثبته العلم الحديث. مع أن النبي ρ كان بعيداً عن المحيط العلمي ولم يكن ليعرف شيئاً عن العلوم التي تم اكتشافها اليوم وإنما كان على صلة بخالق هذه العلوم سبحانه.

قال تعالى {أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ} (الأنبياء 30).
وقال {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} (فصلت 58).

والمتأمل يجد في القرآن آيات تتحدث عن علوم لم يفطن لها العلم الحديث إلا منذ قرن أو قرنين. فتجد في القرآن:

ـ هناك آيات تتحدث عن الفلك والمجرات السماوية {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ 38 وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ 39 لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} (يس 40).

ـ وآيات أخرى تتحدث عن خلق الله للحاجز المائي بين البحرين وهو ما اكتشفه العلم الحديث في بداية هذا القرن فقط {أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا} (النمل 61).

ـ وآيات تتحدث عن تركيب السحاب وجمعه وإنزال المطر {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاء مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاء وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاء يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ 43 يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي الْأَبْصَارِ} (النور 43).

ـ وآيات تتحدث عن طبقات الأمواج في البحار: طبقة فوق سطح البحر وطبقة داخله. وهو ما تم اكتشافه في هذا القرن فقط {أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ} (النور 40).

ـ وآيات تتحدث عن مراحل نمو الجنين في بطن أمه وتسمي كل مرحلة من هذه المراحل بأسماء مشتقة من الحالة التي تكون فيها تلك المراحل {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ 12 ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ 13 ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ} (المؤمنون 12).

إن هذا البيان الترتيبي لمراحل خلق الإنسان – كما في هذه الآية وغيرها – هو ما حدا بواحد من أبر علماء الأجنة في العالم واسمه Keith More إلى الاعتراف في كتابه : THE DEVELOPING HUMAN

بأن القرآن الكريم قد سبق جميع العلوم المكتشفة حول هذا الموضوع. وأن جميع من تكلم بعده فهو عالة عليه.

صفحة فارغة

السنة النبوية هي المصدر الثاني

السنة أصل مهم في تلقي العقيدة وفهمها لأنها:

شارحة للقرآن ومفصلة لمجمله ومقيدة لإطلاقه، ومفسرة لكثير من آياته. مثال ذلك قوله تعالى {لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ} (يونس 26) فجاءت السنة وبينت أن المراد بالزيادة هنا: النظر إلى وجه الله في الجنة.

ومثاله قوله تعالى {وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ} ولم يذكر عدد الصلوات ولا عدد ركعات كل صلاة ولا أركانها وواجباتها. وقال {وَآتَوُا الزَّكَاةَ} ولم يفصل مقدارها. وإنما فصلت السنة ذلك. بل فيها تحريم وتحليل ليسا في القرآن.

لذا أجمع المسلمون على أن السنة هي المصدر الثاني من مصادر الدين الإسلامي الحنيف.

وبيان ذلك ما يلي:

ـ أن النبي ρ قال [1]"تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما إن تمسكتم بهما: كتاب الله وسنتي".

ـ أن الله عز وجل أمر بطاعة نبيه فقال {مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ} (النساء 80). وإذا كانت طاعة الله تعني اتباع ما أنزله من القرآن. فطاعة الرسول تكون في غير القرآن، وهو التزام سنته. قال تعال {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ} (الجمعة 2) والحكمة: هي السنة كما أجمع على ذلك سلف الأمة وأئمتها.

ـ أن الله قال {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا} (الحشر 7). وقال ρ "ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه"[2]. فمن رفض السنة التي آتانا نبينا ρ فقد عصى الله بمقتضى هذه الآية ولم يأخذ ما آتاه الرسول.

وهذا نص الحديث "لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكته، يأتيه الأمر مما أمرت به أو نهيت عنه، فيقول: لا أدري، ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه! ألا وإني أوتيت القرآن ومثله معه[1]" وفي رواية ألا إن رسول الله قد حرم مثل ما حرم الله". ويصدق ذلك قول الله تعالى {قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ} (التوبة 29) وكذلك إخباره عن النبي الأمي ρ بأنه {يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ} (الأعراف 156). ففي الآيتين دليل على أن رسول الله يحرم كما حرّم الله.

إذن ففي السنة تحريم وتحليل لا يوجد في الوحي الأول الذي هو القرآن. ولا بد من ثبوتهما بالسند الصحيح لأن الله تعالى حرم التحليل والتحريم بمجرد الظن.

ـ مثال التحريم: تحريم أكل كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير وأكل لحوم الحمر الأهلية، وتحريم لبس الذهب والحرير على الرجال دون النساء.

---

[1] رواه مالك في الموطأ والحاكم 1: 93 بسند حسن .

[2] رواه الترمذي وقال "حسن صحيح" انظر المشكاة 1: 57 .

[1] الحديث بهذه الرواية متفق عليه.

ـ ومثال الإباحة: إباحة ميتة السمك من دون أنواع الميتة الأخرى التي حكم بتحريمها فيها بقوله {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ} فجاءت السنة وخصصت الحكم وبينت أن حكم ميتة السمك مستثنى من الآية.

ـ أن الله تعالى قال {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً} (الأحزاب 21) وكيف يتأسى المسلم به إن هو رفض سنته وتخلى عنها؟

ـ أن السنة تقيد مطلق القرآن. فلقد قال تعالى {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى} ثم جاءت السنة وقيدت هذا الحكم بما إذا كان القاتل مسلماً والمقتول كافراً. فإنه "لا يُقتَل المسلم بالكافر" كما قال رسول الله ρ .

تاريخ تدوين السنة النبوية

يخطئ من يظن أن الله تكفل بحفظ القسم الأول من وحيه (القرآن) من دون الجزء الآخر من وحيه (السنة). وبسبب هذا الخطأ انحرف من أسموا أنفسهم القرآنيين حين نفوا حجية السنة ودعوا إلى الاقتصار على القرآن.

ويخطئ من يظن أن قوله تعالى {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} متعلق بالقرآن دون السنة. فإن السنة من جملة الذكر الذي أنزله الله وكلاهما داخل في الوعيد بالحفظ.

ومن يستعرض سعة حافظة الحفاظ واشتغالهم طيلة حياتهم بحفظ الحديث والعناية به سنداً ومتناً تبين له أن الله حافظ – مع قرآنه – سنة نبيه ρ .

ولم يكن النبي ρ يأذن في أول الأمر بكتابة وتدوين أقواله وذلك خشية أن يختلط كلامه بالقرآن. ولذلك رووا عنه أنه قال "لا تكتبوا عني غير القرآن، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه، وحدثوا عني ولا حرج، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار[1].

وهذا النهي عن الكتابة إنما كان في أول الأمر، فلما وعت قلوب الصحابة القرآن وحفظته الصدور أذن النبي ρ بكتابة حديثه. قال أبو هريرة "ما من أصحاب النبي ρ أكثر حديثاً عنه مني إلا ما كان من [عبد الله] بن عمرو فإنه كان يكتب ولا أكتب[2].

وكان النبي ρ يخطب على المنبر فاستأذنه رجل اسمه أبو شاه أن يكتب حديثه فقال النبي ρ أكتبوا لأبي شاه[3].

---

(1) رواه مسلم رقم (3004).
(2) رواه البخاري (113) والترمذي (2670).
(3) البخاري (112) أبو داود (455).

التثبت من رواية الحديث

كان الحديث في عصر الصحابة يُكتب ولا يشترط تبيين سنده. غير أنه لما انتشر الإسلام في البلاد ودخل الناس في دين الله أفواجاً حدثت بعض البدع الفكرية كفرق القدرية والجبرية والمتصوفة والفلاسفة، ونشأت فرق متناقضة منها ما يدعو إلى الغلو في الأشخاص كالشيعة ومنها ما يدعو إلى الغلو في الزهد والتوكل والتخلي عن المال والأهل والولد.

وظهر الكذب في الحديث حتى صارت كل طائفة تختلق من الحديث ما يوافق آراءها وبدعتها. حينئذ اتخذ الصحابة ومن بعدهم موقفاً حازماً من هذه الفوضى في الحديث. ونشأ ما يسمى بعلم التراجم والمعروف بعلم الجرح والتعديل وهو علم يدرس ويتابع أحوال رواة الحديث ومدى صدقهم وأمانتهم في رواية الحديث وأخلاقهم ومتابعتهم للسنة والزمن الذي عاشوا فيه ومكان وجودهم وحتى أسماء آبائهم وأبنائهم ومشايخهم وتلاميذهم.

وقسموا الحديث إلى صحيح وضعيف وموضوع بحسب أسانيدها وتوفر شروط الصحة فيها. قال ابن سيرين: لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت تلك الفتنة قالوا: سموا لنا رجالكم، فيُنظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم، ويُنظر إلى أهل البدع ولا يؤخذ حديثهم[1] وقال ابن المبارك: الإسناد من الدين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء[2].

قال بعض أهل العلم "وعلم الإسناد مما خصّ الله به أمة محمد ρ وجعله سلماً إلى الدراية.

ـ فأهل الكتاب لا إسناد لهم يؤثرون به المنقولات.
ـ وكذلك المبتدعون من هذه الأمة أهل الضلالات.
ـ وإنما الإسناد لمن أعظم الله عليه المنة أهل الإسلام والسنة يفرقون به بين الصحيح والسقيم وبين المعوج والقويم.
ـ وغيرهم من أهل البدع والكفار إنما عندهم منقولات يؤثرونها بغير إسناد وعليها من دينهم الاعتماد. وهم لا يعرفون فيها الحق من الباطل، ولا الحالي من العاطل[1].

ونستطيع أن نتصور مدى الدقة والحرص في تتبع نقاد الحديث للرواية وتقصيهم أحوال الرواة وذلك بتأمل نموذج من ذلك. فقد فرقوا بين الكاذب والكذاب. فالكاذب هو الذي عرف عنه الكذب لكن لم يثبت أنه كذب على رسول الله ρ ، فهذا حديثه منكر. أما الكذاب فهو الذي اشتهر بالكذب على رسول الله ρ فهذا حديثه مردود مرفوض وهو شر أنواع الحديث الموضوع.

وقد عني كثير من علماء الحديث بجمع الأحاديث الموضوعة في مصنفات خاصة مع بيان الحكم عليها بالوضع بغية تحذير الناس منها. وجاء هذا التحري وهذه الدقة عملاً بقول النبي ρ : كفى بالمرء إثماً أن يحدث بكل ما سمع[2] وقال الشافعي "مثل الذي يطلب

---

(1) مسلم 15/1 والمجروحين لابن حبان 27/1 والكفاية 122 .
(2) مسلم 15/1 الجرح والتعديل 2م16 وشرف أصحاب الحديث 41 .
(1) مجموع الفتاوى 9/1 .
(2) رواه مسلم 10/1 في المقدمة وأبو داود (4992) .

الحديث بلا إسناد كمثل حاطب ليل يحمل حزمة حطب وفيه أفعى وهو لا يدري"[3].
وكان هو وغيره من الأئمة يقولون الحديث الصحيح مذهبنا غير أن الناس خرجوا عن مذهبهم حين صار قول الرجال هو المذهب وإن خالف الحديث الثابت الصحيح عن النبي ρ . ثم جاء بعدهم من جعل هذا الذي نهوا عنه واجباً.

قد حفظ الله بهذا الإسناد سنة النبي ρ فقيد لها نقاداً حفاظاً لم يعرف العالم لهم مثيلاً في سعة حفظهم حتى بلغ الحفظ ببعضهم إلى مليون حديث بأسانيدها ومتونها.
ـ لقد وضعوا القواعد العلمية لقبول الحديث وهي أصح القواعد للإثبات التاريخي وأعلاها دقة. فجدير بالأمة بعد هذا أن تعود إلى النهج الأول فتتثبت من الرواية عن النبي ρ ، ولا تحدث بما تسمعه إلا بعد التوثق من صحته.
فمن قال: (قال رسول الله) فعليه أن يتأكد: هل قاله رسول الله حقاً؟

ومن أراد التبليغ فليحذر أن يكون التبليغ تبليغاً عمن كذب على النبي ρ وليس تبليغاً عنه ρ . قال رسول الله ρ "من حدّث عني بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين[1] وقال: من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار".

لقد تساهل كثيرون في رواية الحديث، ورغب أكثر مصنفي الكتب الإسلامية عن بيان درجة الحديث. بل قد يروون الحديث الموضوع والمكذوب، ويكتفون بإحالته:
ـ إما إلى مصادر أصيلة تحوي الصحيح والضعيف وربما الموضوع. وفي هذه الحال لا يكفي أن يقال (رواه أحمد) أو (رواه الترمذي) الخ. بل يجب أن يبين معه درجة الحديث والحكم على إسناده كأن يقول (رواه أحمد بسند صحيح).
وإما مصادر غير أصيلة. ككتب الفقه وغيرها التي تنقل عن الترمذي أو النسائي الخ.
وإن من أسباب التساهل في رواية الضعيف ما ورد عن بعض أئمة الحديث رحمهم الله أن الحديث الضعيف يعمل به في فضائل الأعمال، غير أنهم مع ذلك اشترطوا في رواية الحديث:
1 ـ أن لا يكون شديد الضعف.
2 ـ أن يندرج تحت أصل معمول به حتى لا يكون غريباً عن قواعد الإسلام.
3 ـ أن لا يعتقد الراوي صحته.
4 ـ أن يكون في فضائل الأعمال كالوعظ والترغيب والترهيب لا في العقائد والأحكام.
5 ـ أن لا يقول: قال رسول الله وإنما يرويه بصيغة التمريض كقوله (روي). ومع ذلك فقد ذهب العديد من العلماء كيحيى بن معين وابن العربي والبخاري ومسلم أن الحديث الضعيف لا يُروى أبداً. وأن التساهل في رواية الضعيف في فضائل الأعمال معناه: الأعمال التي ثبتت مشروعيتها بما تقوم الحجة به أصلاً.

---
[3] فيض القدير 433/1 .
[1] أي حكمه حكم الكاذب الأول الذي اختلق الحديث لمجرد روايته عنه حديثاً يعلم عدم صحته .

6 ـ أن الله لم يقيد للسنة هؤلاء الحفاظ إلا لتكون الروايات الصحيحة بديلاً عن الضعيف والموضوع، ومن هنا لا تُقبل تبريرات البعض في رواية الحديث الضعيف فإن الله قد أغنانا بالحديث الصحيح عن الضعيف.

الصحابة أعلم بمعاني الكتاب والسنة

ولقد بين النبي ρ لأصحابه لفظ القرآن ومعناه فكان ذلك ميزة لهم على من جاء بعدهم من الخلف، فهم أعلم الناس بكلام رسول الله ρ ومعانيه.

وإن فهم الصحابة لنصوص الوحي وعملهم بها حجة على من يدعي لنفسه فهماً خاصاً للنصوص يخالف المعنى الحق الذي فهموه. فإذا اختلف اثنان في فهم نص من آية أو حديث رجعنا إلى فهم السلف لهذا النص. وهذا يقطع الطريق على أصحاب الأفهام الرديئة الذين يفسرون النصوص بغير علم وبمتقضى الهوى.

وقد جاء في كلام أحدهم – وهو عبد الله بن مسعود "من كان منكم متأسياً فليتأس بأصحاب رسول الله ρ فإنهم أبرّ هذه الأمة قلوباً، وأعظمها علماً، وأقلهم تكلفاً وأقومهم هدياً، فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوا آثارهم فإنهم كانوا على الصراط المستقيم".

المحافظة على صفاء المصدر واجتناب البدع

على المسلم أن يكون غيوراً على دينه غيرة تفوق الغرة على أي شيء آخر. فيحافظ على صفاء المصدر الذي يتلقى منه دينه وعقيدته وأن يصونه من الزيادة والإضافة والبدع، فإنه ما من شيء أضرّ على الدين من اثنين: **بدعة وشرك**.
وما من شيء يقرّب العبد من ربه إلا وقد شرعه الله وأمر به. فالبدع لا تقرّب العبد إلى ربه بل تزيده عن ربه بعداً.

لأن الله قد أكمل دينه، وأتم نعمته، وفصّل لنا كل سبل العبادة التي تقربنا إليه كما قال {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً} (المائدة 3).
وقال الرسول ρ "ما تركت شيئاً مما أمركم الله به إلا وقد أمرتكم به، ولا شيئاً مما نهاكم عنه إلا وقد نهيتكم عنه"[1].
وإذا كان الأمر كذلك وجب الاقتصار على ما شرعه الله لنا من غير زيادة وصار الاتباع واجباً والابتداع محرم.

ومن المتفق عليه أن عبادة النبي أفضل العبادات ولم يشرع لنا ρ هذه الزوائد والبدع المنتشرة اليوم بين الناس. ألا يكفينا ما اكتفى به رسول الله أم أننا نطلب عبادة الله بما يزيد عما فعله رسوله ρ وأصحابه؟ وهل نحن أكثر عبادة لله منهم؟

إنه لا شك في أن الواحد منا سيموت قبل أن يتم عبادة الله حسبما شرعه له، فلماذا يلجأ إلى البدع؟ هل أتم كل العبادات المشروعة ثم جلس يطلب ما زاد على المشروع؟ أيعقل أن يكون قد أتمّ كل الواجبات والمندوبات والمسنونات على وجه الكمال حتى يطلب المبتدع من العبادة؟
* ولهذا قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه "اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كُفِيتم"[2] أي قد شرع الله لكم ما يكفيكم، وقال حذيفة رضي الله عنه "كل عبادة لم يتعبدها رسول الله ρ فلا تعبّدوها".
إن قليل عبادة موافقة لشرع الله خير من كثير عبادة مبتدعة، بل إن هذا الكثير المبتدع لا يقبل الله منه شيئاً كما قال رسول الله ρ "من أحدث من أمرنا هذا[1] ما ليس منه فهو رد"[2] وفي رواية "من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد"[3] أي مردود على صاحبه، بل يعاقَب عليه.

آخر الوصايا النبوية

لقد ودع النبي ρ أصحابه بموعظة بليغة أبكتهم وأشعرتهم بقرب ارتحاله عنهم إلى الدار الآخرة. قال العرباض بن سارية "وعظنا رسول الله ρ موعظة دمعت منها

(1) أخرجه الشافعي في سننه 14/1 والرسالة 87 والأم 289/7 والخطيب البغددي في الفقيه 93/1 وهو صحيح بمجموع طرقه.
(2) رواه الطبراني والدارمي 1: 69 بسند جيد واللالكائي في اعتقاد أهل السنة 1:90 وأحد 1:139.
(1) أي في ديننا.
(2) متفق عليه.
(3) أخرجه مسلم.

الأعين، ووجلت منها القلوب، فقلنا يا رسول الله؛ كأنه موعظة مودع فبما تعهد إلينا؟ فقال: قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك. ومن يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة" و" كل بدعة ضلالة"[4].

قسمة ضِيزى

فقوله "كل بدعة ضلالة" دليل على الذم المطلق للبدعة في الدين. ولذا لا ينبغي تحسين شيء من البدع أو تقسيم البدعة إلى حسنة وسيئة، إذ لو كانت تقبل القسمة لقسّمها رسول الله ρ غير أنه لم يرد ذكر البدعة على لسانه إلا على مورد الذم. قال الحافظ ابن حجر رحمه الله "البدعة في عرف الشرع مذمومة بخلاف اللغة فإن كل شيء أحدث على غير مثال يسمى بدعة سواء كان محموداً أو مذموماً"[5] وأن المعنى الشرعي للبدعة يختص بما هو مذموم فقط[6].

[4] رواه الترمذي اللالكائي 22:1 والحاكم 96/1 وأحمد 126/4 وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة 937.
[5] فتح الباري 252/13 .
[6] فتح الباري 278:13 .

وقد فهم السلف الصالح من حدث (كل بدعة ضلالة) ذم البدعة مطلقاً، ولذلك قال ابن عمر "كل بدعة ضلالة وإن رآها الناس حسنة"[1]. وقال ابن الماجشون "سمعت مالكاً يقول "من ابتدع في الإسلام بدعة ويراها حسنة فقد زعم أن محمداً ρ خان الرسالة، لأن الله يقول {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً} فما لم يكن يومئذ ديناً لا يكون اليوم ديناً، ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها""[2].

ـ صحيح أن البدعة تنقسم من حيث اللغة إلى نوعين بدعة حسنة، وبدعة سيئة. غير أن هذا التقسيم لا يجوز من حيث الشرع[3]:

ـ ألا ترى أن الصلاة في اللغة معناها الدعاء. وأما معناها في الشرع فالصلاة عبارة عن أقوال وأفعال مخصوصة تبتدأ بالتكبير وتختتم بالتسليم.

ـ والإيمان في اللغة معناه مجرد التصديق. غير أن معناهما في الشرع يختلف تماماً فإن الإيمان في الشرع معناه التصديق والقول والعمل. وأما معناه اللغوي فهو التصديق فقط. ومن هنا سقط المرجئة وضلوا وذلك حين حملوا المعنى اللغوي على الشرعي.

ـ والمبتدعون والمخترعون في أمور الدنيا كثيرون، منهم من تكون بدعته حسنة كاختراع السيارات والطائرات والعلوم الطبية والهندسية، ومنهم من تكون بدعته شراً كاختراع القنابل واستحداث وسائل الرذيلة.

فمن زاد في شرع الله شيئاً فقد نصّب نفسه مشرّعاً مع الله. قال تعال {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ} (الشورى 21).

فالزيادة في الدين قبيحة لأنها تعديل واستدراك على الله ورسوله ρ . ونقض صريح لقوله تعالى {أَكْمَلْتُ} و{أَتْمَمْتُ}.

ـ والله تعالى لا يُعبد بالأهواء والعادات وإنما يُعبد بما شرع. ولا يقبل الله تعالى التقرب إليه بالبدع وإنما يقبل التقرب إليه بما شرعه هو لا بما مال إليه هواك.

ـ ثم إن إحداث بدعة يؤدي إلى إهمال سنة. قال حسان[1] بن عطية "ما ابتدع قوم بدعة في دينهم إلا نزع الله من سنتهم مثلها، ثم لا يعيدها إليه إلى يوم القيامة.

ـ ومبدأ البدعة مرفوض سواء كانت بدعة صغيرة أم كبيرة. فإن الشيطان يزين للناس صغار البدع ويروضهم عليها، حتى إذا وجدت عندهم قبولاً، وصار مبدأ البدعة مقبولاً ومستساغاً استدرجهم بخطواته إلى بدعة أكبر منها. قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ} (النور 21). فليس قبول البدعة أو رفضها بحسب حجمها وإنما لأن مبدأ البدعة مرفوض أصلاً.

موقف السلف من الابتداع في الدين

روى الدارمي بسند جيد عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أنه رأى في المسجد شيئاً ينكره فذهب إلى ابن مسعود وقال له "لقد رأي في المسجد قوماً حِلقاً جلوساً

(1) رواه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة 126 .

(2) الاعتصام للشاطبي 49:1 .

(3) وهو تقسيم موهم، يستغله المبتدعة لتشريع إضافاتهم في دين الله .

(1) رواه الدارمي 45:1 بإسناد صحيح .

ينتظرون الصلاة، في كل حلقة رجل وفي أيديهم حصاً فيقول: كبروا مائة، فيكبرون مائة، فيقول هللوا مائة، فيهللون مائة. ويقول: سبحوا مائة، فيسبحون مائة.

قال ابن مسعود: فماذا قلت لهم؟

قال أبو موسى: ما قلت لهم شيئاً انتظار رأيك أو انتظار أمرك.

قال: أفلا أمرتهم أن يعدوا سيئاتهم وضمنت لم أن لا يضيع من حسناتهم شيء؟

ثم مضى ومضينا معه حتى أتى حلقة من تلك الحِلَق فوقف عليها:

فقال: ما هذا الذي أراكم تصنعون؟

قالوا: يا أبا عبد الرحمن حصاً نعدّ به التكبير والتهليل والتسبيح.

قال: فعُدّوا سيئاتكم، فأنا ضامن ألا يضيع من حسناتكم شيء. ويْحَكُمْ يا أمة محمد ما أسرع هلكتكم، هؤلاء صحابة نبيكم متوافرون، وهذه ثيابه لم تبل، وآنيته لم تكسر، والذي نفسي بيده إنكم لعلى ملة أهدى من ملة محمد أو مفتتحو باب ضلالة.

قالوا: والله يا أبا عبد الرحمن ما أردنا إلا الخير.

قال: وكم من مريد للخير لن يصيبه. إن رسول الله ρ حدثنا: أن قوماً يقرؤون القرآن لا يجاز تراقيهم. وايم الله لعل أكثرهم منكم.

ثم تولى عنهم، فقال عمرو بن سلمة: رأينا عامة أولئك الحِلَق يطاعنونا يوم النهروان مع الخوارج"[1].

وفي هذا الأثر من الفوائد

1) أن الذي شرع الغاية وهي هنا الذكر لم ينس الوسيلة وهي سنة عقد التسبيح باليمين كما علمنا نبينا ρ .

2) أن الدبعة تُذهِبُ سنة وتقود إلى تركها. كما قال حسان بن عطية "ما ابتدع قوم بدعة في دينهم إلا نزع الله من سنتهم مثلها، ثم لا يعيدها إليهم إلى يوم القيامة[2].

3) أن الشيطان يروض الناس على صغار البدع فإذا استجابوا له انتقل لهم إلى كبارها مثلما فعل بهؤلاء حين انتقل بهم من بدع التسبيح الحصى إلى بدعة الخروج على صحابة رسول الله ρ واستباحة دمائهم.

---

[1] رواه الدارمي بسند صحيح 68/1 .

[2] رواه الدارمي 45:1 بإسناد صحيح .

عاقبة انتشار البدع

ولما تساهل الناس في هذا الأمر انتشرت الفوضى والعبث في الدين وبدأت مظاهر البدع تبدو في أذان الصلوات وفي صلوات الناس وسائر عباداتهم ولم تعد تعرف لها حداً تقف عنده، وتبدل كثير مما كان عليه النبي ρ وأصحابه. وهذا شيء لا يرضاه الله ولا يرضاه الرسول ρ .

وإن ما أصابنا اليوم من التخلف وتسلط أعداء الله على هذه الأمة إنما هو من عند أنفسنا وبما كسبت أيدينا، وما لم نبادر إلى الكف عن الزيادة في الدين والتعصب المقيت ونبادر إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فسيبقى حال هذه الأمة ماضٍ إلى الأسوأ. وليس أفسد على دين المرء من بدعة وشرك. فإنهما منتهى ما يسعى الشيطان لتحقيقه.

ولقد بين الإمام أحمد أصول اتباع السنة بقوله[1] "أصول السنة عندنا التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله ρ والاقتداء بهم وترك البدع. وكل بدعة فهي ضلالة. وترك الراء والجدل والخصومات في الدين".

ـ وهكذا يبقى الاتباع مقياس المحبة ودليلها. فإنه لا يمكن الجمع بين محبة سنة النبي ρ وبين الزيادة على سنته بل وعلى كتاب ربه سبحانه وتعالى. والمحبة دعوى تحتاج إلى دليل على صدقها. وليس أدلّ على صدق المحبة من الاتباع.

قال تعالى {قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ} [آل عمران 31].

---

[1] طبقات الحنابلة 241/1 .

الأركان التي يقوم عليها الدين

أما الأسس التي ترتكز عليها العقيدة الإسلامية فهي: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، كما قال تعالى:

{لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّـهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ} [البقرة 177].

وكما في حديث جبريل الطويل المتضمن لأسئلة عديدة عن أركان الدين ومراتب الإيمان. سأل فيها جبريل النبي ρ ما يلي:

* أخبرني عن الإسلام: قال "الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا".

* أخبرني عن الإيمان: قال "الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره".

* أخبرني عن الإحسان: قال ρ "الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك"[1].

مفهوم الإسلام ومقتضاه

والإسلام: صفة تعني الاستسلام والانقياد لله بالطاعة، والامتثال لأمره ونهيه، فكل من أسلم لأمر الله ونهيه استحق أن يوصف بهذه الصفة (الإسلام). أما من أعرض عن دين الله ولم يأخذ من الدين إلا اسمه فهذا لم يسلم وإن ادعى ذلك.

قصة إبراهيم وإسماعيل: رمز الخضوع والاستسلام

وفي قصة إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام أعظم المثل في الخضوع والاستسلام لأمر الله مما قصه الله علينا من خبره في قرآنه الكريم إذ قال لولده {يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى} ومنام الأنبياء وحي. فلم يبد إسماعيل التسخط وعدم الرضى، وإنما ظهر بمنتهى الخضوع والاستسلام لأمر الله فبادر إلى القول {يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ 102 فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ} الأب على وشك أن يذبح ولده، والابن قد قدّم رقبته للذبح طاعة لرب العالمين. وليس هناك وصفاً أجود لهذه الحال التي عليها الأب وابنه من قول الله تعالى {فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ} وهكذا استسلام تام لأمر الله، وفجأة إذا بالنداء من الله {وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ. قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاء الْمُبِينُ. وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ} (الصافات 101 – 106).

فالإسلام ليس مجرد لقب، وإنما هو صفة تعني الخضوع والامتثال لأوامر الله. ولهذا يغفل الناس عن تدبر معنى قول الله تعالى {فَلَمَّا أَسْلَمَا} وليس معناه أنهما (لما أعلنا إسلامهما). وإنما لما استسلما استسلاماً صادقاً لله حيث الأب لا يبالي أن يفقد فلذة كبده والولد لا يبالي أن يفقد حياته: كل ذلك في سبيل تنفيذ ما أمر الله. فهل يتصف المسلمون

---

[1] رواه مسلم رقم (8) في كتاب الإيمان.

اليوم بمثل هذه الجدية في دينهم. وهل عندهم حقيقة هذا الإسلام الذي تحلى به إبراهيم وولده؟!

ولما صار دين الناس الرسمي الإسلام، مختوم على بطاقاتهم ولا أثر له في سلوكهم وواقع حياتهم: سلّط الله عليهم حكّاماً يعلنون أن "دين الدولة الرسمي الإسلام" في حين لا يطبقون منه شيئاً. يخدعون به من كانوا بدورهم يخادعون الله والذين آمنوا، وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون. ولقد صدق القائل "كما تكونوا يُوَلّى عليكم".

الشهادة لله بالوحدانية

الشهادة بالوحدانية لله تعالى أول شرط في دخول الإسلام وكفى بها علامة على صحة هذا الدين وبطلان ما سواه من الأديان فإنه ما من دين يشترط عليك هذا الشرط ولا يعترف بعضويتك فيه إن لم تستوف هذا الشرط.

إن شهادة (لا إله إلا الله) هي مفتاح الجنة وسر النجاة من النار، ومن يأت يوم القيامة من دون هذا المفتاح فلا نجاة له من النار ولا دخول له إلى الجنة حتى وإن آمن بمحمد وقرأ القرآن وصلى وصام وآمن بكل شيء.

وقد تم تفصيل موضوع وحدانية الله بما يغني عن إعادته هنا.

معنى الشهادة لمحمد بالرسالة

كل المسلمين يشهدون أن محمداً رسول الله، ولكن:
كم هم الذين يفهمون هذه الشهادة حق فهمها؟
كم هم الذين يحرصون على الاستنان بسنته، والتثبت مما روي عنه، واجتناب المرويات الضعيفة والموضوعة المكذوبة؟
كم هم الذين يقتدون بما صح من سيرته، ويجعلونها منهاجاً يسيرون عليه في حياتهم؟
إن هذا المنهج ثقيل وشاق على كثيرين ممن يشهدون أن محمداً رسول الله وهم يخالفون طريقة من شهدوا له بالرسالة.
فما هو حق هذه الشهادة، وما هي شروطها: حتى لا تكون الشهادة مجرد دعوى:

مقتضيات الإيمان بالنبي محمد ρ

أن إيماننا بمحمد ρ يتطلب منا:
1 ـ أن نؤمن إيماناً جازماً بأنه مرسل من عند الله.
2 ـ أن لا نفرق بينه وبين الأنبياء جميعهم.

3 ـ أن نعتقد أنه لم يفارق الدنيا إلا وقد بلّغ ما أمره الله بتبليغه، شهد هو على ذلك وأشهد صحابته عليه كما في خطبة الوداع فقال "ألا هل بلغت" قالوا نشهد. قال "اللهم فاشهد".

4 ـ أنه لا يجوز أن نعتقد أنه فوق الطبيعة البشرية، أو انه مخلوق نوراني أو أنه خلق قبل آدم وقبل خلق السماوات والأرض أو أن الله خلق السماوات والأرض والجنة والنار من أجله. وإنما هو بشر من ولد آدم، اصطفاه الله بالنبوة والكتاب كما قال {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ} (آل عمران 144).

5 ـ أن نعتقد أنه لا يعلم الغيب إلا ما أعلمه الله إياه مما لا يعود غيباً لا عليه ولا علينا بعد أن أبلغنا إياه. وأن الله أمره أن يقول {قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ} (الأعراف 188).
وكان ρ[1] يقول "لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح بن مريم، ولكن قولوا عبد الله ورسوله، ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلنيها الله". وحين أنشدوا يمدحونه قائلين: (وفينا نبي يعلم ما في غد). حذرهم قائلاً "قولوا ببعض قولكم ولا يستجرّنكم الشيطان" حذرهم من أن يستجرهم الشيطان إلى الغلو".
6 ـ وأنه ولا يملك الضر والنفع إلا ما شاء الله كالمعجزات.
7 ـ أن نطيعه في كل ما أمر وننتهي عن كل ما نهى عنه. فإن طاعته طاعة لله، ومعصيته معصية لله. قال تعالى {مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ} (النساء 80) وقال {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا} (الحشر 7) وقال {قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ} (آل عمران 31).

---
[1] رواه البخاري 3445 .

8 ـ أن نحبه حباً يفوق حبنا للمال والنفس والولد. فقد قال لنا "لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين"[2].

ومن مقتضيات الإيمان بنبينا:

1 ـ طاعته فيما أمر.
2 ـ تصديقه فيما أخبر.
3 ـ الانتهاء عما نهى عنه وزجر.
4 ـ ألا يُعبَدَ الله إلا بما شرع.

ومن علامات المحبة الصادقة:

ـ أن نحرص على اتباع سنته ρ ونتقيد بها تقيداً تاماً فنفعل كل ما أمرنا به ونجتنب كل ما نهانا عنه. ولا نزيد عليها شيئاً من عند أنفسنا. فمن أضاف شيئاً إلى سنته كانت محبته غير صادقة.

ـ كثرة الصلاة عليه وعند ذكره. قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} (الأحزاب 56).

ـ أن يكون هوانا تبعاً لما جاء به النبي ρ .

ـ أن نجعله قدوتنا في كل شأن من شؤوننا. قال تعالى {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ} (الأحزاب 21).

---

[2] رواه البخاري رقم (15) .

العالم قبل نبوة محمد ρ

لقد كانت الأرض في الفترة التي سبقت بعثة النبي الخاتم ρ تعاني من الظلم والجاهلية الكبرى، من سفك للدماء وقطع للأرحام وشرك بالخالق وتشييد للأصنام وأكل للميتة وقتل للبنات.

لقد كان الناس[1]:

- بين وثنية جائرة تبني الصنم بيدها ثم تعبده. تعبد ما تبنيه يدها.
- ومسيحية حائرة جعلت لله ولداً وروحاً: ثلاثة في واحد واتخذ الناس فيها الرهبان أرباباً من دون الله. فهو مخلوق وخالق وبشر وإله في وقت واحد!.

المسيح الذي جاء ليدل الناس على عبادة الله فصار عند طائفة منهم هو الله نزل إلى الأرض وأكل وشرب ونام وهرب من ملاحقة أعدائه ثم قبضوا عليه وقتلوه. وهو مع ذلك كله إله !!

- ويهودية ماكرة تعيث في الأرض فساداً وتشعل نار الفتن بين الأمم. ترى أنها هي أمة البشر والأمم بهائم سخرهم الله لها. قد نقضت عهود الله ومواثيقه وحرّفت كتابه وقتلت أنبياءه وهي مع ذلك تتبجح على الأمم بكثرة ظهور النبوة فيها وامتلاكها كتاباً محرفاً مبدلاً تحلل فيه الحرام وتحرم الحلال بحسب أهواء الأحبار.
- ومجوسية مشركة تدين بوجود إلهين: إله للخير وإله للشر، وتعبد النار.
- وصابئة يعبدون الكواكب والنجوم ويعتقدون تأثيرها يخافون غضبها ويرجون نفعها.
- ودهرية ينكرون ألوهية الله، ويكفرون بالبعث واليوم الآخر.

وهكذا وصلت الأرض إلى مرحلة انطمس فيه نور النبوة واستبدلت فيها تعاليم الأنبياء ووحيهم بفعل أئمة الضلال وجنود الشيطان إلى تعاليم من وحي الشيطان. وتمرغ الناس في بحر الوثنية والجهل:

حتى تلألأ نور الهدى من جديد حين أرسل الله خاتم الأنبياء ρ وأنزل عليه خاتم الكتب، فأنقذهم الله به من الضلالة وعلمهم به من الجهل وطهرهم به من الرجس والحرام {لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ} (آل عمران 164).

* أنقذهم من الوثنية وعبادة الأصنام {وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُهُمْ وَلاَ يَضُرُّهُمْ} {إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} (الأعراف 194) وعاد بهم إلى ملة إبراهيم وعقيدة التوحيد الصافي.

* أنقذ الطفلة من جريمة القتل بعد أن كانت تُدفَنَ وهي حية {وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ ، بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ} (التكوير 9) {وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ، يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاء مَا يَحْكُمُونَ} (النحل 58).

[1] من كتاب عقيدة التوحيد لمحمد خليل هراس .

* وبعد أن كان المجتمع عنصرياً يزن الناس بميزان العرق والجنس والنسب طهر الإسلام المجتمع من ذلك النتن {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ}.

* حرّر الناس من عبودية غير الله، حرّرهم من عبادة الهوى والجاه والتقاليد الموروثة، حررهم من خرافات الكهان وكشف أكاذيبهم وحذر الناس من التردد عليهم. فإنهم مجلبة للمصائب مفسدة للدين.

* جعل العبيد إخواناً لسادتهم حين قال[1] "إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم. فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس ولا يكلفه ما يغلبه، فإن كلفه ما يغلبه فليُعِنه".

---

(1) رواه أبو داود (5158) بسند صحيح .

ميزة نبوته ρ على الأنباء

وقد أوضح النبي ρ ما تميزت به نبوته على إخوانه من الأنبياء من قبل فقال "فُضِّلتُ على الأنبياء بست [1]:

1) أعطيتُ جوامع الكلم[2].
2) ونُصِرتُ بالرعب (مسيرة شهر).
3) وأُحِلّتْ لي الغنائم (ولم تَحِلَّ لأحد من قبل)[3].
4) وجُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً (فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليُصلِّ) (حيث كان) (وجُعِلت تُربتها لنا طَهوراً إذا لم نجد الماء).
5) وأرسِلتُ إلى الخلق كافة (وكان النبي يُبعَث في قومه خاصة، وبُعِثتُ إلى الناس عامة (إلى كل أحمر وأسود).
6) وأُعطيتُ الشفاعة[4].
7) وخُتِم بي النبيون[5].
8) وما من نبي من الأنبياء إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كن الذي أوتيتُه وحياً أوحاه الله إلي[6] فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة[7].

---

(1) وفي رواية أعطيتُ خمساً لم يُعطَهن أحد قبلي. وتضمنت بمجموعها ما يزيد على الثمانية .

(2) وهو الكلام القليل ذو المعاني الكثيرة .

(3) وكانت من قبل تُجعل قرباناً ويبعث الله ناراً فتأكلها .

(4) وهي الشفاعة الكبرى يوم الموقف وأما غيره من الشفاعات فهي للأنبياء جميعاً وغيرهم من الصالحين .

(5) فرسالته باقية إلى يوم القيامة .

(6) أي كانت معجزات الأنبياء في غير الوحي، فكانت معجزة موسى في العصا وانفلاق البحر ومعجزة صالح الناقة ومعجزة المسيح في ولادته: ولم يكن شيء من الكتب المنزلة معجزاً إلا القرآن حيث تحدى الله البشر أن يأتوا بشيء من مثله كما قال {وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ} وقوله {قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا} .

(7) البخاري (438) ومسلم (521) وقد جمعت بعض الزيادات المفيدة التي تميزت بها كل رواية عن الأخرى .

إقام الصلاة

قد علمنا أن شهادة أن (لا إله إلا الله) هي الركن الأول من أركان الإسلام والتي تعني إفراد الله بالعبادة وحده دون سواه ظاهراً وباطناً – غير أن هذه الشهادة هي إقرار لفظي من الشاهد تنقصه الشهادة التطبيقية العملية.

ثم تأتي الصلاة 0 الركن الثاني – لتكون التطبيق العملي والاختبار لمدى صدقه في الشهادة.

فمن شهد أنه لا معبود إلا الله، وهو لم يعبده كانت شهادته شهادة عليه يوم القيامة. بل تكون شهادته حينئذ شهادة زور.

فمن ضيع الصلاة فهو لما سواها أضيع. قال ρ [1]"أن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة".

* والصلاة من أبرز معالم الوحدة بين المسلمين، تجعل الغني والفقير والشريف والوضيع في صف واحد، وليس في المسجد أماكن مخصصة لطبقة من الناس دون الأخرى، بل إنك تجد الغني والفقير والشريف والوضيع: كلهم يقفون موقف الفقر والتذلل والخشوع بين يدي الغني سبحانه.

* والصلاة عبادة مخصوصة ذات شروط وأركان نعرف تفاصيلها من السنة. مفتاحها طهارة البدن والثوب والبراءة من الحدث. وروحها الخشوع والطمأنينة والشعور بمناجاة الله تعالى. وأي مناجاة تحلو للمناجي مثل مناجاة العبد لربه!

* والصلاة توجه الجسد إلى القبلة مع توجه القلب إلى الله. وليس مجرد طأطأة الرأس ولا الركوع ولا السجود فحسب وإنما هي تحرك القلب واستشعار بالطمأنينة والراحة والخشوع. فليس المعتبر أن تصلي وإنما المعتبر أن يقبلها الله منك. والله طيب لا يقبل إلا طيباً ولا يصعد إليه إلا الطيب. فلا تقل (صليت) ولكن اسأل (هل تقبلها الله منك؟)

---

[1] رواه مسلم في الإيمان باب بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة .

* ويستفاد من قول النبي ρ "صلوا كما رأيتموني أصلي" ضرورة الاقتداء به في خشوعه أيضاً وليس فقط في قيامه وركوعه وسجوده. قال تعالى {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ، الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ} (المؤمنون 1) فخشوعهم في صلاتهم دليل فلاحهم وأنهم على خير كبير. وقال تعالى {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ} (العنكبوت 45).

وقد كان ρ كثير الخشوع كثير البكاء، إذا صلى سُمِع له أزيز كأزيز المرجل[1] من البكاء.

* وبتكرار أداء الصلاة خمس مرات في اليوم والليلة تصون القلب عن الانصراف عن الله، وتحافظ على حسن الصلة بالله.

فقد يقع العبد في معصية وينوي معودة الكرّة، فيحين وقت الصلاة فإذا سمع النداء بالصلاة فلا يسعه قبل وقوفه بين يدي ربه ومناجاته إلا أن يكن على توبة واستغفار من الذنب الذي ارتكبه. فيسارع حينئذ إلى الإقلاع عن الذنب والندم والتوبة. ويعزم قبل الدخول في الصلاة على عدم العودة إلى الذنب. ولولا الصلاة لبقي على إصراره على الذنب مما يزيده بُعداً وإعراضاً عن الله عز وجل. ولعل هذا معنى قوله تعالى {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ}.

---

[1] وهو القدر الذي يُطبَخ فيه الطعام إذا أوقدت عليه النار يُسمَع له صوت .

إيتاء الزكاة

الزكاة عبادة مالية تجب في كل صنف من أصناف المال بشرطين:
1 - إذا بلغت النصاب أي الحد الذي تجب فيه الزكاة.
2 - إذا مضى على هذا الحد سنة كاملة من غير أن ينقص خلالها.

وفي الزكاة تزكية للنفس من أمراض البخل والشح. وفيها سدّ حاجة الناس من الفقر والعوز. قال تعالى {وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ} (النور 33) وقال الرسول ρ[1] "ما نقص مال من صدقة، ولا ظلم عبد مظلمة – فصبر عليها – إلا زاده الله بها عزاً، ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر".

* وبهذه التعاليم السامية تزول العداوة بين الغني والفقير، لأن الغني يؤدي ما افترض الله عليه من زكاة ماله لأخيه الفقير. ويؤدي زيادة على ذلك: ما تجود به نفسه إلى إخوانه، يتقرب بذلك إلى الله لأنه يعلم أن ما ينفقه في الدنيا سوف يجده يوم القيامة عند الله أضعافاً مضاعفة.

* والصدقة كما في الحديث "تدفع ميتة السوء وتطفئ غضب الرب وتطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار" وتحجب عن صاحبها لفحات جهنم. فما أحوج البشر التي تدور فيهم الحرب بين الفقراء والأغنياء إلى مثل هذه التعاليم الإلهية.

* ولا ينال العبد بر وثواب ما تصدق به إلا أن ينفقه عن طيب نفس منه كما قال تعالى {لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ} (آل عمران 92) ونَيْل البر أغلى وأثمن من المال الذي تصدق به. وذلك أن المال من أبهى زينة الحياة وتتعلق به القلوب وينتج عن التعلق به الحرص والحسد والقطيعة وسفك الدماء: ومن هنا حرص الإسلام على تطهير القلوب وصيانتها من هذه الأمراض، وتحرير الناس من عبودية المال. قال تعالى {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا} (التوبة 103).

[1] رواه مسلم رقم (2588) .

صوم رمضان

وهو الامتناع عن الطعام والشراب والجماع من طلوع الفجر إلى مغيب الشمس. ويتأكد فيه أيضاً وجوب الصيام عن الغيبة والنميمة[1] وعن أنواع اللغو من الكلام.

قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ، أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ} إلى قوله {فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ} (البقرة 185). وقال ρ [2] "من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه".

* في هذا الشهر يعمل المسلمون على التخفيف من كثرة العمل ويُكثرون من العبادة، ففي النهار يصومون، وفي الليل يجتمعون على صلوات التراويح يقيمون الليل فيركعون يسجدون ويتلون كتاب ربهم، إنه شهر التربية والتقرب إلى الله والتوبة إليه عما كان ارتكب قبله من الذنوب، والعزم على تصحيح المسار وضبط جماح الشهوات.

* والصيام واجب على الغني والفقير، فلا يستطيع الغني أن يدفع عن نفسه الصيام بماله ولا بأملاكه، وإنما الحال في ذلك واحدة بين الجميع.

* وفي الصيام مناسبة يتذكر فيها الغني ما يشعر به إخوانه الفقراء والمحتاجون عادة من شدة الجوع. فيتعرف آلام الجوع فيتذكر نعمة الله عليه ويعرف قيمتها ويجرب صعوبة الجوع الذي يعانيه إخوانه الفقراء مما يدفعه إلى الصدقة والعطاء.

* ويصح تسمية شهر رمضان "شهر الصدقة" لأن المسلمين يتصدقون في هذا الشهر ما لا يتصدقون في غيره عادة، حتى إن الشريعة حثت المسلم على تفطير إخوانه من المسلمين ولو على تمرة أو شربة ماء.

ثم إن المسلم يودع شهر الصيام بزكاة تسمى "زكاة الفطر" تؤدى قبيل صلاة عيد الفطر كحد زمني أقصى إلى المعوزين لإشعارهم ببهجة العيد وإغنائهم جميعاً ولو في هذا اليوم كما قال النبي ρ "أغنوهم عن السؤال في هذا اليوم".

---

[1] الغيبة أن تذكر أخاك بما يكره وإن كان فيه ما تقوله. والنميمة نقل الكلام بين الناس بما يؤدي إلى إيقاع الفتنة بينهم.

[2] رواه البخاري 1903 .

حج البيت الحرام للمستطيع

وهو التعبد لله تعالى بقصد المسجد الحرام للقيام بشعائر الحج ولو مرة واحدة في العمر مقيداً بالاستطاعة.

والحج عبادة مالية من إنفاق وذبح.

* وعبادة بدنية من ذكر وطواف وسعي وتلبية ووقوف بعرفة ومشقة في السفر.

* والحج مناسبة لالتقاء المسلمين من أقطار شتى واجتماعهم عند المسجد الحرام الذي كانوا يتوجهون إليه في صلواتهم، ويتعرف كل منهم على أحوال إخوانه من المسلمين. لا فضل لعِرق ولا لون ولا غنى ولا جاه، الكل فقراء إلى الله، جاءوا يطلبون ثوابه ومغفرته ورضوانه.

* الغني يطوف ويسعى، حاله في ذلك كالفقير. يقاسي من أنواع التعب والنصب ما يقاسي مثله الفقير. كلهم يلبسون لباساً واحداً. إزاراً ورداءً أشبه ما يكون بكفن الميت. ينامون معاً تحت خيمة واحدة يفترشون الأرض. وفي هذا أيضاً ترويض للغني على خشونة العيش، فإن النعمة لا تدوم.

* فالغني إذا حج لا ينفعه ماله في مثل هذه الظروف، إذ لا مهرب من أداء الشعائر تحت الشمس وفي الخيم، وكما أنه لا يغنيه ماله من الحر والتعب في الحج، فكذلك لا يغنيه يوم القيامة من باب أولى إلا أن يتقي الله فيه ويصرفه في حقه. ويذكّره إزارُه ورداؤه بكفن الميت الذي سيلبس مثله عند موته، سيذكره بأنه لن يأخذ معه إلى قبره إلا كفنه الشبيه بلباس الحج.

* إن الله يريد منه أن لا يستعلي على إخوانه بمال ولا جاه، فإن ذلك متاع زائل، وإنما قيمة العبد عند ربه في طهارة قلبه وصلاح دينه، لا بثقل جيبه. بعمله لا بماله. قال تعالى {يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ، إلا مَنْ أَتَى اللَّـهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} (الشعراء 88) وقال {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ} (الحجرات 13).

الإيمان

التعريف اللغوي للإيمان: هو التصديق.

وأما في المعنى الشرعي فمعناه التصديق المشتمل على ثلاثة أمور لا انفصال لأحدها عن الآخر، وهي:

1 - التصديق القلبي. ومعناه الاعتقاد بالقلب.
2 - القول: وهو النطق بالشهادتين.
3 - العمل الموافق لهذا الاعتقاد.

فلا يمكن الاعتقاد بالشهادتين مع عدم العمل بمقتضاهما. ولا يمكن العمل أو النطق بهما مع عدم الاعتقاد بهما.

والمتأمل في القرآن يلاحظ اقتران العمل بالإيمان دائماً. كقوله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}. ومن هنا نعلم أن العمل داخل في مسمى الإيمان، متعلق به أبداً، إذ أن التصديق القلبي واللساني إذا بقيا بلا عمل، صار الإيمان أساساً بلا بناء. وغصناً بلا ثمر.

قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ، كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ} (الصف 2). وسئل النبي ρ "أي الأعمال خير؟ فقال إيمان بالله ورسوله"[1].

* فجعل الإيمان من خير العمل الصالح والمحك الذي يظهر به المؤمن الصادق من المدعي الكاذب! قال تعالى {أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ، وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ} (العنكبوت 2).

---

[1] البخاري (26) ومسلم (83) .

الإيمان قول وعمل يزيد وينقص

والسبب في ضرورة هذا الترابط: أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص، يزيد بطاعة الله وينقص بمعصية الله كما قال الله تعالى {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْواهُمْ} (محمد 17). وقال النبي ρ "الإيمان بضع وسبعون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان"[1]. فكلما زاد العمل زاد معه الإيمان، وكلما نقص العمل نقص معه الإيمان.

وإن من شأن هذا الاعتقاد أن يشجع المؤمن على الازدياد من العمل الصالح لتحصل له الزيادة في إيمانه، ويحمله على اجتناب ما قد يكون سبباً في نقصانه.

أما القول بعدم زيادة الإيمان أو نقصانه بحسب العمل فإنه قول مخالف للدين والعقل والواقع، وهو قول خطير يؤدي إلى الإحباط وعدم الحرص على العمل الصالح. فما الداعي إذن إلى المسابقة في عمل الخير ما دام الإيمان هو هو لا يزيد شيئاً! وما الداعي إلى التخلي عن المعاصي وهي لا تؤثر في الإيمان شيئاً ولا تزيده!

ثم إن إيمان الأنبياء أعظم من إيمان من سواهم. وإيمان أبي بكر وعمر أكبر من إيمان من دونهم. وهو دليل على الزيادة عند قوم والنقصان عند آخرين. فلا يقال إن إيماني مثل إيمان أبي بكر أو مثل إيمان جبريل.

[1] مسلم رقم (35) .

نور الإيمان وظلمة الكفر

الإيمان نعمة لا يعرف قيمتها ولا يجد حلاوتها إلا المؤمن.
ولذلك لا يرضى المؤمنون عن هذه النعمة بديلاً، ولا يهنأ لهم عيش من دونها. فالإيمان سر سعادتهم في الدنيا.

وليس هو متاعاً يشترى بالمال. وإنما فضل يتفضل الله به على من يشاء من عباده. يؤتيه من آمن به وبما أنزل على رسله وبما تضمنته كتبه. وهو أعلم بمن يستحقه. إنه يعطي المال لمن يحب ولمن لا يحب. ولكن لا يعطي الإيمان إلا لمن يحب.
لذا قد تجد الكآبة تغمر بعض أهل المال والسلطان، في حين تغمر السعادة المؤمن ولو كان أفقر أهل الدنيا.

وهذا الإيمان – مع علو شأنه وعظم الحاجة إليه – سهل المنال، في متناول الباحثين عن السعادة، غير أن التكالب على الدنيا والانشغال بها عن الآخرة أعمى الكثيرين عنه، وجعلهم يلهثون وراء حطام الدنيا الفانية ويزهدون في طلبه. قال رسول الله ρ "ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً"[1].

وأثنى الله على المؤمنين بالغيب فقال:
{الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ، والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ، أُوْلَـئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} (البقرة 3). وقال:
{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ، الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ، أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} (الأنفال 1).

---

[1] رواه مسلم رقم (34) .

أركان الإيمان

(الركن الأول)

الإيمان بالله

الإيمان بالله من حيث الجملة قاسم مشترك بين البشر، كلهم يدّعون ذلك، اللهم إلا الجاحدين الذين تجحد ألسنتهم بما تستيقنه قلوبهم ظلماً واستكباراً.

غير أن إيمانهم يختلف من ملة إلى أخرى، فإن من الناس من لا يؤمن إلا كان إيمانه ممزوجاً بكفر وشرك وبدَع كما قال تعالى {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ} (يوسف 106).

ومن هنا احتيج إلى وجود ضوابط تنظم هذا الإيمان، وتجعل منه إيماناً صحيحاً بريئاً من الأفكار الملوثة التي علقت في أذهان العديد من الناس، حيث خالط إيمانهم بالله مفاهيم باطلة جعلته باطلاً لا ينفع صاحبه.

ومنشأ هذه الاعتقادات الضالة هو التصور الفاسد في الله وصفاته:

فمنهم من يدعي تجسد الله في أحد خلقه.

ومنهم من ينسب إليه الولد كالنصارى واليهود.

ومنهم من يدعو من دون الله من يظنهم وسطاء بينه وبين ربه. يظن أن الله لا يستجيب الدعاء إلا عن طريقهم، وكأنهم أرأف وأرحم بالعابد منه سبحانه.

ولهذا أنزل الله سورة صغيرة في آياتها، عظيمة في معانيها، تصحح هذا الفساد في التصور وهي سورة الإخلاص {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، اللَّهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ} فهذه الآية أثبتت وحدانية الله، وغناه وسؤدده، وتنزهه عن التوالد والتكاثر، وعن مشابهته لأحد من خلقه.

(الركن الثاني)

الإيمان بالملائكة

الملائكة الكرام مخلوقات نورانية شريفة مطهرة، خلقهم الله تعالى لحكمة عظيمة ورتب لهم أعمالاً:

فمنهم المسبح الذي لا يسكت عن التسبيح.
ومنهم الساجد الذي لا يكل عن سجوده.
ومنهم المكلف بتبليغ وحي الله وكلامه.
ومنهم المكلف بنفخ الروح في المخلوقات؟
ومنهم المكلف بالنفخ في الصور يوم القيامة.
ومنهم المكلف بالقطر.

قال تعالى {الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاء إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (فاطر 1) وهي من عجائب قدرة الله العظيمة، ويظهر ذلك في سرعتها الفائقة وقدرتها على التشكل بالأشكال المختلفة.

صفاتهم

وقد ورد وصفهم في بعض الآيات القرآنية. فمن ذلك:

قال تعالى {لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} (التحريم 6) وقال {يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ} (الأنبياء 20). وفي الحديث "خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم"[(1)].

كثرتهم

جاء في كثرتهم حديث [(2)]"أطت السماء وحق لها أن تئط. ما فيها موضع أربعة أصابع إلا وفيه ملك ساجد أو قائم". وكذلك حديث الملائكة الذين يزورون البيت المعمور وهو البيت الذي قيل إنه فوق الكعبة في السماء السابعة ولو سقط على الأرض لسقط على الكعبة، وحرمته في السماء كحرمة البيت الحرام على الأرض. ويفد على البيت المعمور كل يوم سبعون ألف ملك كل يوم، ثم لا يعودون إليه[(1)].

مهامهم

وهم يلازمون الإنسان في حياته كلها. يلهمونه الخير ويحثونه عليه. قال ρ "ما منكم من أحد إلا وقد وُكّل إليه قرينه من الجن وقرينه من الملائكة"[(2)]. يشجعونه في حربه ضد الكافرين. بل ويشاركونه في ذلك كم حدث في معركة بدر. يصلون عليه ما دام في صلاته، يحضرون مجالس الذكر والصلاة ويقولون آمين عند دعاء العبد ربه. فإذا وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له". ويداومون على سؤال الله له بالمغفرة. وإذا دعا المؤمن لأخيه في ظهر الغيب قالت الملائكة له: آمين ولك بمثل (ما دعوت لأخيك). ويحفظونه من أذى الشيطان. ويثبتونه عند موته ويبشرونه بكرامة الله له وانتظار الجنة له. ويقبضون روحه بلطف. ويخفضون أجنحتهم لطالب العلم تقديراً منهم للعلم وأهله.

---

(1) رواه مسلم رقم (2996) .
(2) رواه الترمذي (2313) وهو صحيح .
(1) متفق عليه .

الحكمة من خلقهم:

وقد خلقهم ربنا عز وجل لحكمة بالغة وجعل لكل منهم مهاماً وأعمالاً يقومون بها. فمنهم:

* جبريل: الأمين على وحي الله الذي به حياة القلوب والأرواح. يرسله الله إلى من شاء من أنبيائه ورسله.

* إسرافيل: وهو موكل بالنفخ في الصُور يوم القيامة وحين يُبعث الموتى. قال تعالى {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلا مَن شَاء اللَّهُ}. وقال النبي ρ "كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته وانتظر أن يؤذن له" (رواه الترمذي 2433 وله شواهد تقويه).

* ميكائيل: وهو موكل بالقطر أي المطر الذي به حياة النبات والأرض.

* ملك الموت الموكل بقبض أرواح الخلق. قال تعالى {قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ} (السجدة 11).

* منكر ونكير: وهما الملكان الموكلات بفتنة القبر يسألان العبد في قبره: من ربك ومن نبيك وما دينك وما كتابك. فإن ثبّته الله بشّراه بالجنة وإن أضله عن الإجابة نال منهما النكال والعذاب الشديد.

* حملة العرش: قال تعالى {الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا} (غافر 7) وقال {وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ} (الحاقة 17).

* الموكلون بحفظ العباد. قال تعالى {لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللّهِ} (الرعد 12) وهؤلاء يجعلهم الله حفظة للعبد المؤمن من كيد الشياطين وأذاهم. إلا مما شاءه الله. قال كعب "لولا أن الله تعالى وكل بكم ملائكة يذبون عنكم في مطعمكم ومشربكم وعوراتكم لتخطفتكم الجن".

ويدخل في هذا أيضاً الملائكة الذين يأمرهم الله تعالى بالنزول إلى المؤمنين لتثبيتهم في جهادهم ضد الكافرين. قال تعالى {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ} (الأنفال 12).

* الموكلون بحفظ أعمال العباد من خير أو شر: قال تعالى {وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ، كِرَامًا كَاتِبِينَ، يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ} (الانفطار 11) وقال {مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} (ق 18).

* الملائكة الذين يتتبعون مجالس الذكر: قال رسول الله ρ وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده"[1]. وقال رسول الله ρ "إن لله ملائكة

يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تنادَوا: هلموا إلى حاجتكم. فيَحُفّونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا"[2].

مذي (2433) وله شواهد تقويه .

الملك الموكل بكتابة مقادير العباد وهم أجِنّة في البطون: قال ρ "إن أحدكم يُجمَع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يُرسَل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد"[1].

قيمة المؤمن عند الملائكة

ومن تكريم الله للمؤمنين أنه جعل لهم عند أهل السماء ذكراً. حتى إن الملائكة حملة عرشه يستغفرون لهم. قال تعالى {الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ، رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُم وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ، وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ} (غافر 7).

وقال النبي ρ "إن الملائكة تصلي على أحدكم ما دام في مصلاه الذي يصلي فيه (تقول) اللهم صلّ عليه اللهم اغفر له اللهم ارحمه. ما لم يحدث"[2]. قيل: معناه ما لم يؤذ في المسجد مطلق الأذى. وليس معناه فقط فقدان الوضوء.

فما أعظم شأن المؤمن: ملائكة تنزل بالوحي لهدايته، وملائكة تنزل لحفظه، وملائكة ينزلها لتأييده ضد أعدائه، وملائكة يداومون على الاستغفار له والسؤال له بالجنة.

□□□ □□□□□□□□□□ داود (488) .

التفاضل بين الملائكة والبشر

لقد وقع اختلاف في تفضيل الملائكة على آدم:

فقال بعضهم: البشر عامة أفضل من الملائكة.

وقال بعضهم: المؤمنون من البشر أفضل من الملائكة. فإن الله أمر الملائكة أن يسجدوا لآدم. ولم يأمر أحداً من البشر أن يسجد للملائكة.

وقال آخرون: الملائكة أفضل من البشر. فإن للملائكة صعوداً ونزولاً إلى السماوات العلى. وهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، يسبحون الليل والنهار لا يفتُرُون.

وقال آخرون: الملائكة أفضل من البشر عامة إلا الأنبياء.

والقول الفصل في هذه المسألة ما ذكره ابن تيمية: أن المؤمنين من البشر:

* أفضل باعتبار كمال النهاية، وذلك إنما يكون إذا دخلوا الجنة وحياهم الله وأعطاهم كل ما تشتهيه نفوسهم، وخدمتهم الملائكة.

* وأما باعتبار كمال البداية فإن الملائكة أفضل من بني آدم، إذ هم الآن في الرفيق الأعلى منزهون عما يلابسه بنو آدم، مستغرقون في عبادة الله تعالى. ولا ريب أن هذه الأحوال الآن أكمل من أحوال البشر. إذ لا يخلو أن يقع البشر في المعاصي مهما اجتهدوا في العبادة.

قال ابن القيم: وبهذا التفصيل يتبين سر التفضيل، وتتفق أدلة الفريقين. ويصالح كل منهم الآخر على حقه.

آثار الإيمان بالملائكة

* أن الإيمان بهم وبحفظهم للعبد من أذى الشيطان يضع حداً للاضطرابات والمخاوف الدائمة الملازمة لكثير من الناس والتي هي جزء من وسوسة الشيطان فيهم لكي يوحي إليهم بعد ذلك أن طاعتهم له تنجيهم من عقدة الخوف منه. إنها حقاً لجاهلية كبيرة أن يظن الإنسان أن الله سلط عليه الشياطين من غير أن يجعل له سلاحاً يقيه منهم. لقد جهل كثيرون أن الله سخر لهذا العبد الضعيف: ملائكة تخافها الشياطين وتهرب من طريقها.

* أن الإيمان بهم يعتبر إيماناً بالغيب. وقد أثنى الله على المؤمنين بالغيب قائلاً {أُوْلَـئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} (البقرة 3).

* أن المؤمن يعلم ما يجب عليه من الاعتقاد في حقهم. فإن بعض الجهال يرسمون الملائكة على شكل أطفال عراة ظاهري العورة يسرحون ويطيرون. وكان مشركو العرب قبلهم يعتقدون أن الملائكة بنات الله. واليهود يكرهون جبريل من الملائكة ويعتبرونه عدواً لهم.

* أن المؤمن بالملائكة يجتنب كل ما من شأنه أذيتهم. فإنهم يتأذون مما يتأذى منه بنو آدم.

* أن العبد يعلم ملازمة الملائكة له فيستحيي منهم بعد الله. فلا يعصي الله وهو بينهم. ويحرص على أن لا يعمل عملاً سيئاً يجعلهم يفارقونه. فإن الملائكة إذا فارقت المكان ابتدرته الشياطين وجاست خلال الديار.

* أن العابد إذا علم طول ركوعهم وسجودهم وتسبيحهم بالليل والنهار من غير أن يفتروا أو يملوا: يتقال عبادته ويزدريها مقارنة بعبادتهم.

(الركن الثالث)

الإيمـان بالكتب

ونؤمن بما جاءت به الرسل من الكتب وبأنها كلها منزلة من عند الله على رسله. قال تعالى {وَمَن يَكْفُرْ بِاللّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً} (النساء 136). وقد علمنا ربنا تفاصيل الإيمان بالكتب فقال {قُلْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} (البقرة 136).

ونعلم من هذه الكتب:

* التوراة التي أنزلها الله على موسى عليه السلام {إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ} (المائدة 44).

* الإنجيل الذي أنزله الله تعالى على عيسى عليه السلام {وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ} (الحديد 27).

* الزبور الذي نزل على داود {وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً}.

* صحف إبراهيم وموسى. {إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى، صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى}.

القرآن خاتم الكتب، أنزله الله على محمد خاتم الرسل مصدقاً لما بين يديه من الكتب السابقة، ومصححاً لما تضمنته من تحريف، ومبيناً لما تخللها من حذف. فقال {وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ} (المائدة 48). فنسخ الله به الكتب السابقة. وتكفل بحفظه من التحريف والعبث الذي وقع بتوراة اليهود وإنجيل النصارى حيث قال {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} (الحجر 9) وقد مضى على هذا الوعد مئات السنين ولم يستطع أحد تحريفه أو العبث به. وسيبقى محفوظاً وحجة باقية على الخلق إلى يوم القيامة.

نسخ القرآن للتوراة والإنجيل

والقرآن ناسخ لما في التوراة والإنجيل. وذلك لأن التوراة الحالية تتضمن نصوصاً يظهر تحريفها: فمنها ما يطعن في الله، ومنها ما يطعن في رسله ومنها ما يدعو إلى احتقار الأمم وإذلالها وتسخيرها لشعب الله المختار. ومنها ما يتضمن نصوصاً غرامية وجنسية يخجل العفيف من قراءتها.

حالة الكتب السابقة اليوم

أولاً: أما الطعن في الله فقد نسبوا إليه التعب (تكوني 1:2) والخوف (تكوين 5:35) والحزن (تكوين 6:6 ارميا 3:45) والبكاء (أشعياء 9:16) وأن يعقوب صارع ربه فطرحه أرضاً (تكوين 22:33) وزعموا أن الله أغرى بني إسرائيل بالسرقة والاحتيال (خروج 21:3 و1:11 و35:12) وأنه أمر النبي حزقيال أن يأكل الغائط ممزوجاً بالكعك ثم يُطعمه للناس (حزقيال 9:4). فكيف يكون من عند الله ونجده مليئاً بتوجيه اللوم والتوبيخ إلى الله كما في هذه النصوص:

"يا رب لماذا تقف بعيداً؟ لماذا تختفي في أزمنة الضيق" (مزامير 1:10).

"حتى متى يا رب تختبئ كل الاختباء؟" (مزاير 46:98).

"والله لا ينتبه إلى الظلم" (أيوب 1:24).

"بادت ثقتي ورجائي من الرب" (مراثي ارميا 1:3).

(((أفيجوز أن يتضمن كتاب الله سبَّ الله !)))

ثانياً: وأما الطعن في أنبيائه فجاء فيه: أن لوطاً فعل الفاحشة في ابنتيه وأنجبتا منه أولاداً (تكوين 30:19) وأن هرون – أخا موسى – صنع العجل لبني إسرائيل ليعبدوه مع الله (الخروج 32:30) وأن داود اغتصب زوجة جاره (1صموئيل 1:11) وكان يرقص أمام الناس (2صموئيل 20:6) وأن سليمان ارتد إلى عبادة الأوثان لانشغال قلبه عن ربه بالنساء (1ملوك 1:11) وأن يهوذا زنا بزوجة ولده (تكوين 15:38) وأن أيوب كفر بالله وسبه واتهمه بالظلم لأنه ابتلاه بالأمراض الكثيرة (أيوب 9:16 و 12:24) وأن نوحاً شرب الخمر وتعرى في الشارع (تكوين 20:9).

ثالثاً: وأما النصوص الجنسية المخجلة فمنها:

- صرة المر حبيبي لي بين ثديي يبيت. حبيبي بين البنين تحت ظله اشتهيت أن أجلس .. أدخلني إلى بيت الخمر .. شماله تحت رأسي ويمينه تعانقني" (نشيد 13:1).
- في الليل على فراشي طلبت من تحبه نفسي فما وجدته (نشيد 1:3).
- ها أنت جميلة يا حبيبتي.. شفتاك كسلكة من القرمز خدك كفلقة رمانة تحت نقابك.. ثدياك كخشفتي ظبية توأمين يرعيان بين السوسن (نشيد الإنشاد 1:4).
- وافرح بامرأة شبابك الظبية المحبوبة والوعلة الزهية. لِيَرْوِكَ ثدياها في كل وقت (أمثال 16:6).
- لنا أخت صغيرة ليس لها ثديان: فماذا نفعل لأختنا يوم تُخطب؟.. أنا سورٌ وثدياي كبُرجَيْن (نشيد 8:8).
- حاكموا أمكم لأنها ليست امرأتي وأنا لست رجلها لكي تعزل زناها عن وجهها وفسقها من بين ثدييها لئلا أجردها عارية. ولا أرحم أولادها لأنهم أولاد زنى... والآن أكشف عورتها أمام عيون محبيها (هوشع 2:2).

رابعاً: وأما النصوص العنصرية فإليك نماذج منها:
- إياك (يا شعب إسرائيل) قد اختار الرب إلهك لتكون لـه شعباً خاصـاً من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض (تثنية 6:7) إذ صرت عزيزاً في عيني مكرماً وأنا قد أحببتك: أعطي أناساً عوضك، وشعوباً عوض نفسك (أشعيا 4:43).
ـ ها إني أرفع إلى الأمم يدي وإلى الشعوب أقيم رايتي. فيأتون بأولادك في الأحضان، وبناتك على الأكتاف يُحملن. ويكون الملوك حاضنيك. وسيداتهم مرضعاتك. بالوجه إلى الأرض يسجدون له. ويلحسون غبار رجليك. (أشعيا 22:49).
- ويقف الأجانب ويرعون غنمكم ويكون بنو الغريب حراثيكم وكراميكم. أما أنتم فتُدعَوْنَ كهنة الرب. تأكلون ثروة الأمم وعلى مجدهم تتأمرون (اشعيا 5:61).

خامساً: يدعو الكتاب المقدس إلى الخراب والدمار وقتل النساء والأطفال والعجائز. وإليك هذه النصوص:
حين تقرب من مدينة لكي تحاربها: استدعها إلى الصلح. فإن أجابتك إلى الصلح وفتَحَتْ لك: فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويُستعبَد لك. وإن عمِلَتْ معك حرباً فحاصرها. واضرب جميع ذكورها بحد السيف. وأما النساء الأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمتها فتغنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك (تثنية 10:20). واضربوا. لا تشفق أعينكم ولا تعفوا: الشيخ والشاب والعذراء والطفل والنساء اقتلوا للهلاك .. نجسوا البيت واملئوا الدور قتلى .. للرب سيف قد امتلأ دما (حزقيال 5:9).

سادساً: أن الكتاب المقدس لا يتحدث عن يوم القيامة وعن الجزاء والعقاب فيه إلا في العهد الجديد فقط. علماً بأن العهد الجديد لا يساوي عشر حجم العهد القديم.

سابعاً: أنه مليء بالتناقضات والأخطاء مثال ذلك:
- شجرة نسب المسيح تتضمن (28) اسماً لآبائه حسب إنجيل (متى 18:1).
أما عند لوقا 23:3 فتتضمن (42) اسماً وليس (28) وكل الأسماء مختلفة عما ورد في متى.
- ونجد في (متى 16:1) أن يوسف النجار الأب الروحي للمسيح هو ابن يعقوب. بينما نجده عند (لوقا 23:3) ابن هالي وليس ابن يعقوب.
- أن المسيح قال "إن كنت أشهد لنفسي فشهادتي حق (يوحنا 14:8). لكننا نجد التناقض عند يوحنا نفسه (31:5) "عن كنت أشهد لنفسي فشهادتي ليست حقاً".
- وبينما جميع طوائف النصارى متفقة على أن الله أوحى إلى موسى كتاب التثنية في حياته: نجد فيه النص التالي "فمات هناك موسى عبد الرب في أرض مؤاب ودفنه الرب هناك. ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم. وكان موسى ابن مئة وعشرين سنة حين مات" (تثنية 5:34).

اعتراف الكتاب المقدس بالتحريف

ويتضح من هذا تدخل العنصر البشري في هذه الكتب باعتراف كتابهم نفسه إذ جاء فيه "كيف تقولون إننا حكماء، وكلمة الرب معنا: حقاً لقد حرفها قلم الكتبة الكاذب"[1].

وهنا تبرز ضرورة نزول كتاب آخر بعد التوراة والإنجيل، مهيمن عليهما، يقرّ لهما بما بقي فيهما من حق، ويحذر مما دخل عليهما من الكذب والتحريف، ويصحح ما دخل من المعتقدات الضالة مع هذه الإضافة والتحريف.

موقفنا من الكتب إذن

ومن هنا فلا يتناقض مع إيماننا بجميع الكتب: الإيمان بأن كتب اليهود والنصارى على ما هي عليه اليوم لا تمثل تلك التي نزلت على موسى وعيسى. فإن النصارى مختلفون فيما بينهم حولها أشد الاختلاف:

* فنسخة الكاثوليك (دُوّي فيرجن) تحوي (73) سِفراً.
* أما نسخة الأورثوذوكس فتحوي (81) سِفراً.
* وأما البروتستانت فقد اعتمدوا نسخة الملك (جيمس) وحذفوا منها سبعة أسفار فصار مجموع أسفار نسختهم (66) وقد اتهموا الكاثوليك بأنهم أدخلوا على نسختهم أسفاراً سبعة مكذوبة. وظن الجميع أن هذه النسخة من أوثق النسخ. غير أنهم أخذوا يصدرون عنها نسخاً أخرى تتضمن تصحيحات زعموا أنها استدركت أخطاء شنيعة على نسخة الملك (جيمس) وهذه النسخة هي (رفايزد ستاندرد) وال (نيو إنترناشنال).

وتحت عنوان (التحقيق) تم حذف وإضافة وتحريف العديد من نصوص نسخة الملك جيمس. ومن جملة ما أسقطوه من الآيات (متى 21:17 ومرقس 44:5 و46 ولوقا 36:17 ويوحنا 4:5) واعترفوا بأنها أضيفت بعد القرن الخامس من المسيح.

* وجاءت طائفة شهود يهوه فزادت من التشكيك في مصداقية نسخة الملك (جيمس) وصرحوا بأن فيها خمسون ألف خطأ.

---

[1] ارميا 8:8 .

وجاءت طائفة المورمونز وشككت هي الأخرى في نسخة الملك (جيمس) وجعلت كتابها (المورمونز) مهيمناً عليها. فكل ما جاء في نسخة الملك جيمس موافقاً لكتابهم أقرّوا به، وما خالفه اعتبروه مختلقاً مكذوباً. ومن يدري فقد تظهر غداً فرق جديدة تزعم أنها تصحح لمن صححوا اليوم. وهكذا.

وهكذا كثرت اختلافاتهم حول كتبهم وهو أكبر دليل على بطلان دينهم، لأن الكتاب يبقى دائماً برهان الدين ودليله وعلامة على صحته أو بطلانه. فإن كان هذا الدليل صحيحاً سليماً من التحريف كان الدين صحيحاً، وإن كان الكتاب باطلاً كان الدين باطلاً.

وهم مع ذلك يصرون على أن الكتاب الذي يحملونه كتاب الله. وبعضهم يعترف بالحقيقة ويقول بأن بعض نصوصه من كلام الله مع الاعتراف بوجود نصوص أخرى من صنع الإنسان واختلاقه ومع ذلك يزعمون بأنه يمكننا التمييز بين الخير الذي فيه من الشر. ويكفينا أن نأخذ الحق الذي فيه ونترك الباطل الذي فيه.

وهذا اعتراف بالتحريف ويدل على عدم النزاهة والتجرد في طلب الحق. إذ: كيف يمكن تحديد الآيات المحرفة من الآيات التي لم يشملها التحريف؟

- وقد دلت التجربة على أن التعصب يلعب دوره في الدفاع عن النصوص الباطلة ومحاولة تبريرها.

- ثم ما يدرينا أن تكون هناك صفحات بل كتباً تم إسقاطها؟.

- وما الداعي للتمسك بكتاب اعترفنا باختلاط آيات الله فيه بكلام البشر؟ مع أن البديل (القرآن) موجود وقد كشف الله فيه التحريف الذي جرى للكتب السابقة.

- ولو أننا قمنا لهذا المتعصب طبقاً من الطعام اللذيذ غير أنه يحوي نقطة واحدة من السم: فهل يخاطر ويأكل منه ويقول أنا أبحث عن المكان الذي لم يصبه السم وآكل منه؟ أم أن حرصه على سلامة جسده يجعله يتخذ أشد الاحتياطات ويرفض تناول شيء منه حفاظاً على سلامة بدنه؟ ولماذا إذن لا يتخذ الاحتياطات لسلامة دينه الذي فيه خلاصه ونجاته من النار يوم القيامة؟! وهكذا فالكتاب المحرف هو سم قاتل لا يقتل نفس الإنسان ولكن يقضي على دينه.

فائدة الإيمان بالكتب

1- الإيمان بكل ما أخبر الله به وليس ببعضه. أما تكذيب ما خالف القرآن فليس كفراً بل هو تنبيه إلى مواطن التحريف التي عبثت بها أيدي المحرفين لكلام الله.

2- العلم بحكمة الله في شرعه حيث شرع لكل قوم ما يناسب أحوالهم كما قال تعالى {لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً} (المائدة 48) غير أن أصل معتقدهم واحد متشابه لا اختلاف بينهم فيه ولا تناقض.

3- أن الإيمان بما لم نر من الكتب: إيمان بالغيب. والله أثنى على الذين يؤمنون بالغيب ووصفهم بأنهم مهتدون ومفلحون.

(الركن الرابع)

الإيمان بالرسل (عليهم السلام)

ونؤمن بالرسل الكرام الذين اختارهم الله لرسالته.
- وأن الله بعث في كل أمة رسولاً يدعوهم إلى عبادة الله وحده. مبشرين بالجنة لمن أطاع الله، ومنذرين بالنار لمن عصاه.
- وأنه لم تخل أمة من رسول كما قال الله تعالى {وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلا خلا فِيهَا نَذِيرٌ} (فاطر 24).

وما يجب اعتقاده فيهم:
* أنهم صادقون مصدوقون. منزهون عن الفواحش والآثام التي يتصف بها من دونهم من البشر.

* أنهم بلّغوا ما أوحي إليهم على أكمل وجه. غير أنهم يختلفون من حيث الاستجابة والقبول لدعوتهم.
فمنهم من يأتي يوم القيامة ومعه الملايين ممن آمنوا به.
ومنهم من يأتي وليس معه إلا الرجل والرجلان.
ومنهم من يأتي وليس معه أحد. وهذا لا يضره لأن المهم عنده تبليغ ما أمره الله به سواء كان لتبليغه ثمرة ونتيجة أم لم يحصل شيء من ذلك.

* أنهم دعوا إلى عقيدة واحدة وإلى دين واحد، قال تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ} (الأنبياء 25) وقال {إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ} (آل عمران 19).

* أنهم أخوة في الدين الواحد وإنما حصل التفرق في الدين وتعددت الملل بعدهم وهم بريئون من تبعة ذلك.

* مع أننا لا نفرق بين أحد منهم، من حيث الإيمان بهم كما قال تعالى {قُلْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} (آل عمران 84).

فإننا نؤمن بأن الله فضّل بعضهم على بعض من حيث ما آتاهم من المعجزات مثل فلق البحر لموسى وتكليم الله له، مع أن هذا لم يحدث لغيره من الأنبياء الذين فضلهم الله بميزات أخرى لم تحصل لموسى. قال تعالى {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ} (البقرة 253). فإن الفضل لله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

* أن من كفر برسالة واحد منهم فقد كفر بالجميع. فمن آمن بمحمد وكفر بعيسى لم ينفعه إيمانه بمحمد.

* وقد حكم ربنا بكفر من يقولون نؤمن ببعض رسل الله ونكفر بالبعض الآخر فقال {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّهِ وَرُسُلِهِ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ

بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً ، أُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِيناً}.

ثم أثنى على الذين آمنوا بالرسل جميعاً فقال {وَالَّذِينَ آمَنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَـئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَّحِيماً} (النساء 149).

طبيعتهم البشرية

ومما يجب اعتقاده في الأنبياء أيضاً:

* أنهم بشر ليست لهم صفات الربوبية، {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ} (الكهف 110). ويجري عليهم ما يجري على البشر من عوارض الموت والمرض. قال تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ} (الفرقان 20) وقال {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً} (الرعد 38). وكان إبراهيم عليه السلام يقول عن ربه {الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِين ، وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِين ، وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِين} (الشعراء 78).

* أنهم لا يعلمون الغيب إلا ما أوحى الله إليهم. وإذا أوحي إليهم لا يعود غيباً بالنسبة إليهم ولا بالنسبة إلينا إذا تبلغناه عنهم.

وقد أمر الله رسوله أن يقول {وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ} (الأعراف 188).

* أنهم لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً. قال تعالى {قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلاَ نَفْعًا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ} (الأعراف 188). وأمر ربنا نبيه أن يقول {قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَداً} (الجن 21).

أنهم بريئون مما يفعله الناس بعدهم مما هو مخالف لتعاليمهم مثلما فعلت النصارى في عيسى حيث بالغوا في مدحه وإطرائه حتى اعتقدوا فيه مشاركة الله في الربوبية وجعلوه ابناً له. وقد نهاهم الله عن هذا الغلو فقال {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ} (النساء 171) ولهذا خاف نبينا ρ على أمته أن تحذو حذوهم فقال[1] "لا تطروني[2] كما أطرت النصارى عيسى بن مريم، إنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله، إني لا أريد أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلنيها الله تبارك وتعالى، أنا محمد عبد الله ورسوله".

ولذلك كان أحب الأوصاف النبي إليه ρ حين نسبه ربه إلى عبوديته قائلاً {وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا} ومن هنا كان أحب وصف إلى الأنبياء الله: أنهم "عباد لله" وأعظم مقام عندهم كما أفادته الآيات {وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ} (ص: 17) {وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ} (ص: 41).

الإيمان بخاتم الأنبياء

---

[1] البخاري 3445 .

[2] أي لا تبالغوا في مدحي إلى ما يجاوز الحد .

وإيماننا بالأنبياء إيمان إجمالي بمعنى أننا نؤمن بنبوتهم وبما أنزل عليهم من حيث الجملة، إذ لم يبق مما جاءت به الرسل إلا الشيء القليل مما خالطته إملاءات البشر وما عبثت به أيديهم.

أما إيماننا بمحمد ρ فإنه إيمان مقرون بشرط العمل بما جاء به تفصيلاً.

فإن الشريعة التي نزلت عليه ناسخة خاتمة مشتملة لتعاليم الأنبياء السابقة قبل وقوع هذا التحريف والعبث. قال تعالى {مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ} (الأحزاب 40).

(نواقض الإسلام)

الشرك ومظاهره

الشرك: أن يجعل المرء لله شريكاً فيما هو من خالص حقه سبحانه وتعلى من صنم أو شجر أو قبور وأضرحة ونحوه أو دعاء الأنبياء أو الأولياء. وهذا هو الشرك الأكبر الذي لا يقبل الله معه عملاً صالحاً.

والشرك: أعظم ذنب يرتكبه العبد، أعظم من الزنا والقمار وغيره من الذنوب. وهو محبط للعمل، موجب للخلود في النار. لا يقبل الله معه مغفرة بحال إلا بعد التوبة منه. والعودة عنه إلى التوحيد. قال تعالى:

{إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء} (النساء 116).

وقال {إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ} (المائدة 72).

وقال مخاطباً نبيه ρ {وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} (الزمر 65).

أقسام الشرك

وينقسم الشرك إلى: شرك أكبر وشرك أصغر.

ومثال الشرك الأكبر: اتخاذ الشفعاء عند الله ينادون الأموات ويتضرعون إليهم في قضاء حوائجهم، ويسمون ذلك توسلاً بهم إلى الله. كما قال تعالى {أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاء قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ ، قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً} (الزمر 43).

وكثيراً ما يؤله البشر بعض أبناء جنسهم من مصلحين وأبطال وقديسين (حسب التعبير النصراني) أو أولياء (حسب التعبير في الإسلام).

بل إن شرك القبور كان أصل الانحراف عن جادة التوحيد حين اتخذ قوم نوح من قبور الصالحين مساجد وبنوا عليها التصاوير.

وهذا النوع من الشرك هو الذي كان عليه المشركون في مكة قبل الإسلام، إذ كانوا يدعون الأموات من الصالحين يصورون هيئاتهم ويطلبون منهم الشفاعة والقربى إلى الله. مع أنهم كانوا يعلمون تمام العلم أنهم لا يخلقون ولا يرزقون، وأن الخالق الرازق هو الله وحده كما قال تعالى {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ}.

وأنكر الله عليهم هذا الانحراف إذ جعلوا بينه وبين خلقه وسائط كالملوك الذين لا يمكن الوصول إليهم إلا بوسطاء {إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} (الأعراف 194).

والشرك على أنواع

1) شرك في الربوبية وهو أعطاء غير الله صفات هي من خصائصه وحده: كالتحريم والتحليل. قال تعالى {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ}. وقال {وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً}.

وقد وقع اليهود والنصارى في هذا الشرك قال تعالى {اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ} (التوبة 31). وروي أن سبب اتخاذهم أرباباً أنهم كانوا يحلون لهم الحرام فيحلونه، ويحرمون عليهم الحلال فيحرمونه فاتبعوهم.

والله {لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ} وليس الخلق فقط. فمن بدل ما أحله إلى حرام أو العكس فقد زعم أن له الأمر مع الله.

2) شرك في الألوهية كالتوجه بالصلاة أو الدعاء أو الذبح والنذر إلى غير الله {قُلِ ادْعُواْ الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً}. {إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ}.

3) شرك في الأسماء والصفات وهو إعطاء صفات الألوهية الخاصة بالله لآخرين من المخلوقين ومساواتهم بها بما يسمى تمثيلاً. وقد أخبر الله عن هذا الصنف أنهم يخاطبون يوم القيامة من جعلوهم شركاء مع الله، والحسرة والندم يملأ قلوبهم {تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ، إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ} (الشعراء 98).

والشرك منه الخفي ومنه الجلي ومنه الشرك الاعتقادي ومنه الشرك في الأفعال ومنه الشرك في الأقوال. ولذلك قسمه العلماء إلى:

الشرك الأكبر وهذا شرك مخرج من الدين بالكلية. مثل أن يجعل لله نداً في العبادة والذبح والنذر والدعاء. وهو الشرك الاعتقادي الذي يكون عادة بالقلب.

شرك الدعاء لغير الله

ـ ومن صور الشرك الأكبر دعاء غير الله أو التوجه بالدعاء له من أجل قضاء الحوائج وكشف الكربات ودفع الأمراض فيما لا يقدر عليه إلا الله وقال {إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} (الأعراف 194).

ولقد قال النبي ρ "الدعاء هو العبادة"[1] ثم تلا قوله تعالى {ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ} (غافر 60) وأمر بدعاء الله وحده قائلاً[2] "ادع إلى ربك الذي إن مسك ضر كشفه عنك". فمن صرف الدعاء إلى غير خالقه فقد صرف العبادة إلى غير خالقه.

---

(1) رواه أبو داود (1479) بسند صحيح .

(2) صححه الألباني : في صحيح الجامع (243) .

وقال ρ "إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء: لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء: لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك"[3].

ـ ومن صور الشرك الأكبر الاستعاذة بغير الله قال تعالى {وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ} (فصلت 36) وقال {وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا} (الجن 6) وهذا اعتراف من الجن بأنهم كانوا يزيدون المستعيذين بهم من الإنس تخويفاً.

وفي الحديث [4]"من نزل منزلاً فقال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم يضره شيء حتى يرحل من منزله".

ـ ومن صور الشرك الأكبر التبرك بالأحجار والأشجار والتعلق بجدران وتراب قبور الصالحين.

وقد كان للكفار شجرة يعلقون عليها سيوفيهم يظنون أنها تزيدها قوة، فقال أصحاب النبي ρ "اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال: قلتم والذي نفسي بيده كما قال بنو إسرائيل لموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة"[1]. فاعتبر التبرك بالشجر والجماد والحجر تأليهاً لها.

ـ ومن صور الشرك بناء القبور ورفعها واتخاذها مساجد ودعاء الأموات عندها. قال علي لأبي الهياج الأسدي "ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله: ألا تدع صورة إلا طمستها، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته بالأرض"[2].

وقد لعن رسول الله ρ اليهود والنصارى[3] لاتخاذهم قبور أنبيائهم مساجد فقال[4] "أولئك كانوا إذا مات فيهم الرجل الصالح: بنوا على قبره مسجداً، ثم صوروا تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة".

ـ ومن صور الشرك الذبح والنذر لغير الله: وهذا شرك عظيم وشائع. قال تعالى {قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}. وقال {يُوفُونَ بِالنَّذْرِ} يعني إذا نذروا شيئاً لأن النذر واجب الوفاء. فإنه حق الله تعالى، ولذلك لا يعدل عن صاحب الحق إلى آخر.

---

(3) رواه أحمد في المسند 293:1 والترمذي (2518) .
(4) مسلم 31:17 والموطأ 978:2 .
(1) رواه الترمذي 27:9 وأحمد 218:5 بسند صحيح .
(2) رواه مسلم (969) وأبو داود (2318) .
(3) رواه البخاري 200:3 ومسلم 12:5 .
(4) أخرجه البخاري 208:3 ومسلم 11:5 .

لا خالق ولا مشرّع إلا الله

ومن أوجه الشرك اتخاذ مشرع غير الله، والتحاكم إلى غير حكمه، يحل لهم ما حرمه الله ويحرم عليهم ما أحله الله.

وكما أن لله ملك السماوات والأرض وما فيهن من ملائكة وجن وأنس: فكذلك خلق أحكاماً وشرائع هي حق له وحده دون سواه. فمن تحاكم إلى الأحكام الوضعية وترك الله لم يزل مشركاً وإن اعتقد أن الله وحده خالق السماوات والأرض. لأن الله له الخلق والأمر أي الحكم. فإنه قال {لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ} (المائدة 40) لكنه قال أيضاً {لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} (القصص 70).

* ولذا وصف الله بني إسرائيل بأنهم {اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ} وذلك لما أطاعوهم في تحريم ما أحل الله، وتحليل ما حرم الله.

وقد قال تعالى {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ} (الشورى 21) وقال {وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ} (المائدة 44).

ـ ومن صور الشرك الذبح وتقديم القرابين والنذور لغير الله قال ρ "لعن الله من ذبح لغير الله"[1].

ـ ومن صور الشرك كون الخوف والخشية لغير الله مثل خشية الله أو أشد خشية. قال تعالى {أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤُمِنِينَ} (التوبة 13). وقال {فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} (آل عمران 175). وقال {فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً} (النساء 77).

ـ ومن صور الشرك الرجاء فيما عند غير الله. وإنما يجب أن يتعلق قلب العبد رجاء وطمعاً بالله: بفضله ورحمته. وأن ييأس مما عند غيره. وقد نهى الله المؤمنين عن الضعف أمام المشركين في مقاتلتهم فقال {وَلاَ تَهِنُواْ فِي ابْتِغَاء الْقَوْمِ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللّهِ مَا لاَ يَرْجُونَ} (النساء 104).

---

[1] رواه مسلم رقم (1567) .

الشرك الأصغر

الشرك الأصغر إشراك غير الله مع الله في التوجه بالعمل مثل الرياء.

وقد وصف النبي ρ حالة من حالات الشرك الأصغر وهو "أن يُزيّن الرجل صلاته لِما يرى من نظر الرجل إليه". وهو المعبّر عنه بـ:

الشرك الخفي ولا يجوز الاستهانة بهذا الشرك مهما كان صغيراً فإنه لو كان شأنه هيناً لما خافه ρ على أمته أكثر مما يخافه علينا من المسيح الدجال. فعن أبي سعيد الخدري قال: خرج علينا رسول الله ρ ونحن نتذاكر المسيح الدجال، فقال: ألا أخبركم بما هو أخوَفُ عليكم عندي من المسيح الدجال؟ قلنا: بلى يا رسول الله! قال: الشرك الخفي: أن يقوم الرجل فيزيد صلاته لِمَا يرى من نظر رجل"[1] أي لِمَا يلحظ من مراقبة الرجل بجانبه بينما لا يستشعر رقابة الله عليه.

فالشرك الخفي وسيلة إلى الشرك الجلي.
والشرك الأصغر وسيلة إلى الشرك الأكبر.

ـ **ومن صور الشرك الأصغر** الرياء والتصنع للناس ابتغاء كسب قلوبهم بالعمل الصالح يقول تعالى " أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه "[2].

وهذا الرياء إذا اختلط بالعمل الصالح فإنه ينقص ثوابه بحسب نسبة الرياء فيه، وذلك إذا كان أصل العمل خالصاً ثم دخل فيه الرياء. وقد يبطل كله إذا أراد به غير وجه الله من الأصل.

ـ **ومن صور الشرك** تصديق الدجالين والكهان والعرافين واعتقاد أنهم يعلمون الغيب قال ρ " من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بما يقوله فقد كفر بما نزل على محمد"[3].

ومن ذلك تصديق أن أحوال العباد وأرزاقهم تحدد بحسب النجوم والأبراج فمن كان من برج الحوت فإنه يقبل على قراءة ما كتبوا عن برجه في الجرائد والمجلات، فإذا قالوا تترقب مفاجأة: صدق بقولهم وانتظرها بفارغ الصبر، وإن أنذروه حادث سيارة قعد في بيته ظناً منه أنه بذلك يجتنبه. وإن بشروه ببشرى مالية: أنفق ما في الجيب وقعد ينتظر ما في الغيب. فهذا من الشرك فماذا تفعل النجوم والأبراج بشيء قدّره الله تعالى عنده قبل أن يخلقها؟

ـ **ومن صور الشرك** الحلف بغير الله، قال رسول الله ρ من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك[1].

ومن الشرك الأصغر ما يجري على ألسنة بعض الناس من الأخطاء اللفظية الشائعة بينهم منها:

---

[1] رواه ابن ماجة بسند حسن .
[2] رواه مسلم 18 : 115 وابن ماجه (3387) .
[3] رواه أحمد 2: 429 والحاكم وصححه على شرط الشيخين .
[1] رواه الترمذي 7: 18 وأحمد 2: 34 وصححه الألباني في الإرواء (2561).

ـ اتخاذ الأنداد مع الله وقد قيل لرسول الله ρ ما شاء الله وشئت فقال: أجعلتني لله نداً؟ قل ما شاء الله وحده"(3).

ـ وقال ابن عباس "إن الناس يشركون، يقولون لولا الكلاب لأتانا اللصوص" وكأن الناس ينسون بذلك أن الله هو الذي لم يشأ إتيان اللصوص. وأنه لو شاء لسلطهم وأمكنهم من التخلص من الكلاب. فالأسباب لا تستقل بذاتها بمعزل عن المسبب لها وهو الله.

(3) رواه أحمد 1: 214 والبخاري في الأدب المفرد 783 وسنده صحيح.

أولياء الله

التوسل إلى الله بالأولياء
من هم أولياء الله؟ ومن أفضلهم؟
وما علاماتهم وكيف نعرفهم؟
وهل نشهد لهم بأنهم أولياء الله؟
وكيف ننال ولاية الله؟

* **تعريف الولي:** أصل الولاية معناها المحبة والقرب. وهي ضد العداوة التي معناها البغض والبعد.

* وولي الله من كان بالصفة التي وصفه الله بها، وهو الذي آمن واتقى كما قال تعالى {أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ، الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ} فشرط الولاية الإيمان والتقوى.

وأن مسألة (الولاية والولي) قد فيها كثر اللبس والانحراف في هذه المسألة بين الناس وساعد على ذلك المتصوفة الذين جعلوا من قضية الولاية ركن طريقتهم مثلما جعل الشيعة من (الإمامة) ركن طريقتهم. وقال كلا الفريقين بعصمة الولي والإمام، وكان مبدأ الغلو قاسماً مشتركاً بينهما.

وقد دخل الصوفية من خلال موضوع الولي على عامة الناس فأحدثوا بينهم فساداً من التصور والاعتقاد حتى صاروا يصدقون بكل من قيل فيه إنه ولي وإن رأوا فيه ما يخالف الولاية. إذ زينوا لهم أن للولي أحوالاً قد تكون في ظاهرها مخالفة للشرع لكن باطنها وحقيقتها لا تخالفه.

ومن ثم ظنوا أن الولي صاحب المقام الوسيط بينهم وبين ربهم يسألون الله به بل ربما سألوه ما لا يجوز التوجه به إلا لله وحده. وطمأنتهم أهواؤهم إلى أنهم ما داموا يعتقدون أن الله هو الخالق وحده وأن عبادة الأصنام شرك وما داموا لا يسجدون للقبور وإنما يلجئون إليها طلباً للشفاعة لهم عند الله فإنهم بعيدون عن الشرك. وغاب عنهم أن المشركين الأوائل ما كانوا يعتقدون بخالق آخر مع الله وإنما كانوا يسألون التصاوير التي بنوها على شكل الصالحين ليحصلوا بها على التقرب من الله. وقد سجل القرآن هذه الحقيقة فقال {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى} [الزمر 3].

تعظيم القبور والغلو في الصالحين

أصل سبب الجاهلية الأولى

وهكذا وقع كثيرون في هذا الفخ الشيطاني لجهلهم بأول شرك تلبس فيه بنو أدم.
قال ابن عباس في تفسير هذه الآية {وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا} [نوح 23] "هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح عليه السلام فلما ماتوا بنَوا لهم الصور والتماثيل.

وفي تفسير ابن جرير الطبري "أن يغوث ويعوق ونسراً كانوا قوماً صالحين من بني آدم، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم: لو صوّرنا صُوَرهم كان أشوقَ لنا إلى العبادة، فصوّروهم: فلما ماتوا، وجاء آخرين: دبّ إليهم إبليس فقال: إنما كانوا يعبدونهم، وبهم يُسقَون المطر، فعبدوهم[1].

فمن هنا تعلم أن أصل فتن الشرك كانت في القبور، يفتن الشيطان بها الناس ويوحي إليهم بتعظيمها، والنفور ممن ينهى عن هذا الشرك واتهامه بأنه ينتقص من مقامات الصالحين. وهذا فساد في التوحيد وعودة إلى الجاهلية التي أنزل الله القرآن لإبطالها، وما علينا سوى تأمل هذه الآيات:
{إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} (الأعراف 164).

{إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ} (فاطر 14).

{وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ} (الأحقاف 5).

{وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا أَنفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ} (الأعراف 197).

---

[1] تفسير الطبري مجلد 12 ج29 ص62 .

القول الحق في مسألة التوسل

التوسل معناه اتخاذ سبب يزيد العبد قربة من الله. قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ} (المائدة 35) أي تقربوا إليه بما يرضيه من العمل الصالح. هكذا فسرها ابن عباس وغيره من الصحابة. غير أن أناساً لا يزالون يطلقون كلمة التوسل ويقصون بها معنى آخر هو عندهم الاستغاثة بغير الله واللجوء في الدعاء لقضاء الحاجة ودفع المصيبة إلى غير الله. فعاد مفهوم الجاهلية القديم يسري بينهم بحجة {إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى}.

هؤلاء يفسدون اعتقاد الناس وسلوكهم. من حيث أنهم لا يربطونهم بالعمل الذي خلقهم الله من أجله كما قال {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً}. ولكنهم يربطونهم بذوات الأنبياء والصالحين ويعلقون نجاتهم بصلاح الآخرين وقربهم عند ربهم، فالسارق يسرق والزانية تزني والمدمن يشرب الخمرة ويأتي هؤلاء إلى ضريح الصالح الفلاني ويلقون شيئاً من المال بنية قضاء المصلحة ومغفرة الذنب فيتحقق الأمر وتنتهي المشكلة.

فنتج عن ذلك خروج أجيال معرضة عن الدين تكتفي بزيارة ضريح الولي الصالح في نهاية الأسبوع أو الشهر أو السنة ليتوسط لهم عند الله بمغفرة ما كان منهم في الماضي ويبكون قليلاً لحصول الخشوع عند الضريح بما لا يحصل منهم وهم في صلواتهم – إن كانوا يصلون – ومن ثم يعودون إلى حياة الإعراض وعمل السيئات وهكذا يستندون في طلب النجاة إلى أشخاص بدلاً من العمل الذي خلقهم الله من أجله. وهذا ما زاد الناس ابتعاداً عن الدين وانغماساً في المعاصي والفسوق.

ولهذا فإن الانحراف في مفهوم (الأولياء) بين المسلمين يضاهئ انحراف النصارى في مفهوم (القديسين). واتخاذ قبور الأولياء والصالحين مساجد يضاهئ اتخاذ اليهود والنصارى قبور القديسين أديرة وصوامع: قال رسول الله ρ "لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم وصلحائهم مساجد" (متفق عليه).

أنواع التوسل المشروع

لقد فطر الله الإنسان على جلب النفع فهو يتخذ لجلبه كل وسيلة، ويدفع لدفع الضرر عنه كل وسيلة، فإذا مرض ولدك ودعوت له الطبيب ففحص عن المرض ووصف له الدواء كان هذا توسلاً مشروعاً[1].

ولكن إذا جئت إلى طبيب ميت ودعوته عند قبره ليشفي ولدك أو استعنت بدجال أو كاهن يدّعي الشفاء وهو جاهل بالدواء ومخالف للشرع ويعتمد أخاديع شيطانية فهذا غير مشروع. وتوسلك إلى الشفاء بسقي المريض الدواء الذي وصفه له الطبيب أمر مشروع. ولكن إن أخذت الوصفة وعلقتها (حجاباً) على صدر المريض واعتقدت أن ذلك يشفيه كنت مخطئاً.

ومن هنا كان التوسل المشروع هو الآتي:

1) التوسل إلى الله بأسمائه الحسنى. قال تعالى {وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا} (الأعراف 180) كأن يقول: اللهم إني أسألك بأسمائك الحسنى أن تغفر لي ذنوبي.

2) التوسل إلى الله بأعظم أسمائه الحسنى كما في حديث بريدة أن رجلاً جعل يدعو والنبي ρ يستمع إلى دعائه فكان يقول " اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله، لا إله إلا أنت، الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد (أن تغفر لي ذنوبي) فقال النبي ρ " والذي نفسي بيده، لقد سأل الله باسمه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى"[2].

3) التوسل إلى الله بالإيمان والعمل الصالح: ودليله قصة الثلاثة نفر من بني إسرائيل[3] الذين انطبقت عليهم الصخرة في الغار وحالت دون خروجهم فجعلوا يذكرون أحسن أعمالهم وسألوا الله بها أن يفرج عنهم الصخرة ففرجها عنهم.

* ومثال التوسل بالإيمان ما نجده في قوله تعالى {رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} (آل عمران 16).

فيجوز للعبد أن يتوسل بإيمانه بالله ورسوله أن يغفر له الخ. فالإيمان بالله ورسوله من أحب العمل إلى الله. كما روي أن رجلاً سأل رسول الله: أي العمل أفضل؟ فقال "إيمان بالله ورسوله"[1].

وهذه الأنواع من التوسل أجمعت الأمة على مشروعيتها.

* وقد شرع الله لنا من التوسل المشروع ما يغنينا عن غيره مما لا دليل صحيحاً على مشروعيته أو دليله ضعيف السند. والضعيف لا ينهض للاحتجاج. فليس من الحكمة

---

(1) تعريف عام بدين الإسلام 82 بتصرف .
(2) رواه الترمذي رقم (3471) وأبو داود (1493) .
(3) رواه البخاري .
(1) متفق عليه.

أن يشغلها الجدال حول أنواع التوسل غير المشروع ولا الثابت — عن التوسل المشروع الثابت من الكتاب والسنة؛ كالتوسل إلى الله بأسمائه وصفاته. والتوسل بالإيمان والعمل الصالح.

كرامات الأولياء

وقد لجأ الشيطان وأعوانه إلى فخ آخر وهو موضوع الكرامة وهو أن يعمل عملاً ما على يد شخص أو يظهر به في صورة شخص مما لا يستطيع البشر عادة عمله فيحكم الناس بأن هذه كرامة[1] وهي بالتالي دليل عندهم على ولاية وصلاح هذا الشخص.

وربما وقعت لشخص كرامة عند الله ولكن لا يجوز أن تكون الكرامة حجة يجوز معها سؤال غير الله. فقد قال أفضل الناس كرامة عند الله وهو نبينا ρ "إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله".

ومن هنا حذر أهل العلم من هذا الفخ حتى رووا عن الشافعي رضي الله عنه أنه قال " لو نظرتم إلى رجل يطير في الهواء أو يمشي على الماء فلا تغتروا به حتى تعلموا متابعته للسنة وحفظه للحدود وأداءه للشريعة ".

وأكّد أهل العلم على أن التوفيق لاتباع السنة واجتناب البدعة والتّوفيق على الإخلاص في العبادة من أعظم الكرامات، ولذلك قيل " ما ثم كرامة أعظم من كرامة الإيمان ومتابعة السنة. فمن أُعطِيَهَا وجعل يشتاق إلى غيرها فهو مغرور كذاب ".

ولم يكن أحد من سلف هذه الأمة (أعني الصحابة والتابعين) يُظهر كرامته ويستعرضها أمام العامة من الناس على النحو الذي يفعله اليوم بعض أدعياء الكرامة الذين شوهوا حقيقة الكرامة والذين كان أحرى بهم أن يستعملوا هذه الكرامات (إن كانت كذلك) ضد أعداء المسلمين مع أن الواقع يشهد بابتعادهم عن ميادين واقع المسلمين.

أما أن تكون الكرامات بين العامة كضرب الأسياخ في بطونهم مما يفعله المشعوذون والسحرة أو ادعاء الاطلاع على الغيب مما يفعل مثله الكهان والدجالون فهذه ليست كرامات وإنما خرافات وتعامل مع الشياطين.

فإن من هؤلاء من يحدّث عن شيطان وهو يظنه ملكاً يأتيه بعلوم الغيب ويكون في الحقيقة شيطاناً كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه "إن الشيطان ليتمثل في صورة الرجل فيأتي القوم فيحدثهم بالحديث من الكذب فيتفرقون فيقول الرجل منهم: سمعت رجلاً أعرف وجهه ولا أدري ما اسمه يحدث"[1].

وقد أنكر المعتزلة كرامات الأولياء جملة وتفصيلاً كردّ فعل مفرط في مقابل المبالغات الصوفية في رواية الكرامات العجيبة. وقد كان بإمكانهم معالجة إفراط المتصوفة بطريقة لا تؤدي إلى تفريط من جانب آخر.

ثم جاء قوم بعد المعتزلة فوافقوا أهل السنة في إثبات الكرامة لكنهم لم يفرّقوا بينها وبين المعجزة من جهة وبينها وبين السحر من جهة أخرى إلا بتفريقات ضعيفة أدّت إلى انحرافات من نوع آخر[2].

---

[1] الكرامة هي الأمر الخارق للعادة يظهر على يد عبد صالح .

[1] رواه مسلم 7 .

[2] لمزيد من التفاصيل راجع كتابي (أولياء الله بين المفهوم الصوفي وبين المنهج السني) ص 188 .

ولا شك أن معجزات الأنبياء كانشقاق القمر وانقلاب العصا حية: أعظم من كرامات الأولياء لأن لهم (الآيات الكبرى) وأن الصالحين الأولياء لهم (الآيات الصغرى) التي هي تصديق لنبوة الأنبياء. فلا تبلغ كرامات أحد قط مثل معجزات المرسلين.

لماذا تكون الكرامة

ويجدر معرفة السبب الذي تحصل من أجله الكرامة وأنها ليست مما يقدر على فعله أدعياء الولاية متى ما رغبوا. وإنما للكرامة غاية سامية شريفة مهمة يحصل بها نصرة الدين وإقامة السنة وتأييد ما جاء به النبي يجريها الله على يد عبد صالح متبع للسنة غير مبتدع.

مثال ذلك ما حدث لأبي مسلم الخولاني الذي قال له الأسود العنسي[1] "أتشهد أني رسول الله؟ فقال: ما أسمع، قال أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم. فألقاه في النار فصارت النار عليه برداً وسلاماً.

فهذه كرامة نفع الله بها المسلمين وكان لها أثر في واقعهم إذ دحضت دعوى الأسود العنسي للنبوة. وأثبتت أن محمداً ρ خاتم النبيين. إنها نموذج حقيقي للكرامة وتأكيد لولاية أبي مسلم الخولاني لله الذي وقف بثبات أمام طاغية مشرك أراد بادعائه النبوة مناقضة القرآن والسنة وصرف الناس عن دين الله إلى الكفر والشرك.

فأين هذا مما يفعله الدجاجلة الذين يدعون الولاية ويفعلون أموراً يفعل مثلها الدجالون والوثنيون ومتحايلو السيرك وعلى الساحات العامة أمام عوام الناس. وتقتصر كراماتهم على إدخال الشيش واللعب بالنار والأفاعي.

إن كان للواحد من هؤلاء كرامة فليُرِنا آثار كرامته بوجه أعداء المسلمين الذي ملئوا الأرض وأذلوا المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها:

إن كانوا يعلمون الغيب فليكشفوا لنا ما خفي على المسلمين من مخططات عدوهم ومكره. وإن كان بمقدورهم التلاعب بالنيران فليجابهوا نيران أعداء المسلمين.

فإن لم يفعلوا بل داهنوا عدو المسلمين وركنوا إليه ففعلهم ليس كرامة وإنما هو خداع وتخييل. بل تكون هذه الخرافات سبباً في انحراف مفاهيم المسلمين وتضليلهم عن طريق نشر الخرافة وجعلهم يعتقدون في الأولياء التصرف في الأكوان وكشف الغيوب.

---

[1] انظر البداية والنهاية 6: 267 – 269 .

الشــهـادة بالولايـة

أمـا الـشهادة لـشخص مـا بأنـه ولـي لله تعـالى فإننـا نـشهد لمـن شـهد لهـم النبـي ρ كالعشرة المبشرين بالجنة وأصحاب البيعة الذين بايعوا النبي ρ والمهاجرين والأنصار.
ولا يجوز لأحد أن يقول بعد ذلك مـا لا يعلم. فـإن الله نهانـا عن أن نزكـي أنفسنا فقال {فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى} (النجم 32) مع أننـا أعلم بأنفسنا من غيرنـا، فكيف نزكـي غيرنـا ونـزعم أنـه مكرم عند الله وأنـه مـن خُلّص أوليائـه ونبـالغ فـي مدحـه وإطرائه بلا علم!.

فإن قال قائل: فلان من أولياء الله، فقل له: هل تقول إنه من أهل الجنـة؟ فـإن قـال: نعم، فهو كاذب بلا ريب. وإن قال: أرجو أن يكون من أهل الجنة فقل له: فأولى بك حينئذ أن تقول كذلك: أرجو أن يكون من أولياء الله. ثم اتّق الله ولا تقل علـى الله مـا لا تعلـم فقد أمرك الله أن لا تزكـي نفسك فقـال {فـلا تُزَكّـوا أنفسكم هـو أعلـم بمـن اتقـى} (الـنجم 32) فكيف تزكي غيرك؟!

ولقد دخل النبي ρ على عثمان بن مظعون وهو ميت فقالت أم العلاء الأنـصارية "شهادتي عليك أبا السائب أن الله سيكرمك. فقـال لهـا النبـي ρ ومـا يـدريك أن الله أكرمـه؟ قالت: لا والله لا أدري، فقال لها: أما هو فقد أتـاه اليقين مـن ربـه، وإنـي لأرجـو لـه الخيـر. والله ما أدري وأنا رسول الله ما يُفعَلُ بي ولا بكم. قالت: فوالله لا أزكي بعده أحداً أبداً"[1].

ورأى الصحابة رجلاً من المسلمين يقاتل المشركين بشجاعة فائقة حتـى أعمل فيهم القتل فأعجب الصحابة بشجاعته وأثنوا عليه خيراً فقـال النبـي ρ "إن هذا مـن أهل النـار" فتعجب الصحابة لذلك حتى قالوا: أيّنـا مـن أهل الجنـة إن كـان هذا من أهل النـار؟ فتبعه رجل من الصحابة فوجده قد جُرِحَ فاستعجل الموت ووضـع نـصاب سيفه بـالأرض وذبابته بين ثدييه ثم تحامل عليه فقتل نفسه فجاء الرجل إلـى النبـي ρ وقـال: أشـهد أنـك رسول الله. قال ρ : وما ذاك؟ فأخبره بخبر المنتحر. فقال النبي ρ إن الرجل ليعمـل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وإنه من أهل النار، ويعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة"[1].

ومـات رجـل آخـر فـي غـزوة فقـال الـصحابة هنيئـاً لـه الـشهادة فقـال رسـول الله ρ "كلا؛ والذي نفسي بيده إن الشملة التي أخذها من المغانم لم تصبها المقاسم لتشتعل عليـه نـاراً"[2].
فها قد رأيت الأمر التبس علـى الـصحابة حتـى ظنـوا ولايـة رجلين حكم عليهمـا النبي ρ بأنهما من أصحاب النار. مع أن الصحابة أعظم أولياء الله بعد الأنبياء. لكنهم بشر لا يعلمون الغيب، فقد يبدو الرجل في ظاهره ولياً ويكون في الباطن فاسد النية، ولـهذا قـال النبي ρ "إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وإنه من أهل النار".

---

(1) أخرجه البخاري 1243 في الجنائز .
(1) رواه البخاري 6606 .
(2) رواه البخاري 6707 .

ولما أثنى بعضهم على أبي بكر قال "اللهم لا تؤاخذني بما يقولون، واجعلني خيراً مما يظنون، واغفر لي ما لا يعلمون".

هذا هو المنهج الإسلامي الذي صُرف عنه كثيرون واستغل جماعة من أهل البدع والخرافة جهل الناس حتى استدرجوهم إلى كل بدعة وشرك. وأفهموهم أن الولي صاحب اللحية البيضاء والعباءة السوداء، يتمتم بالأوراد ويلتف بالسبحة والناس يقبلون يديه ورجليه. ويأخذون عنه طرق البدع.

وما اتخذ الله ولياً جاهلاً مبتدعاً في الدين، وإنما أولياؤه الموافقون لكتابه وسنة نبيه ρ .

بينما يستبعدون في نفس الوقت ولاية من لا يأبهون له، ويكون عند الله ولياً وهو من عامة الناس، ربما كان نجاراً أو خبازاً أو زبالاً. ويستحق صفة الولي دون الآخرين الذين ينكب الناس على أيديهم وأرجلهم لتقبيلها.

ولذلك قال ρ "رُبَّ أشعث أغبر مدفوع بالأبواب (لا يؤبَه له) :لو أقسم على الله لأبرَّه"[3]. ومعنى الحديث: أن من الناس من يكون جعد الشعر مغبر الجسد لا قيمة له عند الناس، وربما طردوه من أبواب بيوتهم لحقارته عندهم: ويكون عند الله من أوليائه وأحبابه، بل لو حلف على الله بشيء لأجابه الله إليه إكراماً له:

ولأن الميزان عند الله يختلف عن الموازين التي بها يكيل الناس. فقد يكون الغني المترف ثقيلاً في موازين البشر، حقيراً عند الله لا يساوي في ميزان الله شيئاً. إذ الميزان عندهم بحسب ما عنده من ذهب وفضة وبحسب لونه وجنسه. وأما عند الله فبحسب ما عنده من إيمان وتقوى {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ}.

فباب الولاية مفتوح لعامة الناس وليس حكراً على مشايخ الطرق كما عند الصوفية، وليس حكراً على الأئمة كما عند الشيعة، وليس حكراً على القديسين كما عند النصارى.

والدليل على ذلك حديث الرجل الذي طلب من النبي ρ أن يخبره عما افترضه الله عليه فقال له "وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتحجّ البيت إن استطعت" فقال الرجل: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص منه. فقال النبي ρ "أفلح (ودخل الجنة) إن صدق"[1]. وهل يدخل الجنة إلا أولياء الله؟!

أفضل الأولياء

وأفضل أولياء الله الأنبياء. وأفضل الأنبياء الرسل منهم.

وأفضل الرسل خمسة هم (أولو العزم) وأفضل الخمسة نبينا محمد ρ .

ويلي الأنبياء أصحاب نبينا ρ .

---

[3] رواه مسلم 2622 .

[1] رواه البخاري 6953 .

وأفضل أصحابه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم من العشرة المبشرين بالجنة.

وأهل العلم من هذه الأمة هم أفضل أوليائهم فإن الله لم يتخذ ولياً جاهلاً. فإن الولي إذا ازداد معرفة بشرع الله ازداد عمله به، وازداد انتفاع الناس بعلمه وعرفوا الحلال والحرام به.

اجتماع الولاية والعداوة

وولاية الله تزيد وتنقص مثلما يزيد الإيمان وينقص. فتارة تزداد محبة الله له وتارة تنقص بحسب حسناته وسيئاته. فمن كان أكمل إيماناً وتقوى كان أكمل ولاية لله.

وقد يقع الولي في بعض الذنوب والأخطاء والمعاصي وهذا لا يلغي ولايته فيكره الله ما كان منه من المعاصي ويحب منه ما بقي من ولايته.

ولذلك تجد في الناس من يجتمع فيه إسلام وشرك من رياء ونحوه أو يجتمع فيه إيمان ونفاق أو إسلام وفسق.

فلا يقتضي وجود الفسق ذهاب الإيمان.

هل يجوز لإنسان أن يقول أنا ولي؟

وهذا فيه تفصيل:

الأول: إن كان يقصد بذلك أنه يتولى الله والرسولَ والذين آمنوا وأنه من جند الله وحزبه، فهذا ما لا يجوز الشّكّ به بل يجب على المسلم أن يفخر بأنه كذلك.

الثاني: إن كان يقصد به أنه محبوب ومرضي عند الله وأنه من أهل التقوى فهذا لا يجوز الحكم به لأن الله أعلم بمن اتّقى {فلا تزكّوا أنفسكم هو أعلم بمن اتّقى}.

الشـفاعـة

الشفاعة من المسائل التي ضلّ في فهمها كثيرون وخلط فيها المشركون الحق بالباطل حتى اتخذوا من دون شفعاء زعموا التقرب بهم إلى الله، ثم ما لبثوا أن اتخذوهم آلهة من دون الله. واستدرجهم الشيطان بهذه الذريعة إلى الشرك. قال تعالى {وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ} (يونس 18). فالشفاعة فضل من الله وإظهار لشرف خواص عباده بين سائر الخلق يوم القيامة يمنحها. ولكن من يشاء هو وحده.

شـروط الشـفـاعـة

وللشفاعة شرطان أساسيان:

الأول: أن يأذن الله للشافع أن يشفع. قال تعالى {مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ} (البقرة 255).

الثاني: أن يرضى الله عن المشفوع له كما قال تعالى {وَلا يَشْفَعُونَ إلا لِمَنِ ارْتَضَى} (الأنبياء 28) وقد جمع كلا الشرطين في قوله {وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى} (النجم 26).

الشفاعة المشروعة والشفاعة المرفوضة

إذا نظرنا في الآيات التي ذكرت حال المشركين والأسباب التي أدّت بهم إلى الشرك نجد أنها كانت تدور حول ثلاث مسائل:

1- دعاؤهم للشفعاء من دون الله {إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} (الأعراف 194).

2- اتخاذهم شفعاء يتقربون بهم إلى الله. قال تعالى {أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاء} {قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا} (الزمر 43) وقال {وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ} (يونس 18). وقال {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى} (الزمر 3).

3- تحليلهم ما حرّم الله وتحريم ما أحلّ. قال تعالى {وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَـذَا حَلاَلٌ وَهَـذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ} (النحل 116) {وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ} (النحل 35).

ـ فطالبهم الله بالدليل على هذه الدعوى الكاذبة قائلاً {قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ} (الأنعام 148).

فالشفاعة منها ما هو مقبول ومنها ما هو مردود:

1- الشفاعة الشرعية المقبولة: وهي التي يطلبها الموحد من ربه مع علمه بشروط الشفاعة على النحو الذي علمنا الله إياه. سواء كانت بشفاعة الله أم بشفاعة غيره كالأنبياء والشهداء والعلماء.

2- الشفاعة الشركية المردودة: وهي التي تطلب من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله. وفيما لم يأذن به الله. كالتي كان يعتقدها المشركون في آلهتهم التي اتخذوها شفعاء، زعموا أنها تشفع لهم عند الله وتقربهم إليه زلفى.

مسائل مهمة في الشفاعة

2 ـ أن الشفاعة لا ينالها من كان مضاداً للتوحيد منغمساً في الشرك والابتداع في الدين. سئل رسول الله ρ "من أسعد الناس بشفاعتك؟ فقال: من قال لا إله إلا الله خالصاً من قبله"[1]. وقال ρ [2] "لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجّل كلٌّ نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً". فجعل أحد أعظم أسباب نيل الشفاعة: تحقيق التوحيد.

أما الذين إذا سألوا: سألوا غير الله، وإذا استعانوا: استعانوا بغير الله ويستغيثون بالأموات من دون الحي الذي لا يموت ويتمسحون بجدران وتراب قبورهم فما أبعدهم عن الشفاعة. فالشفاعة خاصة بأهل الإخلاص والتوحيد لا بأهل الشرك والبدعة والخرافة.

3 ـ أن الشفاعة لله وحده {قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً}.

4 ـ أن أعظم الشفاعة شفاعة ربنا الذي يخرج بشفاعته من النار أضعاف من شفع لهم الأنبياء وغيرهم، حتى إذا شفع الشافعون قال الله "ذهبت شفاعة الشافعين وبقيت شفاعة أرحم الراحمين". وهذا يغفل عنه المشركون الذين يرجون من القبور ما لا يرجون من الحي القيوم.

5 ـ أن الله يأذن بالشفاعة لمن يشاء ويرضى وليس مردّ ذلك إلى الشفعاء. ولذلك أخبر الله أن المشركين {فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ} (المدثر 48).

6 ـ أنه إذا كانت الشفاعة لله وحده فلا يجوز طلبها من غيره كما هي عادة المشركين الذين ظنوا أنه إذا كانت الشفاعة للأنبياء والصالحين أنهم يسألونهم ذلك. فبين الله أنه يجب طلبها أولاً وأخيراً منه، ولهذا قال {قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً} (الزمر 44).

7 ـ أنه ثبت أن الصيام والقرآن والصدقة يشفعون كما قال ρ "القرآن شافع مُشفع"[1]، وكما أنه لا يقال "أيتها الصدقة اشفعي لي عند الله، أيها الصيام اشفع لي" "أيها القرآن: اشفع لي عند الله. فكذلك لا يجوز لك أن تقول: أيها النبي اشفع لي عند الله".

---

[1] رواه البخاري (99) .
[2] رواه البخاري رقم (6304) .
[1] رواه ابن حبان بسند صحيح (انظر صحيح الجامع 4443) .

8 ـ أنه ليس للشافع أن يخص أحداً بشفاعته إلا بإذن الله ورضاه. إذن فلماذا لا نطلبها ممن يملكها ويأذن ويرضى بها وليس من أحد سواه.

والشفاعة على نوعين: شفاعة الخالق وشفاعة المخلوقين:

فأما شفاعة الخالق فتكون بعد انتهاء شفاعات المخلوقين حين يقول الله جل وعلا "ذهبت شفاعة الشفاعين. وبقيت شفاعة أرحم الراحمين".

وأما شفاعة المخلوقين فهي: شفاعة الأنبياء والملائكة والعلماء والشهداء مثلما في الحديث "يشفع الشهيد في سبعين من أهل بيته"[2].

شفاعة محمد ρ

وأعظمها بين شفاعات المخلوقين: شفاعة نبينا محمد ρ . وهي على نوعين:

1) **شفاعة عامة** وتسمى "الشفاعة العظمى، وهي الشفاعة العامة في كل البشر مؤمنهم وكافرهم، أن يعجل الله في نقلهم من مرحلة الموقف إلى مرحلة الحساب. وذلك حين يشتد بهم الكرب، وتدنو الشمس من الخلائق، ويشتد حرّها بهم، فيأتون الأنبياء جميعاً فيقول كل نبي منهم "لست لها" حتى يأتوا محمداً ρ فيقول "أنا لها أنا لها". فيشفع للناس جميعهم في تجاوز ذلك الموقف. وحينئذ يبعثه الله ذلك المقام المحمود الذي يحمده الناس عليه جميعهم (مؤمنهم وكافرهم). فهذه هي الشفاعة العامة التي تنفع المؤمن وغير المؤمن. يؤمئذ يتحسر كل كافر سمع به أو رآه ولم يؤمن به.

2) **شفاعة خاصة** للمؤمنين الموحدين من أمته، قال ρ "لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجّل كلُّ نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة". وقال "شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي"[1].

أنواع الشفاعات والشفعاء

فالشفاعات التي يكرم الله بها نبيه ρ :

1- الشفاعة العامة عند الموقف يوم يحشر الله الناس على صعيد واحد.

2- الشفاعة في قوم استوجبوا دخول النار: ألا يدخلوها.

3- الشفاعة فيمن دخلوا النار أن يخرجوا منها.

4- الشفاعة فيمن خلدوا في النار أن يُخفّف عنهم فيها.

---

[2] رواه أبو داود (2505) وابن حبان (1612) وهو صحيح .

[1] متفق عليه .

5- الشفاعة فيمن تساوت حسناتهم وسيئاتهم بدخول الجنة.

كيفية الفوز بشفاعة النبي ρ

وقد علمنا رسول الله ρ كيف نفوز بشفاعته فقال "إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا علي فإنه من صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا الله لي الوسيلة[2] فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون هو. فمن **سأل** لي الوسيلة: **حلت** له الشفاعة"[3] وقال ρ "من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً كما وعدته: حلت له شفاعتي"[4].

ـ فتأمل نص كلام النبي ρ كيف علمنا أن نسأل الله له لننال شرف شفاعته لا أن نسأله من دون الله كما يفعل بعض المعاندين الذين لا يفقهون سنته ولا يقتفون أثر تعاليمه.

وقد علمنا أيضاً إن أردنا الفوز بشفاعته أن نكثر من الصلاة عليه. فقد روى أبو الدرداء رضي الله عنه أن رسول الله ρ قال "من صلى علي حين يصبح عشراً وحين يمسي عشراً: أدركته شفاعتي يوم القيامة"[1].

---

(2) أي سلوا الله أن يبلغني هذه المنزلة العظيمة في الجنة .
(3) أخرجه مسلم رقم (384) في الصلاة .
(4) رواه البخاري (614).
(1) رواه الطبراني بإسنادين أحدهما جيد. وصححه الألباني في صحيح الترغيب (ص 346).

مبحث الكفر

(نواقض الإيمان)

الكفر

ـ **في اللغة:** هو الستر والتغطية، ومنه قوله تعالى {يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ} (الفتح 29) والكفار في هذه الآية هم الزراع الذين يسترون الحب بالتراب. ووجه استعارة اللفظ من هذه الحالة كون الكافر يستر الحق كما يستر الزارع حبه. ويجحد ما لا عذر له في جحده. كما قال تعالى عن فرعون وقومه {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا} (النمل 14).

ـ **وشرعاً:** هو جحد ما لا يتم الإسلام بدونه أو كماله. وبناء على ذلك فجحد مدلول الشهادتين كفر، وجحد وجوب وتحريم ما علم بالضرورة من دين الإسلام كفر مثل أن يجحد وجوب الصلاة أو تحريم الزنا أو الربا إلا أن يكون حديث عهد بإسلام.

وهو نوعان:

1 ـ **الكفر الأكبر:** وهو جحد ما لا يتم الإسلام بدونه وهو محبط لسائر العمل وموجب للخلود في النار لمن مات عليه ويخرج به الرجل من الإسلام ويحل دمه وماله. وينقسم إلى كفر اعتقادي كأن ينفي أسماء الله وصفاته، أو يشبه الله تعالى بخلقه. وكفر قولي كسب الله تعالى أو دينه أو رسله. وكفر عملي كإلقاء المصاحف في القاذورات كما يفعله الكهنة والعرافون والسحرة يتقربون بذلك إلى شياطينهم.

والكفر الأكبر على خمسة أنواع:

أولاً: كفر التكذيب قال تعالى {فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ} (الأنعام 33) وحكم عليهم بالكفر فقال {بَلِ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ} (الانشقاق 23) ويقال لهم يوم القيامة {أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ} (المؤمنون 105).

ثانياً: كفر إباء واستكبار مع التصديق: وذلك بأن يقرّ بأن ما جاء به الرسول حق لكنه مع ذلك يستكبر تعالياً واحتقاراً وازدراء للحق ولمن جاء به كما قال تعالى {بَلَى قَدْ جَاءتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ} (الزمر 59) وقال {وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ 7 يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} (الجاثية 7) وقال عن فرعون {وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ} (القصص 39) ثم قال {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا} (النمل 14).

ثالثاً: كفر الشك: وقد أخبر الله عن الذين كفروا أنهم {فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ} وأنهم {فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ} وبين لنا أن من أسباب كفرهم أنهم كانوا يقولون {أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا} ثم قال {بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ} (ص 8) وكانوا يقولون لرسلهم {وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ} (هود 62).

رابعاً: كفر الإعراض والتولي: وهو ترك الحق: لا يتعلمه ولا يعمل به، كما قال تعالى {وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ} (الأحقاف 3) {وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ

رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ} (الأنعام 4) وقال {وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ، يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} (الجاثية 8).

* وهناك حالة من حالات الكفر الأكبر تحصل من العبد ومع ذلك فإنه لا يكفر بها:

- كأن يقول شيئاً وهو جاهل به.
- كأن يقول شيئاً في غيبوبته لا يعي ما قال.
- حالة سبق اللسان كأن يقول شيئاً يكرهه ولا يقصده كمن أخطأ من شدة الفرح فقال "اللهم أنت عبدي وأنا ربك"[1].

2 - الكفر الأصغر:

وهو جحد ما لا يتم كمال الإسلام بدونه. وهو يُنقِص العمل، ولا يخرج صاحبه من الإسلام وهو تحت المشيئة الإلهية: إن شاء الله عذبه وإن شاء عفا عنه.

---

[1] مسلم (2747) .

ومن أنواعه

ـ كفر النعمة: قال تعالى عن أهل القرية الظالمة {وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ} (النحل 112) وقال {يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ} (النحل 83) وقال {وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي} (فصلت 50) قال مجاهد في تفسيرها: هو قول الرجل هذا مالي ورثته عن آبائي.

ـ إتيان المرأة في دبرها وإتيان الكهان والعرافين وتصديقهم كما قال ρ "من أتى كاهناً فصدقه بما يقول أو أتى امرأته حائضاً أو أتى امرأته في دبرها، فقد برئ مما أُنزل على محمد"[1].

ـ قتال المسلم للمسلم لقول النبي ρ [2] "سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر".

---

[1] رواه أحمد وأبو داود بإسناد صحيح .

[2] البخاري رقم (6044) ومسلم (64) .

الحكم بغير ما أنزل الله

هل هو كفر أكبر أم أصغر؟

وقد ذكر أهل العلم في هذه المسألة أن الحاكم بغير ما أنزل الله لا يخرج عن أربعة أنواع:

1) من قال أنا أحكم بالقوانين الوضعية لأنها أفضل من الشريعة الإسلامية. فهذا كافر كفراً أكبر.

2) من قال أنا أحكم بهذا لأنه والشريعة الإسلامية سواء بسواء: وهذا كافر كفراً أكبر أيضاً.

3) من قال: أنا أحكم بهذا مع أن الحكم بشريعة الله أفضل لكن الحكم بغير ما أنزل الله جائز لا يجوز تحريمه. فهذا كافر كفراً أكبر.

4) من قال: أنا أحكم بهذا مع اعتقادي أني مذنب لأن الحكم بغير ما أنزل الله حرام. فهذا كافر كفراً أصغر.

على أن ما نراه اليوم من محاولات حثيثة لتنحية دين الله عن الحكم ليس من هذا القبيل وإنما هو من قبيل التشبه بالكفار الغربيين الذين تآمروا على تنحية الدين من الأرض كلها واستصدروا قوانين بديلة زعموا أنها أفضل منه، وكان المشجع لموقفهم هذا: كثرة الأخطاء الفاحشة التي مرت بها كنيستهم، وهم لتعصبهم وكبريائهم لم يتطرقوا إلى احتمال أن يكون دينهم خطأ بل استبقوه شكلياً في زاوية من زوايا حياتهم، وقرروا صرفه عن إدارة شؤونهم السياسية مما زاد في تعاستهم وشقائهم.

ومع ذلك لم يكونوا صادقين في (لادينيتهم) فإن التعصب والتمايز على أساس ديني لا يزال واضحاً فيهم وهو دليل على أن النفس تميل إلى التدين من حيث المبدأ بصرف النظر عن نوع الدين الذي تتمسك به. فقد يكون ديناً صحيحاً وقد يكون وثنية متوارثة من العار التخلي عنها وإن كانت باطلة.

وهذا شيء نقده القرآن {وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إلا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ، قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءكُمْ} (الزخرف 23) {أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ} (البقرة 170) {أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ} (لقمان 21).

ولقد أرادوا من العالم عامة ومن المسلمين خاصة مجاراتهم وتقليدهم في ذلك. فمن تولاهم ورأى في دين الإسلام ما رآه النصارى في دين النصرانية فهو في حكمهم حيث اتخذ من اللادينية ديناً له. وهي ردة جديدة لم يعرفها المسلمون من قبل. وحتى أئمة المسلمين الظلمة الفجرة كانوا يقيمون أحكام الإسلام في مجتمعهم ولم يكن يخطر لأحد يوماً من الأيام أن يأتي يوم على المسلمين من الداخل بتحريض من المراقبين المتخوفين من الخارج.

ولقد كان من الضرورة بمكان التركيز على هذه النقطة حيث أن الأمة حتى في أسوأ أحوالها لم تفكر أبداً في تنحية شريعة الله وإقصائها واستبدالها بالقوانين الوضعية على النحو الذي مر على المسلمين في هذا القرن الأسود من قرون المسلمين.

كفر النفاق: وينقسم إلى قسمين:

* نفاق أكبر: وهو أن يُظهر بلسانه الإيمان ويضمر في قلبه التكذيب. كتكذيب الرسول أو بعض ما جاء به أو بغضه أو كراهية الانتصار لدين الله والسرور لمصائب المؤمنين في مواجهة الكافرين. مثل عبد الله بن أبيّ بن سلول. ويسمى النفاق الاعتقادي وهو المتعلق بقوله تعالى {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ}.

* ونفاق أصغر: ويسمى النفاق العملي، وهو الذي جاء فيه الحديث[1] "آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان" وفي رواية "وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر"[2].

والمنافقون في الدرك الأسفل من النار وإن كانوا في الدنيا مسلمين في الظاهر وتجري عليهم أحكام الإسلام.

والرجل قد يجتمع فيه إيمان ونفاق. فمن كان فيه إيمان ونفاق يسمى "مسلماً" هذا إذا كان إسلامه وإيمانه أغلب، "وإذا كان نفاقه أغلب من إيمانه لم يستحق اسم الإيمان بل اسم المنافق أحق به"[3].

الاتهام بالنفاق

وإن من الآفات المنتشرة بين الناس اتهام الآخرين بأمور قلبية لا يعلمها إلا الله عز وجل. كمن يتهم صاحبه بالنفاق أو الرياء. وإن من كمال الأدب في هذا الدين أن الله قد كشف لنبيه ρ عن أعداد المنافقين وأسمائهم، ولم يكشف النبي ρ أسماءهم وإنما أسرّ بأسمائهم إلى حذيفة بن اليمان ولو شاء لأعلنها على الملأ، ولذلك كان عمر بن الخطاب يقول "إن ناساً كانوا يؤخذون بالوحي في عهد رسول الله ρ وإن الوحي قد انقطع، وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم، فمن أظهر لنا خيراً أمنّاه وقرّبناه وليس لنا من سريرته شيء: الله يحاسبه في سريرته، ومن أظهر لنا سوءاً لم نأمنه ولم نصدقه وإن قال إن سريرته حسنة"[1].

---

[1] متفق عليه.
[2] أخرجه النسائي 117/8 وإسناده صحيح.
[3] مجموع الفتاوى 303/7.
[1] رواه البخاري (2641).

خطـورة التكفيـر

وموقف أهل السنة والجماعة منه

الكفر حق الله ورسوله فلا كافر إلا من كفره الله تعالى. ولا يجوز لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقدم على التكفير إلا ببرهان وبينة مثل شمس النهار. فقد قال رسول الله ρ "من قال لأخيه يا كافر: فقد باء بها أحدهما" وفي رواية "حارت عليه"[(1)] أي رجعت على قائلها.

وإن من أعظم ما تزل به الألسنة: الحكم على الناس بفسق أو كفر أو زندقة لا سيما الاتهام بالنفاق. فإن الأصل في المسلم الظاهر العدالة بقاء إسلامه وبقاء عدالته وحسن الظن به حتى يتحقق عكس ذلك. ومن الوسوسة اعتقاد أن الأصل فيه الشك حتى يتبين إسلامه. ولنأخذ العبرة فيما وقع لأسامة بن زيد رضي الله عنه إذ قال[(2)] "بعثنا رسول الله ρ في سرية فأدركت رجلاً، فقال "لا إله إلا الله" فطعنته. فوقع في نفسي من ذلك فذكرته للنبي ρ فقال "يا أسامة: أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله؟ فقلت: يا رسول الله إنما قالها خوفاً من السلاح. قال: أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا؟". وينبغي أن تكون حادثة أسامة بن زيد درساً عظيماً لكل مسلم.

ومن العجب أن من الناس من يتحفظون من أكل الربا والحرام ومن الزنا وشرب الخمر: ولا يتحفظون من التمادي في غيبة إخوانهم المسلمين أحياء وأمواتاً والطعن فيهم تفسيقاً بل وتكفيراً. وهم لا يدرون أن فعلهم هذا من أربى الربا كما قال النبي ρ [(3)] "أربى الربا عند الله استحلال عرض امرئ مسلم" وفي رواية "أربى الربا شتم الأعراض".

وقد أخبر النبي ρ أن "الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً تهوي به في النار سبعين خريفاً"[(4)] فقد يستصغر المرء كلمة وتكون عند الله عظيمة كما قال تعالى {إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ} والعجب أن هذا المتكلم إنما امتنع من تعاطي الربا ومن النظر إلى النساء خوفاً من أن يهوي في النار".

ما يترتب على تكفير المسلم

إن الحكم بالكفر على إنسان هو أمر خطير وتترتب عليه آثار هي غاية في الخطر:

1- أنه ارتد من الدين: وحكم المرتد في الشريعة أشد من حكم الكتابي، وقد أباحت الشريعة ذبيحة أهل الكتاب أما ذبيحة المرتد فلا تحل. ولا يجوز إكراه أهل الكتاب في الدين. أما المرتد فإما أن يعود إلى دينه وإما أن يُقتَل لقول النبي ρ "من بدّل دينه

---

(1) متفق عليه .
(2) رواه البخاري رقم (4269) .
(3) سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم (1433) .
(4) متفق عليه .

فاقتلوه"[1]. ولذا كانت الشهادة بكفر مسلم: شهادة بوجوب قتله في الدنيا وحرمانه من الجنة في الآخرة، وهذا شر من مجرد الشهادة بالقتل ويؤكد هذا قول النبي ρ "ومن رمى مؤمناً بكفر فهو كقتله"[2].

2- أنه لا يجوز لزوجته البقاء معه بل يجب التفريق بينهما حيث أجمع أهل العلم على تحريم زواج المسلمة من الكافر أو البقاء معه.

3- أنه إذا قتِل لا يُغسل ولا يُدفن في مقابر المسلمين.

4- أن أولاده لا يرثونه ولا يرث هو إن مات له مورث.

5- أن معنى موته مرتداً أنه خالد مخلد في النار لا خروج له منها.

6- أنه لا يجوز الدعاء له بالرحمة.

وهذه نتائج خطيرة توجب على من يتصدّر للتكفير أن يتريث قبل أن يقول ما يقول.

الكبائر لا تخلّد في النار

ومعلوم أن كبائر الذنوب لا تُخرج من ملة الإسلام ولا تخلّد صاحبها في النار بل يكون تحت مشيئة الله: إن شاء عذّبه وإن شاء عفا عنه لقوله تعالى {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء} وقد قال النبي ρ "شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي"[3].

ثم إن الشريعة جاءت بألفاظ مثل الكفر والشرك والفسوق والظلم والنفاق. وإن كثيرين ممن يستخدمون هذه الألفاظ لا يفرّقون بين صغيرها وكبيرها. ويجهلون أن كلاً من هذه الألفاظ ينقسم إلى:

* **أكبر:** مخرج من الملة، منافٍ لأصل الإيمان والدين. وموجب للخلود الأبدي في النار.

* **أصغر:** غير مخرج من الملة، وهو مناف لكمال الإيمان والدين، كقولنا (كفر دون كفر، أو فسق دون فسق أو شرك دون شرك، أو ظلم دون ظلم، أو نفاق دون نفاق مع أنه يصح تسميتها بكبائر الذنوب. وفاعلها لا يخلد في النار، بل أمره إلى الله: إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه. ثم يخرج برحمته من النار ويدخله الجنة.

فالفاسق من أهل القبلة لا يُنفى عنه مطلق الإيمان بفسوقه ولا يوصف بالإيمان المطلق التام. وإنما يقولون: هو مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته. إلا أن يكون فسوقه فسقاً أكبر كقوله تعالى عن إبليس {إِلا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ} (الكهف 50).

---

[1] رواه البخاري رقم (6922) .
[2] متفق عليه .
[3] رواه أحمد 212/3 وأبو داود (4739) بسند صحيح .

وقد أجمعوا على أن المعاصي إذا صغرت أم كبرت إذا كانت دون الشرك الأكبر لا تؤدي بذاتها إلى الحكم على المسلم بالكفر ويكون مرتكبها يوم القيامة تحت مشيئة الله تعالى: إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه.

ودليل ذلك من القرآن:

- قوله تعالى {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء} (النساء 48).

- قوله {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ} فوصف القاتل بأنه أخ المقتول مع أن قتل النفس من كبائر الذنوب ومع ذلك لا تصل إلى حد خروجه إلى ملة الكفر.

ومن السنة:

- قول النبي ρ "تعالوا بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا بهتاناً تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوني في معروف. فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله فأمره إلى الله: إن شاء عاقبه وإن شاء عفا عنه"[(1)].

- وقوله ρ "لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض"[(2)] فالكفر هنا ليس الكفر الأكبر بدليل قوله تعالى {وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا} (الحجرات 9) ثم قال {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ} (الحجرات 10) فوصفهم بأنهم مؤمنون وأنهم إخوة لبعضهم بعضاً بالرغم من اقتتالهم فيما بينهم. والاقتتال كبيرة من كبائر الذنوب، وتوصف كبائر الذنوب بأنها كفر وذلك من قبيل (كفر النعمة) لأنها ضد الشكر. ولأن العاصي إنما يتقوى بنعمة الله على المعصية. فلو فرضنا رجلاً لم يأكل الطعام لأيام ثم عُرِضَت عليه امرأة حسناء ليطأها فإنه لا يستطيع ذلك بسبب حرمانه من الطعام الذي يُكسبه القوة والطاقة على ممارسة الشهوة. فلولا نعمة الله (وهو الطعام) ما استطاع هذا العبد أن يزني. فاستعمال نعمة الله للوقع في المعاصي كفرٌ بنعمة الله.

- وحديث جبريل أن "من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة وإن زنا وإن سرق"[(3)]. وقد وقع الزنا في عهد النبي ρ فمن ذلك:

- قصة ماعز بن مالك الذي أتى إلى النبي ρ يطلب منه أن يقيم عليه الحد لأنه زنا فأمر النبي ρ به بعض الصحابة أن يرجموه فعرض لهم ماعز نفسه ليرجموه من غير أن يوثقوه.

---

(1) رواه البخاري رقم (3892) .
(2) البخاري رقم (4403) .
(3) رواه البخاري رقم (1237) .

ـ وقصة الغامدية التي جاءت النبي ρ تطلب منه أن يقيم عليها الحد لأنها زنت. فأمرها أن ترضع طفلها وتفطمه ثم تأتي إليه بعد ذلك، ففعلت فأمر بها فرُجمَت[4].

ولا ينبغي أن تمر على أذهاننا حادثة كهذه من غير أن نتأمل فيها مدى ما وصل إليه هذا المجتمع من الإيمان العظيم حتى يأتي المذنب يطالب بأن تقام فيه عقوبة الرجم حتى الموت لأنه يعلم أن عقوبته في الدنيا تكفّر عنه العذاب في الآخرة مع أن النبي ρ أعطاه فرصة أن يتراجع ويستر على نفسه فقال "العلك قبّلتَ فقط. فأخبره بأنه جامع وأصرّ على عقوبة القتل. ولما رجموه قال النبي ρ استغفروا لماعز بن مالك. فقالوا: غفر الله لماعز بن مالك ثم قال لهم "لقد تاب [ماعز] توبة لو قسمَت بين أمة لوسِعَتهم" وقال "ألا أخبرك ما فعل الله بصاحبك؟ غفر له وأدخله الجنة" وفي رواية "والذي نفسي بيده: إنه الآن لفي أنهار الجنة ينغمس فيها"[1] وقال عن المرأة الغامدية "لقد تابت توبة لو قُسّمَت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم"[2].

ـ وقصة شارب الخمر (واسمه حمار) الذي أمر النبي بضربه فقال رجل من القوم "أخزاه الله" وفي رواية "لعنه الله" ما أكثر ما يؤتى به إلى النبي فقال النبي "لا تلعنوه، فوالله ما علمت إنه يحب الله ورسوله"[3] وفي رواية "لا تقولوا هكذا، لا تعينوا عليه الشيطان، ولكن قولوا: اللهم ارحمه، اللهم تب عليه"[4].

وصدق رسول الله ρ فقد كان من محبة هذا الرجل للنبي أنه كلما يدخل المدينة يستلف من صاحب دكان سمناً ويهديه إلى النبي ρ فيأخذه منه ρ وهو يضحك، وبعد فترة يأتي صاحبُ الدَين بهذا الرجل (حمار) إلى النبي ρ ويشكوه إليه أن يردّ إليه دَيْنَه، فينتهي الأمر أن يدفع له النبي ρ ثمن السمن الذي أهداه إياه (حمار) من قبل.

فهاهنا نرى النبي ρ يأمر بضربه لكنه ينهى عن شتمه ولعنه لأن أخوة الإيمان لم تذهِب كل إيمانه بالرغم من هذا الذنب العظيم الذي اقترفه.

---

[4] رواه البخاري (6824) ومسلم (1693) .
[1] مسلم 1691 وأبو داود (4428) والترمذي (4428) .
[2] رواه مسلم (1696) .
[3] أي ما علمته إلا يحب الله ورسوله .
[4] رواه البخاري رقم (6780) وأبو داود (4477) .

أصول مهمة في مسائل التكفير

القاعدة الأولى: أن كل عمل من أعمال الكفر لا نكفّر صاحبه به إلا إن كان وراءه كفر اعتقادي، وإلا فهو كفرٌ عمليٌ لا يوجب خروج صاحبه من الملة بمجرده، وعلى هذا جرى اتفاق السلف.

القاعدة الثانية: أنه لا يكفي أن يقول الرجل كُفراً حتى نسارع إلى تكفيره، فقد يكون جاهلاً أو مخطئاً أو متأوِّلاً، فلا يقال له لأول وهلة: (كفَرتَ) وإنما يقال له أخطأت.

* فعن عبد الله بن عمر أن النبي ρ سمع عمر وهو يحلف بأبيه، فقال "إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، فمن كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمُت"[1]. مع أنه ρ قال "من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك"[2].

* وقد سأل بعض المسلمين النبي ρ - وكانوا حديثي عهد بإسلام – أن يجعل لهم ذات أنواط مشابهة لأنواء الذين كانوا يعلقون سيوفهم بشجرة يتبركون بها فقال لهم النبي ρ "الله أكبر، إنها السنن، قلتم كما قال أصحاب موسى لموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة"[3] فجعل قولهم شبيهاً بقول اليهود "اجعل لنا آلهة".

القاعدة الثالثة: أنه لا يكفَّرُ بالكفر الاعتقادي باستيفاء شروط (شروط التكفير) وانتفاء موانع، بمعنى أن لا يقوم بالشخص مانع من تكفيره كبعض أنواع الجهل والتأويل والإكراه، فقد يجتمع في الأمر الواحد عدة موانع تمنع من الحكم الصحيح، ومثال ذلك:

استحلال الصحابي البدري قدامة بن مظعون للخمر هو وأصحابه، متأولين قول الله تبارك وتعالى {لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُواْ إِذَا مَا اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}[1] (المائدة 93).

فظن أنه لا جناح عليه أن يشرب الخمر إذا ما اتقى وآمن وعمل الصالحات.

ومعلوم أن تحريم الخمر ثابت في القرآن وأن من استحله بعد علمه بتحريمه فقد كفر، وكان قدامة يعلم هذا التحريم في القرآن، ومع ذلك لم يحكم الصحابة بكفره وأصحابه لوجود مانع التأويل، فإنه لما بلغ عمر خبرُ قُدامة وأصحابه اتفق هو وعلي وسائر الصحابة أنهم إذا اعترفوا بالتحريم جُلِدوا، لأن الحدّ حق الله، وإن أصرّوا على استحلالها قُتِلوا (يعني للكفر) وقال عمرُ لقُدامة: أخطأت، أما إنك لو اتقيتَ وآمنتَ وعملتَ الصالحات لم تشربِ الخمرَ.

---

(1) متفق عليه .
(2) رواه الترمذي (1535) في الإيمان والنذور وسنده صحيح .
(3) رواه الترمذي (2181) بإسناد صحيح .
(1) وسبب هذه الآية أنه لمّا نزل تحريم الخمر وذلك بعد معركة أحد: قال بعض الصحابة: فكيف بأصحابنا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر؟ فأنزل الله هذه الآية يبين فيها أن من طعم الشيء في الحال التي لم يُحرّم فيها فلا جناح عليه إذا كان من المتقين المصلحين (فتح الباري 278/8 تفسير الطبري 24/5) .

ثم أقيم عليه وعلى من معه الحد.

* ثم إن عمر بلغه بعد ذلك أن قدامة أيسَ من التوبة فكتب إليه عمرُ يقول "أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو {غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ} ما أدري أي ذنبَيْكَ أعظم: استحلالك المحرم أولا؟ أم يأسُكَ من رحمة الله ثانياً"[2].

* أن هناك فرقاً بين التكفير المطلق وبين تكفير المعين، فقد يكون قائل الكفر أو فاعله متأولاً أو جاهلاً فيعلّم، وقد يقول المؤمن كفراً ولا يصير به مستحقاً لاسم الفاعل (كافر) فالحكم بالكفر على المعين يقتضي انتفاء موانع التكفير واقتضاء شروطه.

---

[2] الإصابة 228/3 مصنف عبد الرزاق 240/9 .

طريقة أهل البدع في تكفير الناس

ومو قف أهل السنة من ذلك

قال ابن تيمية "وطريقة أهل البدع في التكفير الذين يجمعون بين الجهل والظلم، فيبتدعون بدعة مخالفة للكتاب والسنة وإجماع الصحابة ويكفّرون من خالفهم في بدعتهم.

فالرافضة ابتدعوا تفضيل عليّ على الثلاثة وتقديمه في الإمامة، وكفّروا من خالفهم.

وكذلك الجهمية ابتدعت نفي الصفات وجعلوا يكفّرون من لم يوافقهم على ذلك.

قال "وأئمة السنة والجماعة وأهل الإيمان:

فيهم العلم والعدل والرحمة

فيعلمون الحق الذي يكونون موافقين به الكتاب والسنة سالمين من البدعة، ويعدلون على من خرج منها ولو ظلمهم كما قال تعالى {كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى}. ويرحمون الخلق، فيريدون لهم الخير والهدى والعلم، ولا يقصدون الشر لهم ابتداءً، بل إذا عاقبوهم، وبيّنوا خطأهم وجهلهم وظلمهم، كان قصدهم بذلك بيان الحق ورحمة الخلق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن يكون الدين كله لله، وأن تكون كلمة الله هي العليا.

فالمؤمنون أهل السنة أعمالهم خالصة لله تعالى، موافقة للسنة، وأعمال مخالفيهم لا خالصة ولا صواب، بل بدعة واتباع الهوى، ولهذا يُسَمَّوْن "أهل البدع والأهواء".

فلهذا كان أهل العلم والسنة لا يكفّرون مَن خالفهم وإن كان ذلك المخالف يُكَفّرهم. لأن الكفر حكمٌ شرعي، فليس للإنسان أن يعاقب عليه، كمن كذب عليك وزنى بأهلك: ليس لك أن تكذب عليه وتزني بأهله، لأن الكذب والزنا حرام.

وكذلك التكفير حقٌّ لله، فلا يُكَفَّرُ إلا مَن كفّره اللهُ ورسوله.

وأيضاً فإن تكفير الشخص المعين وجواز قتله موقوف على أن تبلغه الحجة النبوية التي يُكَفَّر من خالفها، وإلا؛ فليس كل من جهل شيئاً من الدين يُكَفَّر.

ولهذا كنتُ أقول للجهمية من الحلولية والنفاة الذين نفوا أن الله تعالى فوق العرش، لمّا وقعَتْ محنتُهُم:

"أنا لو وافقتُكم كنتُ كافراً، لأني أعلم أن قولكم كُفرٌ. وأنتم عندي لا تكفرون لأنكم جُهَّال. وكان هذا خطاباً لعلمائهم وقضاتهم وشيوخهم وأمرائهم"[1].

---

[1] الردُّ على البكري 256 – 260 لابن تيمية .

حكم تكفير شخص بعينه

وأهل السنة لا يحكمون على أحد بكفر ما لم تُقم عليه الحجة وتتحقق فيه شروط الكفر وتنتفي موانعه. ولا يقولون عن أحد من أهل القبلة إنه من أهل الجنة أو النار إلا من خبر الله ورسوله كقول الله عن أبي لهب {سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ} (المسد 3) وشهادة النبي ρ للعشرة بالجنة.

إذ الحكم على شخص بأنه من أهل الجنة أو من أهل النار أمر عظيم قد يودي بقائله إلى جهنم، يستوي في ذلك من حكم لشخص بالجنة أو بالنار فإن كلاً منهما مفتر على الله.

وذكر النبي ρ أن رجلاً قال: والله لا يغفر الله لفلان. فقال الله: من ذا الذي يتألى عليّ أني لا أغفر لفلان؟ فإني قد غفرت لفلان وأحبطت عملك"[1]. وفي رواية كان رجلان في بني إسرائيل متواخيين، فكان أحدهما يذنب والآخر مجتهد في العبادة، فكان لا يزال المجتهد يرى الآخر على الذنب فيقول: أقصُر، فوجده يوماً على ذنب فقال له: اقصر فقال خلني وربي، أبُعِثتَ عليّ رقيباً؟ فقال: والله لا يغفر الله لك، أو لا يدخلك الله الجنة، فقبضَ أرواحهما فاجتمعا عند رب العالمين. فقال لهذا المجتهد: أكنت بي عالماً؟ أو كنت على ما في يدي قادراً؟ وقال للمذنب: اذهب فادخل الجنة برحمتي، وقال للآخر: خذوا به إلى النار"[2].

فتأمل كيف عظم ذنب هذا المجتهد في الطاعات عند الله حتى طغى على سيئات هذا المسيء، وذلك أنه حكم على أخيه بدخول النار نيابة عن الله. فهذا القول الواحد كان أعظم عند الله من عشرات الأعمال السيئة.

اجتماع النقيضين

وإن من أعظم أصول أهل السنة والجماعة الاعتقاد بأن الرجل قد يجتمع فيه كفر ونفاق وصدق وإيمان وشرك وتوحيد وتقوى وفجور.

ولا يلزم قيام شعبة من شعب الإيمان به أن يسمى مؤمناً، وإن كان ما قام به إيماناً، ولا من قيام شعبة من شعب الكفر به أن يسمى كافراً وإن كان ما قام به كفراً.

* فمن صدرت منه خلة من خلال الكفر فلا يستحق اسم كافر على الإطلاق. كقوله ρ "من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك"[1]. ثم الكفر ذو أصل وشعب فكما أن الحياء شعبة من شعب الإيمان فإن قلة الحياء شعبة من شعب الكفر.

* ثم إنهم لا يتمنون لمن ثبت كفره أن يموت على الكفر ولا يقطعون فيمن كان حاله الكفر أنه مات عليه، فإن الكافر قد يرجع ولو في آخر لحظة قبل موته، ولذلك إذا

---

[1] رواه مسلم (2622).
[2] رواه أبو داود 4901 وهو حديث حسن بشواهده.
[1] رواه الترمذي رقم (1535) وإسناده حسن.

نقلوا عنه ضلالته قالوا: والله أعلم بما مات عليه. فإن الإنسان قد يرجع ولو في آخر لحظة من عمره.

قيام الحجة قبل التكفير:

* وإذا صدر عن المسلم شائبة من شوائب الكفر فيجب أن نحسن الظن أولاً ونرجح أن يكون قد قال ذلك جهلاً منه وأنه لا يريد بذلك الخروج من دائرة الإيمان وإنما ظن ما قاله إيماناً، وهنا يجب علينا أن نبين له أن ما يقوله خطأ ويكون عندنا الحجة التي نقضي بها على شائبته.

* وقد يكون الرجل لم يعلم بتلك الحجة من قبل ولو علمها لتراجع عنها. أو لم يفهمها أو تكون قد عرضت له شبهات يعذره الله بها. أو يظن من رد عليه أنه أقام عليه الحجة بينما حجته ضعيفة.

1) من الكتاب بحيث يكون الاستدلال في محله موافقاً لنص الحجة. ومن السنة بحيث يكون سند النص صحيحاً إذ لا تقوم الحجة برواية ضعيفة.

2) أن تكون الحجة واضحة لا لبس فيها ولا غموض.

3) أن تقطع الحجة كل شبهة عند الرجل إذا أقيمت عليه.

قال الشافعي "لله أسماء وصفات لا يسع أحداً ردها، ومن خالف بعد ثبوت الحجة عليه فإنه يُعذَر بالجهل، لأن علم ذلك لا يُدرَك بالعقل ولا الرؤية ولا الفكر. فنثبت هذه الصفات وننفي عنه التشبيه كما نفى عن نفسه فقال {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ} (الشورى 11).

وليست الحجة رأياً ترتأيه ووجهة نظر تتبناها وترغمه على تبنيها، وإنما الحجة تكون من آية من كتاب الله تعالى أو سنة صحيحة من سنن رسوله ρ فإذا أصرّ بعدها فيمكن تحذيره من خطورة إصراره وأن كلامه هذا فيه كفر بالله، فإذا أصرّ فحينئذ يمكن تكفيره.

الكلام في الناس بعلم وعدل

والكلام في الناس يجب أن يكون "بعلم" و "عدل" لا بجهل وظلم ويقترن بالورع، فإن الورع رادع عن التمادي في الباطل. وهو ما حذر النبي ρ منه فقال "من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد ضادّ الله في أمره. ومن مات وعليه دَيْن فليس بالدينار والدرهم ولكن بالحسنات والسيئات. ومن خاصم في باطل وهو يعلمه: لم يزل في سخط الله حتى ينزع، ومن قال في مؤمن ما ليس فيه أسكنه الله ردغة الخبال[1] حتى يخرج مما قال وليس بخارج"[2].

* ثم على المتكلم أن لا ينسى محاسن من يتكلم فيه وإن كان مخالفاً له في المذهب أو الانتماء. فإن الهوى يقود إلى تجاهل حسنات المتكلّم فيه وتضخيم سيئاته حتى يبدو كأنه شر محض. فلا يجوز إغفال المحاسن لوجود بعض المساوئ. والمنصف يغفر قليل خطأ أخيه في بحر حسناته وصوابه. وإذا بلغ الماء قلتين لم يحمل الخبث. ولا أزال أعجب حين أذكر حديث المرأة البغي من بغايا بني إسرائيل التي سقت كلباً كاد يموت من العطش، فشكر الله لها وأدخلها الجنة. وإذا كانت رحمة الله قد شملت امرأة هكذا حالها: أفلا يليق بنا أن نكون رحماء حتى مع من أخطأ من إخواننا لا سيما وأنه مهما أخطأ فإن خطأه لا يساوي شيئاً إذا ما قورن بخطأ تلك المرأة !!!

ومن الغلو: التسرع في الحكم على الآخرين

إن سمة أهل الغلو التسرع وعدم الروية في الحكم على الآخرين وتكفيرهم، فسرعان ما تجدهم ينزلقون في هذا الباب وينكشف تسرعهم وغلوهم.

ولقد علّمنا القرآن أن عدم الإنصاف قرين "اتباع الهوى" حيث قال {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ} وقال {فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ}.

* وهل أضلّ الخوارجَ إلا الجورُ وعدمُ الإنصاف مما أوصلهم إلى تكفير من لا يجوز تكفيره كالصحابة ولذا صاروا يقتلون أهل الإسلام ويتركون أهل الأوثان! ووُصِف أصحابُ الفِرق المنحرفة بـ "أهل أهواء" لأنهم أقرب إلى تحكيم الهوى منهم إلى تحكيم الكتاب والسنة.

كيف يستغل الشيطان بذرة الغلو

إن الغلو آفة ومرض إذا لم يلقح العبد نفسه منها بلقاح الوقاية وقع في شر عظيم. والغلو إذا لم يتخذ له شكلاً في تصوف أو تشيع أو نصرانية فإنه لا بد أن يظهر في شكل آخر. فإن الخوارج أول مظاهر الغلو في الإسلام، وهم لم يكونوا يعتقدون بعصمة إمام ولم يكونوا يغالون في الأولياء أو يقيمون حفلات الموالد وإنما كان عندهم غلو من نوع آخر

---

[1] الردغة الطين. والخبال: الفساد ومعناه: الماء الفاسد الخارج من أهل النار أو "صديد أهل النار".
[2] أحمد 70/2 والحاكم 27/2 وصححه ووافقه الذهبي .

حملهم على ظلم عثمان بن عفان رضي الله عنه أيما ظلم وتكفير علي وعائشة وسائر الصحابة.

فأهل الغلو إما أن يغلوا في مدح الآخرين أو يغلوا في ذمهم. لأن أصل مادة الغلو كامن فيهم فهم قابلون بسببه إلى أي انحراف وزيغ.

ودواء هذا المرض متوفر في هذا الآيات العظيمة:

{وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى} (المائدة 8) أي لا تحملكم عداوة قوم أن لا تعدلوا في حكمكم فيهم بالحق.

{فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً} (النساء 135).

{وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى} (الأنعام 152).

{إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ} (النساء 58).

ويستطيع العبد المحافظة على إنصافه وعدله حينما يتجرد من عواطفه وروابطه وانتماءاته. وإنصاف الصديق والعدو من ثمرات العلم النافع.

مسألة العذر بالجهل

وقد نص العلماء رحمهم الله تعالى على أن من جحد أمراً معلوماً من الدين بالضرورة فقد كفر. والمعلوم من الدين بالضرورة هو ما لا يجهله جاهل ولا عالم. قال الإمام النووي "من جحد ما يُعلم من دين الإسلام ضرورة: حُكِمَ بردّته وكفره، وكذا من استحل الزنا أو الخمر أو القتل أو غير ذلك من المحرمات التي يُعلم تحريمها ضرورة"[1].

فقد كان سبب عدم العذر بالجهل بها: أنها أمور معلومة لدى عامة الناس بالضرورة. ولكن هذا المعلوم من الدين بالضرورة هو أمر نسبي إضافي يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والأشخاص. فقد يكون معلوماً بالضرورة في مكان، ويكون مجهولاً في مكان آخر يكثر فيه الجهل أكثر من غيره.

أدلة العذر بالجهل

* والأدلة على العذر بالجهل من القرآن الكريم:

{كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ} (الملك 8).

{وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً} (الإسراء 15).

{وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ} (التوبة 115).

{وَلَوْلا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} (القصص 47).

{رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ} (الناس 165).

{هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاء قَالَ اتَّقُواْ اللّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} (المائدة 111) قالوا ذلك لعيسى فلم يقل لهم كفرتم بالله.

فهذه الآيات تنص على أن الله لا يعذب الناس بل يبين لهم ويعلمهم طريق ربهم. ولا تكون المؤاخذة إلا بعد العلم.

---

[1] النووي على مسلم 100/1 .

* أما الأدلة على العذر بالجهل من السنة النبوية:

الحديث الأول: "لا أحد أغير من الله، من أجل ذلك حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن. ولا أحد أحب إليه المدح من الله عزّ وجلّ من أجل ذلك مدح نفسه. ولا أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك بعث النبيين مبشرين ومنذرين" وفي رواية "من أجل ذلك أرسل رسله وأنزل كتبه"[1].

الحديث الثاني: عن حذيفة أن رسول الله ρ قال "إن رجلاً حضره الموت، فلما يئس من الحياة أوصى أهله: إذا أنا متّ فاجمعوا لي حطباً واحرقوني ثم اسحقوني ثم ذُرّوني في اليَمّ، فوالله لئن قدر الله عليّ ليعذبني عذاباً لم يعذبه أحداً من العالمين. ففعلوا به ذلك. فقال الله له: ما حملك على ما فعلت؟ قال: خشيتك. فغفر الله له" و"تلقاه برحمته"[2].

فهذا رجل شك في قدرة الله أن يعيده. وهذا كفر لا خلاف فيه، لكن كان جاهلاً لا يعلم ذلك وكان مؤمناً يخاف من الله أن يعذبه. والمتأول المجتهد من هذه الأمة – الحريص على متابعة الرسول – أولى بالمغفرة من هذا. ولذلك قال ابن تيمية "وإني أقرر أن الله قد غفر لهذه الأمة خطأها وذلك يعمّ الخطأ في المسائل الخبرية القولية، والمسائل العملية"[3].

الحديث الثالث: أن عائشة سألت رسول الله ρ "مهما يكتم الناس يعلمه الله؟ قال: "نعم"[4]. فهذه عائشة رضي الله عنها تسأل إن كان الله يعلم كل شيء. وإنكار علم الله بكل شيء كإنكار قدرته على كل شيء. ومع ذلك لم تكن عند سؤالها هذا كافرة.

الحديث الرابع: عن أبي واقد الليثي قال: خرجنا مع رسول الله ρ إلى حنين ونحن حدثاء عهد بكفر، وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم. يقال لها ذات أنواط. فقلنا: يا رسول الله: اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. فقال "الله أكبر إنها السنن، قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى {اجْعَل لَّنَا إِلَـهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ} (الأعراف 138) لتركبن سنن من كان قبلكم"[1].

- والحديث يفيد أن بعض الصحابة الذين لم يتعلموا كل أمور التوحيد طلبوا من النبي ρ أن يأذن لهم في تعليق سيوفهم عند الشجرة تبركاً بها على النحو الذي يفعله المشركون، فلم يحكم النبي ρ بأنهم كفروا بذلك ولم يأمرهم بتجديد إسلامهم وتجديد عقود زواجهم، بل حذرهم بأن قولهم هذا شبيه بقول بني إسرائيل لموسى، غير أنه عذرهم بجهلهم وأخبرهم أن ما سألوه هو الكفر بعينه. فحكم بكفر قولهم ولم يحكم عليهم بأنهم كفروا.

ومن هنا قال أهل العلم: قد يقول المسلم كفراً. وقد يحكمون على الأمر بأنه كفر ولا يحكمون بأن كل من وقع منه هذا الأمر يكون خارجاً عن الملة لأن شرط ذلك ألا

---

(1) رواه البخاري (4637) .
(2) رواه البخاري (3452) ومسلم (2934) .
(3) مجموع الفتاوى 229/3 .
(4) رواه مسلم (974) .
(1) رواه ابن أبي عاصم في كتاب السنة 37/1 بإسناد حسن .

يكون له عذر مقبول. ولذلك يقولون: من قال كذا فهو كافر لكن الشخص المعين لا يُحكم بكفره حتى تقوم عليه الحجة. لأن المسلم قد يقول كفراً ومع ذلك لا تقوم به صفة الكفر حتى تقوم عليه الحجة.

وعلي رضي الله عنه لم يحكم بكفر الخوارج. ولما سئل عنهم: هل هم كفار؟ قال: هم من الكفر فرّوا. فقيل له: هل هم منافقون؟ قال: المنافقون لا يذكرون الله إلا قليلاً، وهؤلاء يذكرون الله صباح مساء، وإنما هم إخواننا بغوا علينا"[(2)].

ـ وكان السلف كأحمد وغيره يكفّرون الجهمية لكنهم لم يكونوا يكفّرون أعيانهم، وذلك بالنظر إلى التفريق بين من يدعو إلى القول وبين من يقول به. فإن الداعي إلى القول أعظم من الذي يقول به، وكان أحمد يدعو للمأمون ويترحم عليه مع أنه تبنى أقوال المعتزلة وألزم بها العلماء وعذب من لم يوافقها.

الحديث الخامس: عن عبد الله بن أبي أوفى قال "لما قدم معاذ من الشام سجد للنبي ρ فقال "ما هذا يا معاذ؟ قال معاذ: أتيت الشام فوافيتهم يسجدون لأساقفتهم وبطارقتهم فوددت نفسي أن أفعل ذلك لك، فقال النبي ρ لو كنت أمراً أحداً أن يسجد لغير الله لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها[(1)] ولا شك أن السجود لغير الله كفر، ومع ذلك لم يحكم النبي ρ بكفر معاذ، وإنما عذره لجهله بأنه لا يجوز السجود لغير الله مطلقاً ولا حتى لنبي.

الحديث السادس: حديث الربيع بنت معوذ بن عفراء أن جويريات جعلن ينشدن ويقلن "وفينا نبي يعلم ما في غد" فقال النبي ρ "دعي هذه وقولي بالذي كنت تقولين"[(2)]. ولا شك أن اعتقاد أن النبي يعلم الغيب مناقض لأمر الله إلى النبي ρ أن يقول {وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ} وهذا كفر. ولكن النبي ρ عذرهم لجهلهم.

الحديث السابع: عن ابن عباس رضي الله عنه أن رجلاً جاء رسول الله ρ وقال له "ما شاء الله وشئتَ. فقال ρ "أجعلتَني لله ندّاً؟ ما شاء الله وحده"[(3)]. فهذه الأدلة تجعل العذر بالجهل معتبراً شرعاً وهو ما لا يعتبره المتسرعون والمغالون.

---

(2) رواه البيهقي في السنن 173/8 .

(1) رواه أحمد 381/4 بسند صحيح بشواهده .

(2) رواه البخاري في النكاح: باب ضرب الدف رقم (5147) .

(3) رواه أحمد 214/1 وابن ماجة (2117) .

حكم أهل الفترة

كثيراً ما يتساءل البعض: ماذا عن الأمم المعزولة عن العالم كأهل الغابات وغيرهم ممن لم تبلغهم دعوة الإسلام: هل يعذبهم الله تعالى أم يعذرهم؟ وما حكم من لم تبلغه دعوة الرسل لا سيما وأن النبي ρ قال "والذي نفسي بيده: لا يسمع بي رجل من هذه الأمة ولا يهودي ولا نصراني ثم لم يؤمن بي إلا كان من أهل النار"[1].

وهذا أمر طرحه أهل العلم من قبل بما يعرف بـ (أهل الفترة) وذكروا أنهم يُمتَحنون يوم القيامة بنار يأمرهم الله تعالى أن يقتحموها فمن اقتحمها دخل الجنة وهو الذي يصدق الرسل لو جاءته في الدنيا، ومن امتنع من دخول النار عُذِّب فيها وهو الذي كان يكذب الرسل لو جاءته في الدنيا، فإن الله تعالى يعلّم ما لم يكن: لو كان كيف يكون كما قال عن أهل النار الذين يسألونه يوم القيامة أن يعيدهم إلى الدنيا قائلين {يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} فيكذبهم الله ويرد عليهم {وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} وكما قال تعالى أيضاً عن المعرضين {وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ}.

* واستدل أهل العلم أيضاً على ذلك بما ثبت عن النبي ρ أنه قال:

"أربعة يوم القيامة يدلون بحجة:

1) رجل أصم لا يسمع.

2) ورجل أحمق.

3) ورجل هرم.

4) ومن مات في الفترة.

فأما الأصم فيقول: يا رب جاء الإسلام وما أسمع شيئاً.

وأما الأحمق فيقول: جاء الإسلام والصبيان يقذفونني بالبعر.

وأما الهرم فيقول: لقد جاء الإسلام وما أعقل.

وأما الذي مات على الفترة فيقول: يا رب ما أتاني رسولك.

فيأخذ مواثيقهم ليطيعُنّه. فيرسل إليهم رسولاً أن ادخلوا النار. قال ρ : فوالذي نفسي بيده لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاماً" وفي رواية "فمن دخلها كانت عليه برداً وسلاماً، ومن لم يدخلها يُسحَب إليها"[1].

---

[1] مسلم (153) وابن مندة في التوحيد .

[1] رواه أحمد 24/4 وابن حبان (1827) وصححه الألباني في الصحيحة (1434) .

وليس المقصود أن كل من سمع بالنبي ρ سماعاً مجرداً يدخل النار. بل قد يطلع النصراني على سيرة النبي ρ من خلال افتراءات المستشرقين والمتعصبين الذين يتهجمون على شخصه ρ ويتهمونه بشتى الأكاذيب. بل المقصود أن يسمع به سماعاً يحدث عنده ضمناً القناعة بنبوته والله أعلم.

(نواقض الإيمان)

الولاء والبراء

ومعناه: موالاة أهل الطاعة والإيمان ونصرتهم ومحبتهم. والبراءة من أهل الكفر والشرك وبغضهم ومعاداتهم لكفرهم وعصيانهم. وهذا الموضوع من أهم أصول العقيدة، لقول النبي ρ "أوثق عرى الإيمان: الموالاة في الله، والمعاداة في الله، والحب في الله، والبغض في الله[1]. وقال "من أحب لله وأبغض لله. وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان"[2].

فالإسلام يعلّم المؤمن: إذا أحب أن يكون حبه لله، وإذا أبغض أن يكون بغضه لله، لا لمنفعة دنيوية. ولا لقرابة أو نسب". وكان النبي ρ لا يغضب لنفسه وإنما كان يغضب إذا انتُهكَت حُرُمات الله وحدوده.

والإيمان بالله واليوم الآخر يقتضي عدم موادة الكافرين أي نصرهم ومحبتهم، {لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ} (المجادلة 22).

فالمؤمن تكون محبته متوافقة مع محبة الله تعالى. فلا يحب من يبغضهم الله، ولا يبغض من يحبهم الله. قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ} (الممتحنة 13). ومن تولى قوماً فهو منهم حتى يتبرأ منهم. والمرء يُحشر يوم القيامة مع من أحب.

ومن الموالاة للمؤمنين:

* مناصرتهم ومعاونتهم بالمال والنفس. قال تعالى {وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ} (الأنفال 72). وقال {إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ} (المائدة 55). وقال رسول الله ρ "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً"[3] وقال[4] "المسلم أخو المسلم: لا يحقره ولا يخذله ولا يُسْلِمُه".

* مشاركة المسلمين أحزانهم ومتابعة أحوالهم: والفرح لفرحهم والحزن لهم إذا أصابهم سوء. قال رسول الله ρ "مثل المؤمنين في توادِّهم وتعاطفهم وتراحمهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر"[1].

* أما المنافق والكافر فعلى العكس من ذلك. قال تعالى {إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا} (آل عمران 120).

---

(1) رواه الحاكم 480/2 وصححه ووافقه الذهبي .
(2) رواه أبو داود بإسناد صحيح .
(3) البخاري (2446) .
(4) البخاري 2442 ومسلم 2850 .
(1) البخاري 6011 ومسلم 2586 .

* محبتهم ومجالستهم. قال تعالى {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} (الكهف 28). والستر على عيوبهم مع ((مناصحتهم)) وعدم إظهار عوراتهم وكشف عيوبهم أمام أحد من الناس.

* أن يحب لهم ما يحب لنفسه، ويبغض لهم ما يبغض لنفسه. قال رسول الله ρ[2] "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه".

* الرفق بهم. والدعاء والاستغفار لهم. وأن لا يقف منهم مواقف الشدة والعداء. فلقد كان سلفنا الصالح {أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ} (الفتح 29) {أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ} (المائدة 54). وإنها لعلامة على الانحراف والظلم أن ينعكس الأمر عند البعض حتى صاروا على عكس سلفهم: أشداء على المؤمنين رحماء بالكفار. أذلة على الكافرين أعزة على المؤمنين.

ومن الموالاة للكافرين

محبتهم وتعظيمهم والتزام الطاعة لهم. قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوَاْ إِن تُطِيعُواْ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَاسِرِينَ ، بَلِ اللّهُ مَوْلاَكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ} (آل عمران 150). وقال {إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ} (المائدة 55).

[2] رواه البخاري 13 ومسلم 45 .

من أسباب لعن اليهود

وقد لُعِنَ اليهودُ على لسان أنبيائهم {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ}. وسبب ذلك أنهم:

1) {كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ}.

2) {تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ}.

فحكم القرآن على ولائهم لهم بالفسق، قال {وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِالله والنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاء وَلَـكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ} (المائدة 80).

- وأكد أن المؤمن لا يمكن أن يتخذ عدو الله ولياً له فقال {أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاء؟} (الكهف 102).

- ومن ثم توجه النهي إلى المسلمين أن يأخذوا العبرة من هؤلاء. فلا يتولون أحداً من هذه الأمة التي لعنها أنبياؤها. {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} (المائدة 51).

- فكل من صلى وصام وزكى وحج وهو مع ذلك يتولى اليهود والنصارى ويظاهرهم على المؤمنين ويودهم ويستنصر بهم فحكمه حكم أهل الكتاب وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم.

* وحذر الله من نصرتهم والدفاع عنهم. وكشف حال المنافقين الذين وعدوا اليهود بنصرتهم على رسول الله ρ مع زعمهم أنهم مؤمنون فقال {أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَداً وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} (الحشر 11).

* وحرم الرضا عنهم. فإنهم لن يرضوا عن المؤمن مهما حاول إرضاءهم. قال تعالى {وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ} (البقرة 120) وقد يتظاهرون بالرضا وقلوبهم تأبى ذلك كما قال {يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ} (التوبة 9) {قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاء مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ} (آل عمران 118).

* ونهى عن الثقة بعهودهم والاطمئنان إلى مواثيقهم وذممهم. ولا غرو فقد وصفهم بأنهم {يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ} (الأنفال 56) وأنهم يحافظون على عهودهم ما داموا في حالة الضعف والمهادنة فإذا ظهروا وقويت شوكتهم نكثوا عهودهم ولم يرعوا للمسلمين عهداً.

قال تعالى {كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً} (التوبة 8). وقال {إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ} (الكهف 20).

ـ وواقع الحال يشهد بذلك. ولما غفل المسلمون عن ذلك توالت عليهم الهزائم وتسلطت عليهم كلمة الكفر. ودفعوا ضريبة موالاتهم لهم ذلاً وتشرذماً.

* ونهى عن تقريبهم وإظهار الود لهم، وإكرامهم. قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءكُم مِّنَ الْحَقِّ} (الممتحنة 1).

* واتخاذهم بطانة من دون المؤمنين ومشاورتهم في أمور الدين. قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاء مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ} (آل عمران 118).

* ومنع من التشبه بهم، واتخاذهم قدوة مما يؤدي إلى تعظيمهم واتباع طريقتهم في اللباس والمظهر والسلوك. قال ρ "من تشبّه بقوم فهو منهم"[1]. وقد شدد النبي ρ على ضرورة مخالفة الكفار والمشركين. فإن تقليدهم يذيب شخصية من يقلدهم ويجعله يدور في فلكهم، وربما صار تبعاً لهم، ثم معجباً بهم، ثم مفتوناً بهم، ثم محباً لهم موالياً لهم. قال ρ يُحشَر المرء يوم القيامة مع من أحب[2].

* ومن موالاتهم: استعارة قوانينهم واستبدال شريعة الله بها. كما حكى الله عن اليهود {يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ} (النساء 60).

ووصف التحاكم إلى قوانين البشر المتناقضة بأنه هبوط إلى الجاهلية فقال {أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ} (المائدة 50).

ونفى الإيمان عمن يرفض التحاكم إلى الله والرسول فقال {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ}. بل اشترط عليهم التسليم والرضا بحكم الله فقال {ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً} (النساء 65). أي لا يؤمنون لمجرد أن يتحاكموا إلى الله والرسول مع كراهيتهم لحكمه أو مع عدم التسليم له، بل لا بد من الرضا والتسليم كشرط للإيمان.

* الركون إليهم والخضوع الطوعي لهم. قال تعالى {وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ} (هود 113). بل قال لنبيه ρ {وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً ، إِذاً لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً} (الإسراء 74).

* مداهنتهم ومجاملتهم. قال تعالى {وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ} (القلم 9) وكشف خداعهم للمؤمنين فقال {وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكْمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ} (البقرة 14).

* مشاركتهم في أعيادهم وتهنئتهم عليها، وتقديم الهدايا لهم لأن في ذلك مدحاً لدينهم وإقراراً لهم على ما هم عليه من الباطل.

---

[1] رواه أبو داود (4031) بسند حسن .
[2] رواه الترمذي 96 و 3529 وهو صحيح .

قدوتنا الصالحة في الولاء والبراء

وقد جعل الله لنا من سلفنا الصالح قدوة نقتدي بهم، إذ قص علينا كيف تبرؤوا من قومهم وعشيرتهم المشركين وأعلنوا بغضهم لهم: قال تعالى {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ} (الممتحنة 4). وكيف تبرأ إبراهيم من أبيه لمّا علم إصراره على الكفر {وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ} (التوبة 114).

وتبرأ نبينا ρ من كل مشرك وإن كان من قرابته وعشيرته إذ قال "إن آل أبي فلان ليسوا لي بأولياء، إنما وليي الله وصالح المؤمنين[1].

ويشتد قبح الموالاة للكفار إذا كان الذين يوالونهم ممن يحاربون الله ورسوله ρ ، ويمكرون لإطفاء نوره، ويتربصون بعباده المؤمنين.

ولقد فرق الله بين الكافر المسالم للمؤمنين وبين الكافر المحارب لهم، فبدأ بالنوع الأول قائلاً: {لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} ثم حذر من النوع الثاني فقال: {إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} (الممتحنة 8).

وكذلك يزداد قبحاً حين تكون موالاة الكفار ضد فريق من المؤمنين قال تعالى {لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً} (آل عمران 28) أي لا تتخذوهم لكم أنصاراً تستعينون بهم على المؤمنين، وتدلونهم على عوراتهم ومكامن ضعفهم.

فمن فعل ذلك فليس من الله في شيء، أي أن الله بريء منه بارتداده عن دينه ودخوله في حلق الكفرة والمشركين وحزبهم. إلا أن يكون المؤمن مستضعفاً مغلوباً على أمره، مقهوراً على إرادته من قبل المشركين.

فالمؤمنون يتولى بعضهم بعضاً، وينصر بعضهم بعضاً {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ} (التوبة 71) كما أن المنافقين والكفار يتولى بعضهم بعضاً {الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ} (التوبة 67).

وقد توعدهم الله بالعذاب الأليم على موالاتهم للكافرين من دون المؤمنين. فقال {بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ، الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ العِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعًا} (النساء 138). وقال {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ} (المنافقون 8).

---

[1] رواه البخاري رقم 5990 .

ولا يمكن للكفار ولا المنافقين أن يتخذوا المؤمنين — عباد الرحمن — أولياء لهم من دون الله. قال تعالى {أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاء} (الكهف 102). وإنما يواليهم من صفوف المؤمنين المنافقون المحسوبون على المؤمنين وهم عند الله من جملة الكفار.

ولذلك لما تولى منافقو المدينة اليهود ضد المؤمنين آخى الله بينهم برباط الأخوة في الكفر فقال {أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ} (الحشر 11). ولا عجب فالله تعالى يقول {وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ} (المائدة 51). ويقول رسولنا ρ "المرء يوم القيامة مع من أحب"(1). فمن قوماً حشر معهم، وكان في زمرتهم يوم القيامة.

وكل من أحب كافراً وظاهره وتولاه واستنصر به على مؤمن ومكنه منه فإنه من جنس هذا الكافر، وهو أخ له. فموالاة الكفار والظلمة المشركين ركون إليهم، وقد توعد الله الذين يركنون إليهم ويخضعون لهم ويصانعونهم بالعذاب يوم القيامة. قال تعالى {وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ} (هود 113).

(1) رواه البخاري 6170 ومسلم 2640 .

الفرق بين البر والموالاة

على أن هناك فرقاً بين موالاة الظالمين وبين مجرد البرّ بهم، ومعاملتهم بالقسط والعدل لا سيما فيما يتعلق بالوالدين إذا كانا كافرين، أو بر الكفار الذين لا يحاربوننا في ديننا.

وهذا التفريق مستفاد من قوله تعالى:

{وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ} (المائدة 2) وقوله {وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى} (المائدة 8).

مصدر التفريق بين البر والولاء

وقد فرق الله بين الذين يقاتلوننا في ديننا وبين من لا يفعلون ذلك فقال {لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ، إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} (الممتحنة 8).

فذكر الله صنفين من أهل الكفر:

1- كفار لا يقاتلوننا في الدين.

2- كفار يقاتلوننا في ديننا محاربة لله ولرسوله ρ ، وصداً عن سبيل الله.

ومع أنه أباح لنا أن نبرَّ الفريق الأول دون الثاني، إلا أنه لم يحل لنا أن نتولى أياً منهما.

والفرق بين كلا الفريقين كامن في العدل والإنصاف وليس في الموالاة. فموالاة الكفار محرمة سواء كانوا كفاراً محاربين أم كفاراً مسالمين.

3- وقد أمرنا الله أن نكون مقسطين منصفين دائماً مع كلا الفريقين وسواء مع إخواننا أو مع أعدائنا. قال تعالى {وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى}.

(نواقض الإيمان)

السحر والشعوذة

السحر من أنواع الشرك ولا يحصل إلا بالاستعانة بالشياطين والتقرب إليهم بما يغضب الله جل وعلا.

والسحر عزائم ورقى وعُقَد تؤثر في القلوب والأبدان، فتُمرض وتقتل وتفرّق بين المرء وزوجه كما قال تعالى {فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ} (البقرة 102).

غير أن عمل السحرة لا يؤثر في المسحور إلا أن يشاء الله كما قال {وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ} فقد يأذن الله بعقوبة فاسق غافل عن ذكره معرضاً عن دينه، قد جرّد نفسه بفسقه وبُعده عن الله من السلاح المضاد للشياطين وصار بذلك عرضة لعبثهم وأذاهم. وإنما الحصن من كيد السحرة وشياطينهم هو الاعتصام بالله وطاعته وكثرة ذكره. لا حصن ولا حماية من أذاهم إلا بذلك.

وقد تكون إصابته بالسحر أو العين ابتلاء لمدى صبر العبد، والابتلاء يحصل به أحد اثنين: إما أن يرفع الله له الدرجات ويكثر الحسنات أو يُكفّر عنه السيئات جزاء له على بصره.

ويدخل في مسمى السحر ما يفعله بعض الناس اليوم مما يسمى (خفة يد) أو (تحضير الأرواح) وغيرها من أفعال الشعوذة والدجل.

أقسام السحر

والسحر قسمان:

أحدهما: سحر خيالي. قال تعالى عن سحرة فرعون {فَلَمَّا أَلْقَوْاْ سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ} (الأعراف 116) فإنهم لما ألقوا عصيهم أمام موسى: صار {يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى} (طه 66) أي خُيّل إلى موسى أن الحبال تسعى حية تمشي.

الثاني: سحر حقيقي أمرنا الله أن نستعيذ من أهله {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَق ، مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ، وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ، وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ} أي من الساحرات اللواتي ينفخن في عقد السحر. ولولا أن له حقيقة ما أمرنا الله أن نستعيذ منه.

وقد تعرض النبي ρ لسحر لبيد بن الأعصم اليهودي[1] فصار يُخَيّل إليه أنه يأتي النساء وهو لا يأتيهن، حتى أتاه ملكان فحلا ما عقده له. قال زيد بن أرقم[2] "سَحَر النبي ρ رجلٌ من اليهود، فاشتكى لذلك أياماً فأتاه جبريل فقال: إن رجلاً من اليهود سحرك".

---

[1] رواه البخاري 5766 .
[2] رواه النسائي 112/7 بسند صحيح .

قال النووي "وقد أنكر بعض المبتدعة هذا الحديث فزعموا أنه يحط من منصب النبوة ويشكك فيها ويمنع الثقة في الشرع، وهذا الذي ادعاه هؤلاء المبتدعة باطل لأن الدلائل القطعية قد قامت عل صدقه وصحته وعصمته ρ فيما يتعلق بالتبليغ والمعجزة شاهدة بذلك".

ثم نقل عن القاضي عياض أن التخيل كان بالبصرة لا خللاً تطرق إلى العقل وليس في ذلك ما يُدخل لبساً على الرسالة ولا طعناً لأهل الضلالة[3] فإن التخيل الذي وقع له شبيه بالتخيل الذي حصل لموسى عليه السلام حين ألقى سحرة موسى حبالهم وعصيهم فظنها موسى حية كما قال تعالى {يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى} فقد تخيل موسى شيئاً لم يكن على حقيقته. وهو عين ما وقع للنبي محمد ρ حيث صار يخيل إليه أنه كان يأتي النساء وهو لا يأتيهن.

حكم السحر في الإسلام

وقد حكم مالك وأحمد وأبو حنيفة بكفر الساحر. واستدلوا بقوله تعالى {وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَـكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ} (البقرة 102) وقوله {وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ}. قال ابن عباس وذلك أنهما عرفا أن السحر من الكفر. وكتب عمر بن الخطاب أن اقتلوا كل ساحر وساحرة.

---

[3] شرح مسلم للنووي 425/14 .

الكهانة والعرافة من أنواع السحر

الكاهن هو الذي يخبر عن المضمر فيصيب بعضاً ويخطئ البعض الآخر، ويزعم أنه يعلم الغيب وما في المستقبل وأن الجن تأتيه بالخبر[1] يدعي لنفسه ما هو من خصائص الله وحده كما قال تعالى {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً} (الجن 26).

وهذا الغيب الذي يدعيه الكاهن بواسطة التنجيم أو الضرب بالرمل أو المندل إنما يتلقاه من الشياطين الذين يخبرونه عن الشيء الذي يرونه هم ولا يراه هو، ويكون غائباً عن أعين الأنس لا عن أعين الجن وذلك لسرعة تنقلهم في أماكن بعيدة في وقت يسير.

لا يعلم الغيب إلا الله

وهذا لا يسمى علماً بالغيب أما العلم بالغيب فهو خاص بالله تعالى لا يقدر عليه أنس ولا جان، قال تعالى {قُل لا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلا اللَّهُ} (النمل 65). بل لا يقدر عليه الأنبياء الذين هم أحب الخلق إلى الله. فقد أمر الله نوحاً عليه السلام أن يقول {وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ} (هود 431). وأمر محمداً ρ أن يقول {وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ} (الأعراف 188) فكيف ينالها من هم دونهم؟

ونحن نرى هؤلاء يبغتهم الموت من غير أن يحيطوا علماً بموعد موتهم!!.

أما الجن الذين يزودونهم فقد كشف الله جهلهم بالغيب حين مات سليمان عليه السلام وبقي متكئاً على عكازته فلم يسقط على الأرض مع أن الجن كانت تمر بين يديه ولا تعلم شيئاً عن موته، فلما أكلت الأرضة عصاه سقطت فخرّ على الأرض، عندها علمت الجن بموته[2] قال تعالى {فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ} (سبأ 14).

والكاهن تتنزل عليه الشياطين. قال تعالى {هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ، تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ، يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ} (الشعراء 222). ولقد سئل رسول الله ρ عن الكهان فقال: ليسوا بشيء. قيل له: يا رسول الله إنهم يحدثوننا أحياناً بالشيء فيكون حقاً! قال: تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني، فيقذفها في أذن وليه فيخلطون معها مائة كذبة(1). ومن وراء هذا الاستراق تم استغلال البسطاء من عامة الناس وادعاء أن لهم عند الله كرامات وأنه أعطاهم أسراره ومنحهم علوم غيبه.

حكم تعليق الحجابات

ويعطي الكهان والسحرة الناسَ حُجباً ورقى وتمائم لتعليقها على الصدر، يسمعونها (حجاب الحصن الحصين) يخلطون فيها الآيات القرآنية بكلمات مبهمة وأرقام متفرقة وطلاسم مستقاة من وحي الشياطين. يزعمون أن فيها شفاهم وحصنهم من أي

---

(1) الزواجر عن اقتراف الكبائر 2: 109 .

(2) تفسير ابن كثير 3: 527 .

(1) أخرجه البخاري 6213 ومسلم رقم (2228).

أذى، ولكي لا يفتضح حالهم فإنهم يُحكِمون إغلاقها ويحذرون من يعطونها له من فتحها غاية التحذير وإلا حصل له الأذى.

وبهذا يُلَبِّسُون على الناس دينهم ويسلبونهم أموالهم، ويتسببون في وقوع العداوة بين الأقرباء بما ينشأ عنه قطع الأرحام. يقول الكاهن لمن يأتيه ويصدقه: "قد سحرك أقرب الناس إليك: أمك أو أختك أو زوجتك".

وهذا منتهى ما تسعى إليه الشياطين. قال تعالى {فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ}.

ولقد جاءت الشريعة الإسلامية بدفع هذا الفساد وتجنيب الناس منه. وحرمت تعليق شيء من التمائم المسماة بالحجب. فعن عقبة بن عامر أن النبي ρ قال "من تعلق تميمة[2] فقد أشرك" وفي رواية "فلا أتم الله له، ومن تعلق ودعة[3] فلا ودع الله له[4].

(2) ما يعلق في العنق لدفع العين .
(3) خرز أبيض مجوف يستخرج من البحر .
(4) رواه أحمد بإسناد حسن 4ك 156 والحاكم 4: 219 .

حكم من أتى كاهناً

عن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ρ قال "من أتى عرّافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أُنزل على محمد"[1] وفي رواية "لم تُقبَل له صلاة أربعين يوماً"[2].

حكم الكاهن نفسه

وإذا كان هذا حكم من أتاه وصدّقه، فالحكم بكفر الكاهن أو السحر من باب أولى. فإن كلا منهما قد صيَّرَ نفسه خادماً للشيطان، وله وسائل يستخدمهما في إغواء الناس وتضليلهم وإخراجهم إلى البدع والشرك والكفر. فهم والسحرة أحرى أن يوصفوا بأنهم "دعاة الشيطان".

كيف يُكتشف أمر الكاهن

ومن الممكن التعرف على حقيقة هذا الدجال بالاستخبار عن أقواله وأفعاله، ومقارنتها بالكتاب بالسنة، فإن كل كاهن أو عراف أو دجال معه من الكذب والمخالفات الصريحة للشريعة ما يسهل به كشف كذبه. وهؤلاء يروج سوقهم كلما راج الجهل بين الناس. لا شك أن تعلم أمور الدين ونشره بين الناس دواء من هذا الداء.

التنجيم نوع من أنواع السحر

وهو الاستدلال بالكواكب الفلكية على الحوادث الأرضية ومعرفة الأمور المستقبلية. ومع إطلالة كل عام يطلع المنجمون بأكاذيب واختلاقات وتنبؤات ينتهي العام لثبت كذبها. يحدد هؤلاء الدجالون أنواعاً عديدة من الحوادث بحسب الأبراج والنجوم.

فأصحاب برج الجوزاء تنتظرهم سعادة كبرى، أما أصحاب برج العذراء فينتظرهم بؤس وشقاء. ويزعمون أنهم يتلقون هذه الأخبار من النجوم. مع أن اقتباس الأخبار من الكواكب والنجوم لا حقيقة له، إنما هو من قبيل الشعوذة والسحر.

والمعروف من حال المنجمين: الاستعانة بالشياطين واعتقادهم أن النجوم ذات أرواح فاعلة. ولذلك قال رسول الله ρ "من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر"[1].

وفي الحديث القدسي أن الله يقول "أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر. فأما من قال: مُطِرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب. وأما من قال: مُطِرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب"[2].

---

(1) رواه أحمد 149/2 والحاكم 8/1 بسند صحيح .
(2) رواه مسلم 2230 .
(1) رواه أبو داود بإسناد صحيح (3905) .
(2) أخرجه البخاري 7503 ومسلم 71 .

وقال ρ محذراً من انتشار المنجمين وتصديقهم "أن أخوف ما أخاف على أمتي ثلاث: حيف[3] الأئمة، وتكذيب بالقدر، وإيمان بالنجوم[4].

ولا شك أن الله تعالى خلق الكواكب والنجوم لحكمة بالغة وعظيمة تختلف عما زعمه المنجمون الذين يدعون أن حركات الخلق وسكناتهم ومقادير أرزاقهم مرتبطة بها.

وأوضح قتادة رحمه الله الحكمة من خلق النجوم والكواكب فقال "خلق الله هذه النجوم لثلاث:

1) زينة للسماء.

2) رجوماً للشياطين.

3) علامات يهتدى بها. كما قال تعالى {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} (الأنعام 97). فمن تعاطى فيها غير ذلك فقد قال برأيه، وأخطأ حظه، وأضاع نصيبه وتكلف ما لا علم له به[5] والله ما جعل الله في نجم حياة أحد ولا رزقه ولا موته، وإنما يفترون على الله الكذب، ويتعللون بالنجوم".

والنفوس البشرية تتوق إلى معرفة ما ينتظرها من رزق وخير وتتطلع بعين فضولية إلى معرفة عواقب الأمور من حوادث أو بشائر أو موت أو شر، لجهلهم بحقيقة مهمة يفرض الإسلام اعتقادها وهي أن علم الغيب خاص بالله وحده.

ويستغل بعض الدجالين انتشار الجهل عند الناس، ويزداد انتشارهم مع ازدياد انتشار الجهل بين الناس، ومن هنا كان انتشار العرافين في القرى أكثر منه في المدن. ولا تكاد تخلو قرية من قارئ كف أو فاتح مندل أو قارئة فنجان.

لذا يحرم على كل مسلم يتقي الله أن يتردد على هؤلاء لما يتركونه من أسوأ الأثر على معتقده. كما يحرم عليه أن يرى الناس يترددون على أمثال هؤلاء ثم هو يسكت عن ذلك أو لا يحذر منه. فإن مهمتهم عند الشيطان تشويش عقائد المسلمين.

ما البديل عن العرافين والكهان؟

قد يقول قائل: قد عرفنا كذب هؤلاء العرافين. فما هو البديل عنهم؟

والجواب أن قراءة القرآن وتعاهد الأذكار الشرعية هو الداء الحقيقي والسلاح القوي الذي تضعف الشياطين أمامه.

وأما الذين يتخذون الشياطين أخلاء وقرناء يتولونهم ويطيعونهم في معصية الله — لا يصلون ولا يصومون ويرتكبون الفواحش — فلا يحق لهم المطالبة بالبديل لأن معاصيهم قد جرّدت سلاحهم من الشيطان، فلا حصانة لهم منه ولا وقاية. فإذا أصابهم

---

[3] أي ظلمهم .
[4] الحديث حسن لغيره كما قال المناوي في الفيض 1: 204 .
[5] ذكره البخاري تعليقاً: كتاب بدء الخلقك باب في النجوم .

أذى من الشيطان من مس ونحوه تهافتوا على الكهان والسحرة يطلبون عندهم الدواء. فهؤلاء هم أول ضحايا السحرة والكهان والعرافين.

بخلاف المؤمن بربه المتوكل عليه، فالأمر معه على عكس ذلك، فإن الشياطين هي التي تخافه وتتنحى عنه. ولذلك يقول ربنا عز وجل {فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ، إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ، إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ} (النحل 99).

وعلى المسلم التصديق بقوله تعالى {إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً} (النساء 76). غير أن هذا الضعف يكون بسبب النور والإيمان والملائكة الذين يؤيد الله بهم عبده المؤمن، فيصير معه من النور والإيمان والملائكة التي تحرسه ما يجعل الشياطين تهابه بل تفرّ منه.

خطوات التحصين من الشيطان

* إذن لا بد من الخطوات التالية:

1) الإقلاع عن الذنب والمسارعة إلى التوبة.

2) اجتناب البدع والمحدثات والتوبة منها والتقرب إلى الله بما شرع لا بالبدع.

3) أداء المفروضات التي افترضها الله على عباده من صلاة وصيام وزكاة وحج.

4) الإكثار من ذكر الله والمحافظة على الأذكار التي علمنا رسول الله ρ في الصباح والمساء وعند دخول البيت والخروج منه وعند دخول بيت الخلاء والخروج منه، وعند النوم والقيام منه. والمداومة على قراءة الفاتحة والمعوذات وآية الكرسي عند كل طلوع شمس وغروبها وعقب كل صلاة.

5) أداء السنن والنوافل في البيوت وليس في المسجد، فإن البيوت الخالية من الذكر والصلاة أشبه بالقبور الموحشة.

6) قراءة سورة البقرة في البيوت ولو في الشهر مرة واحدة على الأقل فإن الشياطين تنفر من البيت الذي تُقرأ فيه سورة البقرة.

7) إكرام الملائكة الذين جعلهم الله حفظة لنا يحفظوننا بأمر الله من أذى الشياطين، والملائكة لا يبقون في مكان يعمل فيه بمعصية الله وإذا خلا المكان من الملائكة اغتنمت الشياطين الفرصة وملأته.

8) الصبر والتوكل على الله والثبات على الدين فإنه لو اجتمعت الإنس والجن على أن ينفعوا العبد: لم ينفعوه إلا بشيء قد كتبه الله له، ولو اجتمعوا على أن يضروه: لم يضروه إلا بشيء قد كتبه الله علهي. وما أصابنا لم يكن يخطئنا، وما أخطأنا لم يكن ليصيبنا.

شبهتان وجوابهما

الشبهة الأولى: قد يقول قائل: دعوت الله أن يصرف عني المرض فلم يحدث شيء وذهب غيري إلى الكهان فذهب عنهم ما كانوا يجدونه.

(1) وكأن هذا القائل يرجو من العرافين ما لا يرجو من الله، وكأنهم في نظره أسرع إجابة من الله. أليست تلك هي النتيجة التي يسعى الكهان والسحرة إليها وتعمل من أجلها الشياطين. يريدون منه أن ييأس من دعاء الله، بينما لا ينقطع رجاؤه فيما عند العرافين والدجالين.

ألم يقل النبي ρ "يُستجاب لأحدكم ما لم يعجل. قيل: وكيف يعجل يا رسول الله؟ قال: يقول دعوت ربي فلم يستجب لي. فيستحسر عند ذلك ويترك الدعاء[1].

وهو لا يترك الدعاء فحسب، بل يلجأ إلى ما حرمه الله من التردد على العرافين والكهان. ولربما كان مرضه اختباراً من الله ليرى أيثبت على الطاعة أم يضعف إيمانه فينفد صبره ويأتي الكهان والعرافين مع علمه بتحريم ذلك.

ومن يدري لعله إذا صبر أن يكون ذلك سبباً في دخوله الجنة. فقد جاءت امرأة سوداء إلى النبي ρ فقالت: إني أُصرَع وإني أتكشف فادع الله لي. فقال: إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله أن يعافيك. فقالت: أصبر. ولذلك كان ابن عباس إذا رآها يقول لمن معه: ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ فيقال له: بلى. فيقول: هذه المرأة السوداء.

أما الناس اليوم فهم على الشد من هذه المرأة: لا يصبرون، بل يطلبون الدواء بالتردد على الكهان والعرافين. فهل رخصت الجنة عندهم؟ وهل يقاس عذاب الدنيا بنار الآخرة؟

* أن الله قد يدخر له بسبب هذا المرض المكروه خيراً كثيراً كان يغفر ذنوبه لكيلا يعذب عليها في الآخرة، فيخرج من الدنيا بعد ذلك نقياً من الذنوب.

* هب أن هذا المرض مزمن ويصعب برؤه منه، فإن هناك أمراضاً بدنية أيضاً ليس لها في الوقت الحاضر دواء إلا أن يشاء الله، مثل مرض السرطان والإيدز.

* أليس العبد المؤمن يوجه المصاعب والمخاطر ويخرج من بيته وأهله ويترك ليجاهد فيموت في سبيل الله عز وجل؟ فما بال قوم يفضلون الوقوع في الكفر وكبائر الذنوب على صبرٍ قد يكون كفارة لذنوبهم.

الشبهة الثانية أن يقول القائل: أن آخرين ذهبوا إلى العرافين والكهان فحصل الشفاء على أيديهم. فالجواب عن ذلك على النحو الآتي:

* أن هذا الشفاء ربما كان خدعة شيطانية واستدراجاً إلى تصديق الكهان، بل يحتمل أن يتزامن هذا الشفاء مع إتيان الكاهن وليس بسبب فعله.

---

[1] أخرجه البخاري 6340 ومسلم 2735 .

* أن هذا الشفاء ربما كان استدراجاً له من الله وعقوبة له، لأن إتيان هؤلاء الذين حرم الله المجيء إليهم هو مرض في الدين أعظم خطراً من الأمراض البدنية.

* هل حصول الشفاء دليل على صحة هذا الفعل؟ وهل التجربة مصدر تشريعي في التحليل والتحريم؟ ولو قيل ثبت بالتجربة أن الخمر دواء من مرض كذا فهو يجوز شربها للشفاء بعد أن قال ρ "ما جعل الله دواءكم من حرام"! أم أنه يجب علينا الثقة بأن ما حرمه الله يكون حراماً وإن دلت التجربة على خلافه؟

* ليس كل ما تحصل معه المنفعة يكون دليلاً على الجواز. فالجهاد في سبيل الله تعالى قد تتعطل معه المتع والفوائد الدنيوية غير أن ثوابه في الآخرة عظيم جداً.

الطيرة

الطيرة هي التشاؤم بالأشياء سواء كان التشاؤم بشيء معين سواء كان رقماً أو حيواناً أو غير ذلك. وقد أبطل الإسلام ذلك بعد أن كان شائعاً في الجاهلية. وأرشد إلى أنه لا تأثير لذلك في جلب المنافع ودفع الضرر.

حكمها

أنها محرمة شرعاً وهي من الشرك الأصغر المنافي لكمال التوحيد، للأسباب التالية:

* لأنه قد يَعتَقِد أن النفع والضر كامن فيها.

* لأنها تصير بالتالي توكلاً على غير الله.

* لأنها تعلق القلب بغير الله عز وجل.

* أنها تولد في نفس العبد الخوف والاضطراب النفسي.

* أنها وسيلة إلى الشرك الأكبر يبثها الشيطان بين الناس لاستدراجهم إليه وإيقاعهم فيه.

قال رسول الله ρ [(1)]"الطيرة شرك، الطيرة شرك" قال ابن مسعود "وما منا إلا، ولكن الله يُذهبه بالتوكل". أي وما منا إلا يَعْرُضُ له شيء من الطيرة ولكن الاعتماد على الله والتوكل عليه يبطلانه.

ومع أن الغرب يعيش اليوم عالماً مادياً بحتاً إلا أنه غارق في بحر من الأوهام والهواجس، وتنتابه المخاوف من كل صوب، وتزيده أفلام الرعب والتشاؤم خوفاً، ولا عجب أن ترى الغربيين اليوم بالرغم من ماديتهم يتطيرون من أشياء لا واقع لها مثل تشاؤمهم من الرقم (13) أو الرقم (666) أو تشاؤمهم من يوم الأربعاء أو من البومة والغراب، ويعتقدون أنه إذا حط فوق بيوتهم غراب أو بوم فإن كارثة ستحل في دارهم.

---

(1) رواه أبو داود 3910 والترمذي 1614 بسند صحيح .

التمائم

وهي ما يُعلّق على الأعناق وغيرها لجلب منفعة أو دفع مضرة كالإصابة بالعين ونحوه.

وقد أبدلنا الإسلام عنها بالأذكار وتلاوة القرآن. فقدك روى عبد الله بن مسعود قول النبي ρ "إن الرقى والتمائم والتولة شرك"[1] فقالت له زوجته: لِمَ تقول هذا؟ والله لقد كانت عيني تقذف، وكنت أختلف إلى فلان اليهودي فيرقيني فإذا رقاني سَكَنَتْ، فقال عبد الله: إنما ذلك عمل الشيطان، كان ينخسها بيده، فإذا رقاها كف عنها. وإنما كان يكفيك أن تقولي كما كان رسول الله ρ يقول: [اللهم] أذهب البأس رب الناس، إشفِ وأنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاءً لا يغَادر سقماً".

[1] رواه أبو داود 3883 بسند حسن. والتولة ضرب من السحر تستعمله المرأة لتحبب بها زوجها .

الرقى

وهي ما يُرقى به المريض ويُقرأ عليه سواء من القرآن أو من الأذكار النبوية.

وهي مشروعة لحديث عوف بن مالك "كنا نرقي في الجاهلية، فقلنا للنبي ρ كيف ترى ذلك؟ فقال "أعرضوا عليّ رقاكم ما لم تكن شركاً"[1]. وقد لدغت عقربُ رجلاً فقال جابر بن عبد الله للنبي ρ أرقي؟ قال "من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل"[2]. ولكن يُشترط للراقي شروط:

* أن تكون الرقية بكلام الله وهي أفضل أنواع الرقى لقوله تعالى {وَنُنَزِّلُ مِنَ القُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ} (82 الإسراء).

* أن تكون بالأذكار الشرعية.

* أن تكون بكلام مفهوم المعنى. وليس كما يفعله الدجالون من الحروف المقطعة والأرقام والنجوم والطلاسم المكتوبة داخل مربعات. فهذا محرم، وقد تقدم بيانه.

* ألا تشتمل على محرم كالاستغاثة بغير الله من الأولياء والصالحين أو ذِكرُ أسماء الجن.

* ألا يُعتَمد عليها أو يتعلق القلب بها أو أنها مؤثرة بذاتها بل شفاؤها بإذن الله فقد تحصل الرقية بكلام الله ولا تحصل بذلك إرادة الله بالشفاء.

---

[1] رواه مسلم 2200 وأبو داود 3886 .

[2] رواه مسلم 2199 .

تحضير الأرواح

هل يمكن تحضير الأرواح ؟

هل يمكنها أن تنقل أنى ومتى شاءت ؟

هل تستطيع أن تخبر بما يحدث لها الآن من نعيم أو عذاب ؟

يجيب القرآن {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً} (الإسراء 85) والمعنى ليس عندنا علماً بحقيقتها وكيفية انتقالها، مما يؤكد بأن مسألة تحضير الأرواح إنما هي تحضير شياطين للأسباب التالية:

* أن الروح من عالم الغيب الذي اختص الله بعلمه.

* أن الله أخبر أن النفوس إذا خرجت تعود إليه كما قال {يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ، ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً} (الفجر 28).

* إن الأرواح تنتقل بعد الموت إلى عالم البرزخ: إما إلى جنة وإما إلى نار.

أن الله تحدى الخلق أن يُرجعوا الروح بعد خروجها من الجسد فقال {فَلَوْلا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ، تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} (الواقعة 87).

* فمن زعم أنه يستطيع تحضيرها فقد زعم إرجاعها.

* أن الله أخبرنا أنه متى قضى الموت على العبد فإنه يمسك روحه فيمسك التي قضى عليها الموت (الزمر 42). وأنه متى أمسكها لا يُرجعها من الله دجال ولا كذاب. قال تعالى {قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ} (السجدة 11).

* أنه لو كان للإنسان مقدرة على تحضير الروح فلماذا لا يحضرها أثناء مفارقتها الجسد؟ أو يحاول إعادتها إلى جسد الميت ويخرجه من قبره حياً؟

الخدعة في تحضير الأرواح

ويعتمد هؤلاء طريقة الخداع والإيهام النفسي عند إجراء عملية التحضير في غرفة مظلمة ليس فيها إلا بعض النور الأحمر الضعيف يختبئ فيها بعض المتعاونين مع المحضِّر، فيَظهَرون بلباس معين أو يصدرون أصواتاً وصراخات.

وبعضهم يعتمد على الشعوذة والاتصال بالجن. فيأخذون عن الدجال اسم الميت المطلوب تحضيره واسم أمه، وينادون من كان قريناً له من الجن، فيَحضر ويتمثل بصورة الميت ويقلد صوته ويخبر عن أشياء كان يعرفها عنه بحكم اقترانه به حين كان حياً فيصدق قريب الميت ولا يدري أنه كان يخاطب شيطاناً.

وهذا الخداع قد استحكم في معتقدات كثيرين من العامة والمتصوفة الذين أكدوا أن أرواح مشايخهم وأوليائهم تأتي وتذهب وتحضر على أقاربها وتلاميذها، وتلقنهم التربية والحكمة، ويأخذون عليهم المبايعة، وقد درجوا على تسميتهم بـ (رجال الغيب) وأنهم يخرجون من قبورهم ويقضون حوائج من يدعوهم ويستغيث بهم ثم يعودون إليها".

وبذلك يتضح أن ادعاء تحضير الأرواح ليس إلا لعبة يراد من ورائها إفساد دين المسلمين وأكل أموالهم بالباطل، وانتهاك أعراضهم وحرماتهم، ونشر فوضى الاعتقاد الباطل والخرافات بينهم.

الإيمان بالقضاء والقدر

الإيمان بالقضاء والقدر

الإيمان بالقدر أصل من أصول الإيمان وركن من أركانه لا يقبل الله من العبد عملاً ما لم يؤمن به.

تعريف القدر: هو ما سبق به علم الله، وجرى به القلم مما هو كائن إلى الأبد وأن الله قدّر مقادير الخلائق قبل أن تكون. وعلم أنها ستقع في أوقات معلومة، وعلى صفات مخصوصة فهي تقع على حسب ما قدر الله لها أن تقع.

الفرق بين القضاء والقدر

وقد فرق قوم بين القضاء وبين القدر فقالوا:

القدر: علم الله بما تكون عليه المخلوقات في المستقبل.

والقضاء: إيجاد الله للأشياء حسب علمه وإرادته.

* وحقيقة الإيمان بالقدر أن تؤمن أنه ما من شيء في الكون من إحياء وإماتة ومرض وصحة وفقر وغنى إلا بتقدير الله ومشيئته. قال الطحاوي رحمه الله "وكل شيء يجري بتقديره ومشيئته، ومشيئته تنفذ، لا مشيئة للعباد إلا ما شاء الله، فما شاء لهم كان، وما لم يشأ لم يكن، لا رادّ لقضائه ولا معقب لحكمه"[1].

مفهوم القدر بين الإفراط والتفريط

ويجب أن يكون الإيمان بالقدر سليماً من المفاهيم الخاطئة التي وقع فيها كثيرون وأحبطت أعمالهم.

فعن يحي بن معمر قال "لقينا عبد الله بن عمر فقلنا له: أنه قد ظهر عندنا أناس يقرأون القرآن، ويتقفرون العلم [أي يطلبونه ويجمعونه] ويزعمون أنه لا قدر وأن الأمر أنُف [أي أن الأمر مستأنف. دون علم الله وتقديره. وأنه لا يعلم به إلا عند وقوعه] فقال عبد الله: فإذا لقيت أولئك، فأخبرهم أني بريء منهم وأنهم براء مني، والذي يحلف به عبد الله بن عمر: لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه[1] ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر"[2].

* وقال ابن عباس " والقدر نظام التوحيد. فمن وحد الله وكذب بالقدر: نقض تكذيبُه توحيدّه"[3].

أصل الإيمان بالقدر

ومبدأ الإيمان بالقضاء والقدر قائم على أصلين مهمين:

---

(1) شرح الطحاوية شرح الألباني ص 153 .

(1) يبدو أن الراوي – وهو يحي – ذكر لهؤلاء بعض الفضل من صدقة وجهاد غير أن ابن عمر علق قبول ذلك بصحة اعتقادهم في القدر .

(2) رواه مسلم رقم (8) في الإيمان .

(3) رواه اللالكائي (1224) والآجري في الشريعة (215) .

الأصل الأول الإيمان بأن الله علم بعلمه القديم أعمال عباده وأرزاقهم وآجالهم قبل أن يخلقهم. وكتب في اللوح المحفوظ ما قدره لكل فرد من مخلوقاته، وأنه يأمر الملك أن ينفخ الروح في الجنين وأن يكتب أربعة أمور: رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد.

(فائدة مهمة) ومن تمل صفة (العلم) لله سَلِمَ من الزلل في مفهوم القدر. فإن الله يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن: لو كان كيف يكون. ويعلم أن لو عاد الكفار إلى دار الدنيا لعادوا إلى كفرهم كما قال {وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} (الأنعام 28) ولو فتح أسماعهم لتولوا وهم معرضون كما قال {وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ}. فعلمه السابق بكفرهم لا يعني أنه أجبرهم عليه.

فإنه أثبت لهم المشيئة بقوله {فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ} (الكهف 29) {لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ} (التكوير 28) وأثبت لهم الفعل فقال {إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} (الطور 16). لكن مشيئته غالبة على مشيئة من سواه كما قل {وَمَا تَشَاؤُونَ إِلا أَن يَشَاء اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} (التكوير 29).

* فمن عصى لم يعصه رغماً عن إرادة الله، لكن الله يفعل ما يشاء، وقد شاء أن يجعل له محض الاختيار بين الخير والشر، الشيء الذي لم يجعله لملائكته.

مفاسد اعتقاد الجبرية

ولو كان العبد مجبوراً على فعل المعصية للزم من ذلك لوازم فاسدة، منها:

1) أن لا يحاسبه الله على معصيته. ولا يثيب الطائع على طاعته، إذ كيف يجبره على فعل شيء ثم يعاقب العاصي ويثيب الطائع!

2) أن لا يحاسب اليهود والنصارى والمشركين لأنهم لم يعصوه بإرادتهم وإنما أجبرهم على ذلك!!

3) أن هذه العقيدة تبرئ ساحة الظالم وتنسب ظلمه إلى الله الذي نهى عنه، فيصير التوبيخ والذم على المعصية متوجهاً حينئذ إلى الله لا إلى العبد. تعالى الله عن ذلك.

إذن: فالإيمان بالقدر على أربع درجات:

الأولى : الإيمان بعلم الله القديم وأنه علم جميع أحوال الخلق وآجالهم وما هم عاملون.

الثانية : أنه كتبه بعد ذلك في اللوح المحفوظ.

الثالثة : أن مشيئة الله نافذة وشاملة.

الرابعة : أنه موجد لكل المخلوقات وكل ما سواه مخلوق.

الأصل الثاني: الإيمان بأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه ما من حركة ولا سكون إلا بأمر الله وإذنه تكون. فما من مخلوق إلا والله خلقه، إذ لا خالق سواه. ومع هذا فإن الله أمر العباد بطاعته وطاعة رسله، ونهاهم عن معصيته ورسله. وهو سبحانه لا يظلم الناس شيئاً ولكن أنفسهم يظلمون ولا يحب الفساد، ولا يأمر بالفحشاء، ولا يرضى لعباده الكفر، ولم يجبرهم على فعل ما لا إرادة لهم فيه، وإنما قال {وَقُلِ الحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ} (الكهف 29).

تفنيد حجج المنحرفين في القدر

والذين أخطأوا في فهم حقيقة القدر بين إفراط وتفريط وتفرقوا في ذلك فرقاً عديدة منها:

الفريق الأول:

فريق آمنوا بالقدر واحتجوا به على الكفر والمعاصي. وقالوا إن الله هو الذي قدر علينا أن نعمل السيئة. فتبرؤوا من الظلم الذي ارتكبوه ونسبوه إلى الله تعالى. وهؤلاء هم الجبرية الذين يحتجون بالقدر ويجعلون الكفار والفساق والمنافقين مجبورين على الكفر والفسق والنفاق، لا إرادة لهم في دفع ذلك.

وكان على هؤلاء أن يحتجوا بشرع الله وبأوامره ونواهيه لا بقدره. فإن الله أنزل كتبه وأرسل رسله ليعمل العباد بمقتضاها لا ليحتجوا بقدر الله على المعاصي متشبهين في ذلك بالكفار الذين يقولون {لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ} فرد الله عليهم {إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ ، قُلْ فَلِلّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ} (الأنعام 148).

أي لو شاء لأكرهكم على الطاعة ولجعلكم كملائكته الذين {لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} (التحريم 6). وفي آية أخرى {وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا} فرد عليهم {قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} (الأعراف 28).

وهم لا يحتجون بمثل ذلك في أمور رزقهم ومعاشهم، فلا يمكن أن يجلسوا في بيوتهم من غير سعي للرزق ثم يقولوا: لو شاء الله ما قعدنا، وبعد ذلك ينتظرون لعل الله شاء لهم أن يموتوا منذ الأزل جوعاً !!!

ولا يقبل أحدهم أن يُضرَبَ يقول لضاربه: لو شاء الله ما ضربتني.

ولذلك روي أنه لما أتي عمر برجل قد سرق سأله: لم سرقت؟ قال: قدر الله لي ذلك. فأمر به فقطعت يده، ثم أمر بعد قطعها أن يجلد ثمانين جلدة حد الافتراء. فكان القطع للسرقة، والجلد لنسبته الظلم إلى ربه.

فمن عصى الله واحتج بأنه هو الذي شاء له ذلك. فقد ارتكب ذنبين أحدهما أعظم من الآخر:

أولهما معصيته لله.

ثانيهما نسبته الظلم إلى الله، وهذا أعظم من الأول. فإن من يعتقد ذلك فيسضطر أن يعذر النصراني واليهودي على كفره، لاعتقاده أن الله أجبره على كفره. وهذا منتهى الضلالة في فهم القدر.

الفريق الثاني

أمنوا بالقدر وأخرجوا الكفر والمعاصي من تقدير الله. فزعموا أن الله لم يخلقهما. وهؤلاء هم القدرية الذين ورد فيهم قول النبي ρ "القدرية مجوس هذه الأمة"[1] وبعضهم أنكر علمه السابق بأعمال العباد.

على أنه لا ينافي الإيمان بالقدر الأخذ بالأنساب التي أمرنا الله أن نأخذ بها. – قال رسول الله " ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة. فقالوا: يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا؟ قال: اعملوا فكل ميسر لما خُلِقَ له. أما من كان من أهل السعادة فيسصير لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاء فسيصير لعمل أهل الشقاء. ثم قرأ قوله تعالى {فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى ، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى} (الليل 7)[2].

ودخل رجل على النبي فترك ناقته خارجاً وقال "يا رسول الله: أعقِلها أو أتوكل؟ فقال له: أعقلها وتوكل"[3].

---

(1) الحديث حسن بطرقه وشواهده. قاله الألباني في المشكاة (107) .
(2) متفق عليه .
(3) رواه الترمذي وحسنه وهو حسن بشواهده .

أثر عقيدة القدر عند السلف الصالح

لقد كان لعقيدة القدر التي تلقاها الصحابة عن النبي أعظم الأثر. ويتجلى مفهوم القدر في الإسلام بأسمى معانيه متمثلاً في حديثين:

* **أولهما :** قوله لابن عباس "يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله. واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك: لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك. وإن اجتمعوا على أن يضروك: لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك. رُفِعت الأقلام وجفت الصحف".

ثانيهما : قوله ρ [1] "المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف – وفي كل خير – احرص على ما ينفعك. واستعن بالله ولا تعجز. فإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا وكذا لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدّر الله، وما شاء فعل. إن (لو) تفتح عمل الشيطان".

"هذه العقيدة ربّت في قلوبهم السكينة والعزة، فارتاحت أعصابهم وهم منطلقون لتبليغ هذا الدين إلى البشرية، وقد استصغروا قوى الأرض جميعاً أمام إيمانهم بقدر الله عز وجل".

"فأي سعادة تضفيها هذه العقيدة على النفس، وأي شجاعة انطوت عليها قلوب آمنت أن الأمر بيد الله، وأن البشر لا أمر لهم: إن قوى الأرض جميعاً لا تقف أمام إنسان يحمل هذا المبدأ وهذا الإيمان"[2].

"إن الإنسان الذي يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وأن الأمة لو اجتمعت لن تضره إلا بشيء قد كتبه الله عليه، وأنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها كما قال تعالى {وَلَن يُؤَخِّرَ اللّهُ نَفْسًا إِذَا جَاء أَجَلُهَا} وقوله {فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ}.

"إن هذا الإنسان وحده هو الذي يتحرر من العبودية للعباد بدخوله في العبودية لرب العباد، إذ كيف تنحني جبهته لأي قوة على ظهر الأرض وهو يعلم أن الأمر بيد خالق السماوات والأرض. وكيف تذل نفسه لعبد من تراب؟"

"إن هذه العقيدة لتنتزع كل مظهر للجبن من القلب الذي تعمره".

---

[1] رواه مسلم رقم (2664) .
[2] من كتاب الإيمان ص 119 للشيخ محمد نعيم ياسين .

الرضا بقضاء الله وقدره

إن المسلم ليفرح بنعمة أخرى وهي الرضا بقضاء الله وقدره في كل حال. ذلك أن هذه النفس ترى أن المقادير تجري بأمر الله ووفق مشيئته وتدبيره. وأن الأحداث تنبثق بحكمة الله وإرادته، وهو يعلم: والناس لا يعلمون. كما قال تعالى {وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ} (البقرة 216)[1].

لا سيما إذا تذكر عند المصيبة ذنوبه ومعاصيه فإن المصيبة تهون حينئذ، لا سيما حين يرجو معها المغفرة وحين يعلم أن المصائب تجلب معها الكفارات ومحو الخطايا. قال تعالى {وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ} (الزخرف 30).

وقال تعالى {مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ} (التغابن 11). فالمؤمن تنزل به المصيبة فيعلم أنها قدر الله، فيطمئن ويرضى ويسلّم، ولا يعترض على خالقه، بل يرجو أن ينزل معها الثواب والمغفرة ورفع الدرجات.

ثم يتذكر أن الأنبياء كانوا أشد ابتلاءً من جميع البشر فيقتدي بهم في ذلك ويستصغر مصيبته بجانب مصائبهم. قال رسول الله ρ "أشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يُبتلى الرجلُ على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة ابتُلِيَ على قدر ذلك، وإن كان في دينه رقة هُونَ عليه. فما يزال البلاء بالرجل حتى يدَعُهُ يمشي على الأرض وليس عليه خطيئة"[2]. وقال "ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا سقم ولا حزن حتى الهم يهمه إلا كفر الله به عن خطاياه"[3].

---

(1) نفس المصدر 120 .
(2) رواه الترمذي رقم (2400) بسند صحيح .
(3) رواه البخاري ومسلم رقم (2573) .

والله يختبر مدى صبر عبده لأن الصبر من الإيمان. وقد وعد الصابرين بالثواب العظيم كما قال {وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ، الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّـا إِلَيْهِ رَاجِعونَ ، أُولَـئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ} (البقرة 156) وقال {إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ} (الزمر 10).

قال رسول الله[1] "عجباً للمؤمن. إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سراء: شكرَ فكان خيراً له. وإن أصابته ضراء: صبَرَ فكان خيراً له".
وقد علمه نبيه ρ أن يقول عند المصيبة "إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي واخلفني خيراً منها"[2].

ومن هنا فإن الله تعالى لم يخلق شراً من جميع الوجوه، فإن المرض مثلاً شر ومصيبة عاجلة. لكنها خير له في الآخرة. فقد تكون سبباً في مغفرة ذنوبه.

أما غير المؤمن فإنه لا يرجو من ذلك شيئاً، ولا يزال أثر المصيبة يعمل عمله فيه حتى ينتكس ويصاب بالجزع والإحباط ويختل عند أدنى مصيبة فيصاب بالجنون فيفضل الانتحار على الصبر. فهو بين أن ينتحر أو يجن.

---

(1) رواه مسلم رقم (2999) .
(2) متفق عليه .

هل الإنسان مخير أم مسير ؟

لقد شغل هذا السؤال الكثيرين وصار مدار جدلهم في مجالسهم. الأمر الذي نهى عنه رسول الله ρ . فقد قال حين رأى أصحابه يتخاصمون في القدر "أبهذا أمرتم أم بهذا أرسلت إليكم؟ إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر، عزمت عليكم ألا تنازعوا فيه"[1].

والجواب على ذلك:

أن الإنسان مخير فيما أقدره الله على اختياره، فإن الله تعالى حثنا على اختيار الإيمان والعمل الصالح على الكفر والمعاصي. فنحن لنا الخيار في ذلك. والله يحاسبنا على سوء الاختيار.

وهو مسير فيما هو خارج عن قدرته مثل المرض وحوادث السيارات وغير ذلك مما هو خرج عن قدرتنا. ولذلك فإن الله لن يحاسب المريض لإصابته بالزكام مثلاً أو السرطان أو الشلل، ولن يحاسب العبد الذي أصابه حادث سيارة أو وقع عليه حائط أثناء مشيه اللهم إلا أن يكون التفريط منهم كائن في عدم الأخذ بأسباب اجتناب هذه الأمراض. ولن يحاسب العبد عن سبب حبس المطر أو عدم حصوله على الرزق لأن كل ذلك خارج عن نطاق القدرة البشرية. إلا أن يكون سبب انعدام ترك الأخذ بأسبابه.

فنحن في هذا ميسرون لا اختيار لنا، ولهذا قال ربنا عز وجل {وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ} (القصص 68). وقال {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُوراً} (الإنسان 2). وقال {وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ} (الكهف 28).

ففي الآية الأولى أثبت لنفسه الكريمة المشيئة والاختيار، ونفاهما عن غيره. وفي الآيتين الثانية والثالثة أثبت لعباده المشيئة والاختيار. إذن فليس هناك تعارض بين الآيات.

من فوائد الإيمان بالقدر

1) أن يعلم الإنسان أن ما أخطأه لم يكن ليصيبه وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه قال تعالى {مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ} (التغابن 11).

2) الرضا والتسليم لقضاء الله وقدره. ففي تتمة الآية السابقة {وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ} قال ابن عباس: أي يؤمن بقضائه وقدره. وقال ابن كثير في تفسير هذه الآية "أي ومن أصابته مصيبة فعلم أنها بقضاء الله وقدره: صبر واحتسب[1] واستسلم لقضاء الله وقدره: هدى الله قلبه وعوضه عما فاته من الدنيا هدى في قلبه ويقيناً صادقاً.

3) أن لا يندم على ما فاته، فإن ما فاته لم يكن ليدركه. وقد قال جبريل للنبي أخبرني عن الإيمان؟ فقال "الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وتؤمن بالقدر خيره وشره" زاد في رواية "وحلوه ومره".

---

[1] إسناده حسن بشواهده (قاله الألباني في المشكاة 98) .

[1] تفسير ابن كثير 375:4 .

وقد قال تعالى {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ} (القمر 49) وقال {وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً} (الفرقان 2) وقال {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ، الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ، وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى}.

(كلمات حول صلاح حال الأمة)

الاجتهاد والتقليد

ويأتي التقليد الأعمى ليكون أحد الوسائل المفسدة للدين بعد الشرك والابتداع:

وكما يوصَف من ينكر عبادة المسيح بأنه يناصب المسيح العداء، وكما يوصف من ينكر على الشيعة غلوهم في الأئمة بأنه ناصبي يناصب أهل البيت العداء: وكما يوصف من ينكر على مبتدعة هذه الأمة غلوهم في قبور الموتى من الصالحين (الأولياء) بأنه عدو للأولياء:

كذلك يوصف المنكر على التقليد الأعمى بأنه يناصب الأئمة الأربعة العداء ويدعو إلى نبذ مذاهبهم.

مثالان جديران بالتأمل والتدبر

المثال الأول:

لو أن مريضاً أتى طبيباً فقال له الطبيب: إنك مصاب بالسرطان. ثم أتى طبيباً آخر فقال له: ليس بك شيء.

ماذا يفعل؟ هل يخاطر ويقلد فيقول: أنا آخذ بقول الطبيب الثاني لأن الأول زعم أني مريض وأنا أحب أن لا يكون بي شيء. أم أنه يتحقق من الأمر ويتخذ أقصى احتياطاته ويأخذ من أقوال الأطباء ما ترجح عنده أنه أقربها إلى الصواب؟

ولو وصف كل منهم له دواءً مختلفاً عن الآخر فماذا يفعل؟ هل يقول: أنا آخذ بقول الطبيب الثاني لأن الدواء الذي وصفه أرخص الأدوية وأيسرها تناولاً وهل يتطلب هذا التحقق من المريض أن يكون طبيباً؟

فلماذا لا نفعل ذلك فيما يتعلق بالمذاهب إذا كنا حريصين على آخرتنا؟ فيتخير المسلم ما ترجح عنده أنه أقرب الأقوال إلى الصواب. ويكون حريصاً في دينه كحرصه في دنياه.

وهل أراد الأئمة باجتهادهم أن يكون لهم مذهباً يقلده الناس أم كانوا يعرضون اجتهاداتهم التي هم فيها بين مصيب ومخطئ ليعمل الناس بما ترجح صوابه وليكمّل من يأتي بعدهم مسيرتهم العلمية فيجتهد في حسم المسائل وفي الحكم على القول الراجح من الأقوال بكل إنصاف وبلا تعصب.

وهل كان هؤلاء الأئمة ليغضبوا على من يميز القول الراجح من بين أقوالهم المختلفة أم أن مرونتهم وفقههم وسعة عقولهم ورحابة صدورهم تجعلهم لا يعارضون ذلك؟ لقد كانوا يتّسمون بالسماحة والمرونة التي نفتقدها اليوم.

المثال الثاني

تصور لو أن الناس تعصبوا لمخترع لأول سيارة (مرسيدس) وأصروا على أن تصميمه للسيارة هو الأصح والأكمل وأنه لا يجوز لأحد أتى بعده أن يعدّل تصميمه ولا يطوره وإلا كان مجترئاً متطاولاً عليه، مدّعياً أنه أفضل منه عملاً وأكمل منه ذكاء!!

لو أن هذا حصل لبقيت هذه السيارة القديمة على حالها اليوم من غير تطوير ولا تحسين.

إن اجتهادات الأئمة السابقين ليست وحياً لا يجوز مساسه أو تغييره أو الاعتراض عليه، وإنما التعديل في اجتهاداتهم هو خطوة دينية في سبيل الأحسن. وإلا لو تعصبنا واعتبرنا قولهم دائماً هو الحق لشابهنا بذلك الشيعة القائلين: بأن كلام الأئمة هو من كلام الله وأن الرادّ عليهم رادّ على الله لأنهم يعتقدون أن الأئمة معصومين. وهذا التعصب كما سترى يتعارض تماماً مع منهج الأئمة النبلاء من هذه الأمة أمثال الشافعي وأبي حنيفة ومالك وأحمد وغيرهم.

أين نحن منهم؟

لقد كان الأئمة غاية في الإنصاف والتجرد للحق. يرجعون عن أقوالهم إذا تبين لهم مخالفتها للحق غير مبالين أن يصفهم أحد الجهال بالتناقض لأن الحق عندهم أحق أن يتبع. بخلاف من جاء بعدهم وجعل الرجالَ أولى بالاتباع من الحق. ولقد قال أبو حنيفة رحمه الله "نحن قوم نقول القول اليوم ونرجع عنه غداً" يعني إذا تبين لنا أنه خطأ.

وبالتالي فالمحذّر من التقليد الأعمى ليس داعياً إلى كُفرانِ فضلهم وإنما ينهى عما نهوا هم أنفسهم عنه من التقليد الأعمى حيث كانوا يقولون (لا تقلدوني). يجب علينا الاعتراف بفضلهم. ولا غنى لطالب العلم عن أقوال الأئمة واجتهاداتهم ليستعين بها في فهم نصوص الكتاب والسنة ولكن من غير أن يجعل مذاهبهم وفتاويهم مقدَّمة على كتاب الله وسنة رسوله ρ حاكمة بين الناس فيما اختلفوا فيه من دون التحاكم إلى الله والرسول. فإن هذا هو التقليد الذي كانوا يحذرون منه.

ثم من ذا الذي يزعم أن المذاهب الفقهية كانت أربعة؟ من زعم أن المذاهب أربعة فقط يكون مخطئاً: فالثوري كان له مذهبه والأوزاعي وابن حزم. لكنها انقرضت وبقيت المذاهب الحالية.

ما كان الشافعي شافعياً

لقد علمنا أن كلمة (شافعية) تعني: الذين ينتمون إلى الشافعي. ولكن ماذا كان مذهب الشافعي نفسه؟ هل كان الشافعي شافعياً أم أبو حنيفة حنفياً أم مالكياً أم كان مالك مالكياً أم كان أحمد بن حنبل حنبلياً؟

لندعه يعلن بنفسه عن مذهبه فيقول "إذا صح الحديث فهو مذهبي" وروى عنه المزني قوله "إذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول الله ρ فقولوا بها (أي بالسنة) ودَعوا ما قلتُه". وقال "كل ما قلتُ فكان عن النبي ρ خلاف ما قلتُ مما يصح: فحديث النبي

أولى فلا تقلدوني". وقال "أجمع المسلمون على أن من استبانت له سنة رسول الله ρ لم يكن له أن يدَعَها لِقولِ أحد"[1].

فالمقلد هو الذي أساء بحق الأئمة لأنه خالفهم في منهجهم، واتخذ الناس من أئمة المذاهب ذريعة للتقليد الأعمى، يقلدهم في كل شيء إلا في قولهم "لا تقلدوني". والتقليد الأعمى ترويض على تحجيم العقل وتحجيره لأنه لا يبالي بالدليل وإنما هو متعلق بشخص: لا يدعي بلسانه أنه غير معصوم، ولكن لسان حاله يؤكد اعتقاده بعصمته.

[1] سير الأعلام 33/10 آداب الشافعي ومناقبه 69 .

ومعلوم أن اجتهادات الأئمة قد تضاربت واختلفت بين من يرى حل المسألة وبين من يرى حرمتها. ولا يغيبنّ عنك أن الآراء الراجحة صارت مقسمة بين المذاهب، فتارة يكون الحق حليف الشافعي وتارة يكون حليف أبي حنيفة. وتارة يكون حليف مالك وتارة حليف أحمد. وهكذا. ولم يكن حليف مذهب واحد فقط دون الآخرين.

فإذا تنازعوا فيما بينهم وجب الرجوع إلى كتاب الله والسنة كما قال تعالى {فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً} وهم مع فضلهم وعلمهم فإنهم بشر غير معصومين ولهم طاقات محدودة. والعلم يستوعب الرجال ولكن الرجال لا يستوعبون العلم كله. وإذا كان تقليد الشافعي يعتبر عند الأحناف إهانة لأبي حنيفة. وتقليد أحمد إهانة لمالك عند المالكية: أما الذين يدورون مع الحق فهم المعظمون لجميعهم لأنه يعلم أن الحق لا ينفك عن واحد منهم.

اختـلافهـم فتنـة

والله يختبر مدى صدقنا وتجردنا للحق من خلال أخطاء الأفاضل وزلات العلماء. فإن اختلافهم فتنة واختبار من الله كما اختبر من قبلنا. ولذلك روى البخاري (7100) عن عمار بن ياسر أنه قال يوم خرجت عائشة على علي رضي الله عنه "والله إنها لزوجة نبيكم في الدنيا والآخرة، ولكن الله ابتلاكم بها ليعلم: إياه تطيعون أم هي".

فلماذا لا يختبر من بعدهم بأحمد والشافعي ومالك وأبي حنيفة. لقد اجتهد هؤلاء الأفاضل في مسائل عديدة فأصابوا وأخطأوا وهم مثابون على خطئهم، فالشافعي مثاب على اجتهاده وإن أخطأ، أما المقلِّدُ له في الخطأ مع علمه بذلك فهو مأزور غير مأجور. صحيح أن من اجتهد من أهل العلم وأخطأ فله أجر. لكن المقلد الأعمى المتعصب للعالم ليس له من الأجر نصيب. لا سيما حين تتلى على مسامعه نصوص الكتاب والسنة ثم يصرّ مستكبراً كأن لم يسمعها، وحجته دائماً: هل كانت هذه لتخفى على إمام مذهبي؟

وهذا لا يعني تحريم تقليد العامة لمذهب أو لإمام يثقون في دينه ولكن بشرط: متى ظهر لهم أن الحق يخالف المذهب في مسألة ما فعليهم أن يتركوا المذهب في هذه المسألة فقط ويدوروا مع الحق حيثما كان.

وإذا كان مقلداً لأحمد وتبين أن قوله في مسألة ما غير راجح وأصح منه قول الشافعي فإنه يذهب مع الشافعي في هذه المسألة دون أحمد ولا مانع أن يبقى في غير هذه المسألة على مذهب أحمد.

ـ فإذا قلد الشافعي ثقة به ولم يظهر له خطؤه اجتهاده في المسألة الفلانية فهو معفو عنه. فإنه يجوز للعامي تقليد مذهب من المذاهب وذلك بسبب عجزه عن طلب العلوم أو لكونه أمياً ولكن بشرط أن لا يتعصب لقول مذهبه فيما تبين له أنه راجح عند الإمام الآخر.

ـ وحينئذ لا يضر العامة تقليد أئمتهم في خطأ لم يتبين لهم، ما داموا على هذه النية مستعدين لتقديم قول الله ورسوله على قول المذهب والإمام. لا أن يكون حالهم كحال المقلدين القدامى الذين {إِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا}.

صور التعصب المذهبي

ولقد بلغ التعصب المذهبي أن صار في القرية الواحدة أربعة قضاة وأربعة مفتين: قاض ومفت للشافعية وقاض ومفت للحنبلية وقاض ومفت للحنفية وقاض ومفت للمالكية!

ـ واتخذ المسلمون من المذاهب شكلاً حزبياً بحتاً أساء إلى من تنتمي المذاهب إليهم قبل كل شيء، واتخذ التمذهب شكلاً إقليمياً فمن كان من أهل المغرب فهو بالتأكيد مالكي ومن كان من بلاد الهند وما وراء النهر فلا بد أنه حنفي! وصار من المستحيل تخيل باكستاني يدين بمذهب مالك، ومن المستحيل تخيل مغربي يدين بمذهب أحمد أو الشافعي.

ـ وبرزت تلك الصورة القاتمة المظلمة من العالم الإسلامي، فكلٌّ له إمامه يتبعه في الفقه وفي العقيدة، وفي كل مدينة أربعة قضاة يقضي كل منهم حسب المذهب وصار في المسجد الواحد أربعة أئمة كل منهم يصلي وراء إمام مذهبه.

ولو قدّر للشافعي أن يحيا بيننا وينظر التعصب الذي أحدثوه باسمه لتبرأ من المنتسبين إلى مذهبه.

التعصب ليس من سمات أمة الحق

لم يكن من اللائق بالمسلمين – وهم حملة الحق إلى العالم أن يتفشى فيهم مرض التقليد الذي استنكره الله على الأمم الأخرى {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا} (البقرة 170) وفي آية أخرى {حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا}. لم يكن لائقاً أن يقع التقليد في الأمة التي أُخرجت للناس بالحق والهدى والنور. فيظهر فيها من يقول لأئمة المذاهب سمعنا وأطعنا ولنصوص القرآن والحديث سمعنا وعصينا.

ولقد أنكر ابن عباس على قوم كانوا يعارضون السنة لقول أبي بكر وعمر فقال "يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء. أقول لكم قال رسول الله، وتقولون قال أبو بكر وقال عمر!. وقال أبو بكر "أطيعوني ما أطعتُ الله فيكم فإن عصيتُه فلا طاعة لي عليكم". وبهذا يتبين أنهم كانوا يدورون مع الحق والسنة.

الحالات التي يجوز فيها التقليد

ولا ريب أن العلماء الماضين بذلوا غاية الجهد في تحقيق المسائل وتجميعها، وقدموا في ذلك خلاصة جهدهم وبحوثهم لنا، وكلٌّ كانت له أدلته وبذل ما استطاع من أجل أن نختار الأصح منها بحسب استطاعتنا. فلم يبق علينا إلا النظر في اجتهاداتهم ومقارنة أدلتهم بعضها ببعض ثم ترجيح الأصح منها، ومن الخطأ الفاحش اعتبار ما وصلوا إليه من تلك الأحكام فاصلاً نهائياً لا معقب لحكمهم فيها ولا استئناف وغير قابلة للنقاش.

ـ فلقد تمّ فحص الأحاديث وغربلتها وجمعها بما لم يكن متيسراً من قبل، ولا ننسى أن الأحكام الفقهية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالحديث صحة وضعفاً، ولقد احتج أبو حنيفة رحمه الله بحديث "لا رباً بين مسلم وبين كافر حربي" وبنى عليه جواز أخذ الربا من الكافر الحربي، ولعله لم يتفطن إلى أن الرواية في ذلك غير صحيحة، ونحن نجزم أنه لو تبين له ذلك لترك الاحتجاج بها بناء على قوله رضي الله عنه.

الإيمان باليوم الآخر

وهو الإيمان بيوم القيامة الذي يبعث الله فيه الخلائق جميعاً من قبورهم، ويتقرر فيه مصير كل واحد منهم، وتتحدد نتيجة رحلة الحياة الطويلة. حيث يُعرَضون على الله لينال كل منهم جزاء ما عمل في الدنيا. إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. إنه الوعد الحق الذي أنذره الرسل قومهم. يوم الثواب للطائعين المؤمنين. ويوم العقاب للمجرمين. فاليوم عمل ولا حساب، وغدا حساب ولا عمل.

ـ والمؤمن بالله يعلم تمام العلم أن هذه الدنيا ليست له بدار بقاء وإنما هي دار عمل وامتحان. وأنه مهما طال به الأجل، فإنه منتقل عن هذه الدنيا لا محالة: إما إلى فوز وسعادة وإما إلى خسران وشقاء.

ـ وللإيمان باليوم الآخر أثر عظيم في حياة الإنسان. حيث هو الموجه الأكبر له للحرص على العمل الصالح والصدقة. ولذلك قال رسول الله ρ "الصدقة برهان" أي برهان على صدق إيمان صاحبها لأنه يفقد بصدقته شيئاً من الدنيا لكنه يؤمن بأن الله يضاعف له ثواب ذلك يوم القيامة ويعطيه أضعاف ما أنفق.

ـ ولو قارنّا بين اثنين أحدهما يؤمن باليوم الآخر والآخر لا يؤمن به: نجد الأول منضبطاً في عمل الخير مجتنباً للشهوات المحرمة لعلمه بضررها على آخرته. وأما الثاني فمنغمس في شهواته. الأول يحثه إيمانه باليوم الآخر على الصبر على مصاعب الحياة ونوائبها رجاء الثواب على صبره في الدار الآخرة. بينما نجد غير المؤمن باليوم الآخر سريع الجزع واليأس لأن الدنيا بالنسبة إليه إما جنة إن حصل على ما يشتهي، أو جهنم إن حُرم مما يشتهي. فدنياه هي جنته وجهنمه.

لذا كان الإيمان العملي باليوم الآخر من أهم أسباب أمن النفس وطمأنينتها وأعظم مشجع لها على الصبر فيما تواجهه من نكبات الحياة ومصائبها.

اهتمام القرآن بموضوع اليوم الآخر

ويلاحظ اهتمام القرآن بذكر اليوم الآخر حيث المرحلة التي تلي اختبار الدنيا. ولنتأمل هذه الآيات:

{فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى} (الشورى 36).

{كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ} (آل عمران 185).

{قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً} (النساء 77).

{تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ} (الأنفال 67).

{بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ، وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى} (الأعلى 16).

{وَفَرِحُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ} (الرعد 26).

* وجعل الله إيثار الدنيا ونسيان الآخرة من أعظم الضلالات والسقوط إلى عالم البهيمية. فقال {وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ، الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ} (إبراهيم 3). وقال {وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا} (الأنعام 70). وقال {إَنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا وَرَضُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ، أُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمُ النُّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ} (يونس 7). وحكى عن مؤمن آل فرعون قوله لهم {يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ} (غافر 39).

* وربط به الإيمان بالله فقال {إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ} (التوبة 18). وقال {فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ} (النساء 59). وقال {ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ} (البقرة 232). وقال {اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ} (العنكبوت 36). وهكذا لا تكاد تمر على موضع من القرآن إلا وفيه ذِكرُ اليومِ الآخر، ومع هذا فمعظم الخلق عنه غافلون.

اهتمام النبي ρ بموضوع اليوم الآخر

وقال النبي ρ "كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل"[1]. وأعطى نموذجاً رائعاً في التفريق بين الدارين فقال "ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه هذه في اليمّ: فلينظر: بِمَ ترجع[2]؟!

فعذاب الآخرة أشد وأبقى، وثواب الآخرة خير وأبقى. قال ρ [3]"يُؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة فيُصبَغ في النار صَبغة ثم يقال له: يا ابن آدم، هل رأيتَ خيراً قط؟ هل مرّ بك من نعيم قط؟ فيقول: لا والله يا رب.

ويُؤتى بأشد لناس بؤساً من أهل الجنة فيُصبغ صَبغة في الجنة فيقال له: يا ابن آدم، هل رأيتَ بؤساً قط؟ هل مرَّ بك من شدة قط؟ فيقول: لا والله يا رب، ما مرّ بي بؤس قط، ولا رأيتُ شدة قط.

لقد أنست هذه الصبغة الصغيرة الكافرَ كل ما تمتع به في الدنيا. وأنست هذه الصبغة من الجنة المؤمن كل شقاء ومرارة تعرض لها في الدنيا.

* وذكر ρ [4] أن الله يقول للكافر يوم القيامة: أرأيت لو كان لك ملءُ الأرض ذهباً أكنت تفتدي به؟ فيقول: نعم. فيقول الله: قد سئلت ما هو أيسر من ذلك: أن لا تشرك بي ولا أدخلك النار فأبيت إلا الشرك".

فالعمل الصالح رصيد المؤمن الذي ينجو به، والعملة التي يتداولها الناس يوم القيامة، ولا يعود التعامل بالدرهم والدينار. فلا عجب حينئذ أن ترى المؤمن بالآخرة يسابق إلى الخيرات لا يقصد بها مصالح الدنيا الفانية وإنما يرجو بذلك النجاة والفوز برضا ربه وثوابه في الآخرة. ولهذا قيل "الدنيا مزرعة الآخرة" فكل ما تزرعه يا ابن آدم من العمل الصالح في الدنيا تحصد ثماره في الآخرة.

---

[1] البخاري 6146 .
[2] مسلم 2858 .
[3] مسلم 2807 .
[4] مسلم 2805 .

من هو المفلس ؟

وشر الناس "المفلس" ليس مفلس المال وإنما مفلس الحسنات الذي يعطي حسناته يوم القيامة من كان يظلمهم.

قال رسول الله ρ "أتدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع! قال: إن المفلس من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيُعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فَنِيَتْ حسناتُه قبل أن يُقضى ما عليه أخِذَ من خطاياهم فطُرِحَت عليه ثم يُطرح في النار"[1].

واليوم الآخر ينقسم إلى:

* يوم خاص يتعلق بآخر حياة المرء عند موته. وفيها يمر الميت بعدة مراحل تعد المرحلة الأولى.

* ويوم عام يكون آخر يوم على هذه الأرض. وهو المرحلة الثانية.

---

[1] رواه مسلم (2581) .

(المرحلة الأولى)

المـوت

إذا كانت الولادة هي الطريق إلى الدنيا، فإن الموت هو الطريق إلى الدار الآخرة. قال تعالى {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ} (العنكبوت 57). وقال {أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ} (النساء 78). وإذا حانت لحظة الموت فلا قدرة على تأجيلها، قال تعالى {وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاء أَجَلُهَا} (المنافقون 11).

لحظات الموت الحرجة

وتتنزل الملائكة على المؤمن في أحرج لحظاته، وفي أشد ما يحتاج فيه إلى المؤانسة والتثبيت: تتنزل كرامةً له لتبشره برحمة الله وثوابه وجنته. ويجلس عند رأسه ملك يستخرج روحه برفق ويقول: أخرجي أيتها النفس المطمئنة إلى مغفرة من الله ورضوان".

قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ} (فصلت 30). فإذا بالخوف يذهب ويحل مكانه السرور والبشرى والشوق إلى لقاء الله عز وجل.

من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه

ولهذا لمّا قال النبي ρ "من أحب لقاء الله أحبّ الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه.

قالت عائشة: أكراهية الموت؟ فكلنا يكره الموت!

قال: ليس كذلك. ولكن المؤمن إذا بُشِّرَ برحمة الله ورضوانه وجنته: أحبّ لقاء الله فأحب الله لقاءه. وإن الكافرَ إذا بُشِّرَ بعذاب الله وسخطه كره لقاء الله فكره الله لقاءه.

(وفي رواية) ولكن إذا شخص البصر، وحشرج الصدر، واقشعر الجلد، وتشنجت الأصابع: فعند ذلك من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه"[1].

وتتنزل على الكافر فتبشره بغضب الله وعذابه وناره. ويجلس عند رأسه ملك يستخرج روحه فينزعها نزعاً تُقطع معه العروق والعصب. فتخرج كأنتن ريح وُجِدَت.

يقول الله تعالى {وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ} (الأنعام 93).

---

[1] متفق عليه .

(المرحلة الثانية)

عذاب القبر ونعيمه

القبر: تلك الحفرة الضيقة التي تنتظرنا ولا مهرب منها، بل نزداد دنواً منها يوماً بعد يوم. تضيق عند ذكراها الصدور. وتنزعج عند تخيلها العقول. ولكن: سواءً: أتذكرها الناس أم غفلوا عنها إنهم قادمون عليها رضوا أم أبوا. وهي إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار.

البـرزخ

ويقضي الناس بعد موتهم فترة تسمى "البرزخ" تبقى ما بعد الموت حتى تقوم الساعة، ثم يبعث الله الخلائق للحساب كما قال {حَتَّى إِذَا جَاء أَحَدَهُمُ المَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ، لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ} (المؤمنون 100). وقال عن فرعون {النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ} (غافر 46).

وكان عثمان رضي الله عنه إذا وقف عند قبر بكى حتى تبتل لحيته فيقال له: تذكر الجنة والنار فلا تبكي، وتبكي من هذا؟ فقال: قال رسول الله ρ "أن القبر أول منزل من منازل الآخرة، فإن نجا منه فما بعده أيسر منه. وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه" وكان يقول "ما رأيت منظراً قط إلا والقبر أفظع منه"[1].

فتنـة القبـر

قال ρ "إن هذه الأمة تبتلى في قبورها، فلولا أن لا تدافنوا لدعوتُ الله أن يُسمِعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه. ثم قال: تعوذوا بالله من عذاب القبر قالوا: نعوذ بالله من عذاب القبر"[2].

وفتنة القبر: هي الامتحان فيه، وذلك أن الله يرسل إلى الميت بعد دفنه ملكين يسألانه عن أربعة أشياء:

من ربك؟ ما دينك؟ ما كتابك؟ ماذا تقول في هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ (يعني النبي محمداً ρ).

وهذه الأسئلة تبدو سهلة الإجابة الآن. وهي كذلك. ولكن الله هو الذي يثبت المؤمن على الإجابة عليها كما يُضِل الكافرَ عن الإجابة عليها في هذا الموقف، لأنه لم يكن يعمل بموجبها في الدنيا.

ولا ينفع حينئذ تلقين الملقنين الذين يلقنونه الإجابة على هذه الأسئلة[1] إن لم يكن قبل موته عاملاً بمقتضاها في الدنيا، لأن التثبيت من عند الله أصلاً وليس بتلقين الملقنين.

---

[1] رواه أحمد وأبو داود بإسناد حسن (المشكاة رقم 132) .
[2] أخرجه مسلم (2867) .

قال تعالى {يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللّهُ مَا يَشَاء} (إبراهيم 27). قال النبي ρ عن هذه الآية "نزلت في عذاب القبر يقال له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، ونبيي محمد"[2].

فإذا أجاب المؤمن الملكين "ينادي مناد من السماء أن صدق عبدي فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة. فيأتيه من روحها وطيبها، ويُفسح له في قبره مُدّ بَصَره، ويُنوّر قبرُه. ويقال له: انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة. فيقول: دعوني أعود إلى أهلي فأخبرهم فيقال له: نم كنومة العروس[3] لا يوقظه إلا أحبّ أهله إليه.

وأما الكافر إذا سئل لم يجب، وإنما يقول "هاه لا أدري" (وفي رواية) سمعت الناس يقولون ذلك فكنت أقول مثله. فينادي مناد من السماء أن كذب فافرشوا له من النار، وافتحوا له باباً إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها، ويضيق عليه قبره، ويقال للأرض: التئمي عليه حتى تختلف أضلاعه. ويرى مقعده من النار فيقول: رب لا تقم الساعة، رب لا تقم الساعة".

لقد كان ذكر القبر يضيّق صدره ويثير اشمئزازه، وهاهو الآن يرضى بالقبر منزلاً ومستقراً. لأنه بظلمته وعذابه وضيقه أهون من النار التي تنتظره.

ثم يسلط الله عليه ملكاً معه مرزبة، فيضربه بها ضربةً لو ضُربَ بها جبل لصار تراباً، يسمعها جميع الخلق ما عدا الجن والإنس[1].

الذين يؤمنون بالغيب

وما ورد من النصوص من العذاب أو النعيم للميت في عالم البرزخ فإننا نصدق به، سواء أقبر الميت أم أكلته الوحوش أو غرق في البحر. فإن ذلك حقيقي يحصل لجسده وروحه. فإن من لم يغرق أو تأكله الوحوش فسيأكله الدود وهو في قبره. فما الفرق بين أكل الوحوش له وبين أكل الديدان!.

وأما الروح فتكون بعد مفارقة الجسد إما في نعيم أو عذاب. وليس الأمر كما قالت الفلاسفة أن العذاب يشعر به الميت كالحلم المزعج وأن البعث يكون للروح فقط دون الجسد.

فهذا تكذيب لما أخبر الله به على لسان رسوله. فإن الأحاديث أفادت أن العذاب حقيقي يؤلم الجسد. وأن الملكين يُقعدان العبد فيضربه أحدهما ضربة يصير منها تراباً. ويضيق قبره حتى تختلف أضلاعه.

---

(1) والتلقين أن يقال للميت بعد دفنه: إذا جاءك الملكان فقالا لك من ربك فقل: الله ربي . . . الخ. وهذا من بدع الجنائز.

(2) متفق عليه .

(3) العروس يطلق على الذكر والأنثى (مختار الصحاح 423) .

(1) رواه أبو داود بإسناد حسن (المشكاة رقم 133) .

إن هؤلاء لا يدركون أن القبر عالم آخر له سننه وقوانينه التي تختلف عن عالم الدنيا فيجب الإيمان به ولا نخوض فيه بعقولنا فإن العقول لا خبرة لها بعالم الآخرة وكيفيته فإذا حكمت عليه من خلال السنن والقوانين الدنيوية كان الحكم خاطئاً.

نماذج من عذاب القبر

ومن نماذج عذاب القبر ما رواه البخاري ومسلم أن النبي ρ مر بقبرين يعذب أصحابهما فقال: أنهما يعذبان وما يعذبان في كبير. ثم استدرك قائلاً: بلى إنه لكبير. أما أحدهما فكان لا يستتر من بوله وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة[2].

---

[2] النميمة هي نقل كلام الآخرين على وجه الإفساد بينهم .

(المرحلة الثالثة)

يوم القيامة

فإذا كان قبل يوم الحساب وبينما الناس في كفر وإعراض إذ طلعت الشمس من مغربها، ويبعث الله ريحاً لا تدع أحداً في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته، ثم لا يبقى على الأرض من يقول لا إله إلا الله - ولا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق - لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً. يسارعون إلى الشر والرذيلة ويحجمون عن الخير والفضيلة.

فيؤمن الناس حين يرون هاتين الآيتين من آيات قيام الساعة، غير أنه لا ينفع إيمانهم يومئذ ولا تُقبل منهم بعد ذلك توبة. قال تعالى {يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا} (الأنعام 158).

ولا علم لأحد بموعد قيام الساعة: لا نبي ولا ملك. قال تعالى {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللّهِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ} (الأعراف 187).

وفي آية أخرى {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا 42 فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا 43 إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا 44 إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا} فقد سأل جبريل النبي ρ عن موعد قيام الساعة فقال له "ما المسؤول عنها بأعلم من السائل. أي أن السائل والمسئول كلاهما لا يعلمان وقت قيامها". غير أنه كان يعلم أمارات قيامها وعلاماتها.

علامـات القيـامـة

وتنقسم علامات الساعة وأشراطها إلى قسمين:
علامات صغرى. وعلامات كبرى.
*** علامات الساعة الصغرى**
علامات الساعة الصغرى:

1- عودة غربة الإسلام عن أهله حتى تكون السنة بدعة والبدعة سنة. ويصير المتمسك بالسنة غريباً شاذاً بين الناس. قال رسول الله ρ "بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ: فطوبى للغرباء"[1]. وهذا من علامات نبوته ρ فإن المتمسك بالسنة صار في أيامنا غريباً بين أهله وعشيرته، حيث يعتبرون تمسه تزمتاً وتطرفاً وتشدداً وغير ذلك من الألقاب التي يوحي بها الشيطان.

* ويعود الإسلام إلى المدينة حيث انطلق منها. قال ρ "إن الإسلام ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها". وذلك بعد أن ينقض المسلمون عُرى دينهم. ويشربون الخمرة يسمونها بغير اسمها.

ويتبعون سنن من كانوا قبلهم من اليهود والنصارى و" يأتي زمان لا يبالي فيه المرء ما أخذ منه: أمن حلال أم من حرام"[2].

2- ومع هذا تبقى طائفة من أمته ρ تعتصم بكتاب الله وسنة نبيه ρ ولا تنجرّ إلى ما هلك فيه الناس من ركوب الأهواء والبدع. قال ρ "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرّهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك"[3]. أي لا يضرهم فساد الناس ولا اتهامهم بالتشدد والتطرف وغير ذلك من الألقاب التي أوحى بها الشيطان ليضل بها عن طريق الحق.

3- أن تلد الأمة ربتها[4].

4- أن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاة يتطاولون في البنيان.

5- أن يتباهى الناس في زخرفة المساجد. قال ρ "لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد"[1].

6- استفاضة المال حتى يُعطى الرجل مائة دينار فيظل ساخطاً[2].

7- تعود أرض العرب مروجاً وأنهاراً كما كانت من قبل[3].

---

(1) رواه مسلم (145) .
(2) رواه البخاري (2059) .
(3) رواه مسلم (1925) .
(4) البخاري رقم 50 ومن معاني ذلك أن يبلغ عقوق البنت والدتها حتى تصير كأنها هي التي ولدتها .
(1) صحيح أبي داود رقم 475 .
(2) البخاري رقم (3176) .
(3) رواه مسلم .

8 ـ أن يحسر الفرات عن جبل من ذهب[4].

9ـ مقتلة عظيمة بين فئتين عظيمتين دعواهما واحدة[5].

10ـ فتنة عظيمة لا يبقى بيت من بيوت العرب إلا دخلته"[6].

11ـ قتال بين المسلمين واليهود. قال ρ "لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود"[7].

12ـ هدنة بين العرب وبني الأصفر تعقبها غدرة منهم، يتداعون على المسلمين تحت ثمانين راية تحت كل راية اثنا عشر ألفاً[8].

13ـ تقارب الزمان. قال ρ "لا تقوم الساعة حتى يتقارب الزمان"[9].

14ـ يكون في آخر الزمان ثلاثون دجالاً كلهم يزعم أنه نبي كما قال النبي ρ [10].

15ـ كثرة الزلازل وخسف ومسخ يلحق بهذه الأمة لاستحلالها الخمر والقينات والمعازف والفواحش وقطيعة الرحم. قال ρ "سيكون في آخر الزمان خسف وقذف ومسخ: إذا ظهرت المعازف والقينات واستحلت الخمر"[1].

16ـ ظهور الفاحشة علانية حتى يأتي الرجل المرأة على قارعة الطريق فيقول الناس "لو تنحى هذان جانباً لكان خيراً". وإذا أعلن الناس الزنا سلط الله عليهم الأمراض والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم. وها نحن اليوم نرى مصداق قول الرسول ρ فقد أعلن الناس الزنا فسلط الله عليهم أمراضاً لم يكن آباؤهم يعرفنها من قبل كالإيدز وغيره.

17ـ نار عظيمة بالحجاز تضيء لها أعناق الإبل ببصرى[2].

18ـ قبض العلم وذهاب العلماء وفشو الجهل وإسناد العلم إلى رؤساء جهال لقول ρ "لا تقوم الساعة حتى يقبض العلم"[3] وقوله "إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من صدور العلماء وإنما يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالماً واحداً اتخذ الناس رؤساء جهالاً فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا وهلكوا وأهلكوا"[4].

---

(4) متفق عليه .
(5) متفق عليه .
(6) البخاري 1763 .
(7) متفق عليه .
(8) البخاري (3176) .
(9) رواه البخاري رقم 7121 .
(10) رواه الترمذي (2219) بإسناد صحيح .
(1) رواه الطبراني والترمذي (صحيح الجامع 3559) .
(2) متفق عليه .
(3) رواه البخاري 36 .
(4) رواه البخاري 100 .

19- إسناد مقاليد الحكم إلى غير أهلها. قال رسول الله ρ "إذا وُسِدَ الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة"[5].

20- تضييع الأمانات. قال رسول الله ρ "إذا ضُيِّعَتِ الأمانة فانتظر الساعة"[6].

---

[5] رواه البخاري رقم 59 .

[6] رواه البخاري رقم 59 .

21- ظهور الفتن وكثرة القتل، حتى لا يدري القاتل فيما قَتَل، ولا المقتول فيم قُتِل، لقوله ρ "لا تقوم الساعة حتى. . تظهر الفتن ويكثر الهرج. وحتى يمر الرجل بقبل الرجل فيقول يا ليتني مكانه"[1]. ولذا دعانا إلى المبادرة إلى العمل الصالح قبل أن تموج الفتن فتحول بيننا وبين ذلك. فقال "بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم: يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، أو يمسي مؤمناً ويصبح كافراً: يبيع دينه بعَرَضٍ من الدنيا قليل"[2] أي بادروا بالعمل الصالح قبل أن تدرككم هذه الفتن العظيمة التي بسببها يصبح أناس كفاراً بعد أن كانوا قبل ذلك: مؤمنين.

22– قيام الساعة يوم الجمعة. لقول النبي ρ " لا تقوم الساعة إلا يوم الجمعة"[3].

---

[1] متفق عليه .
[2] رواه مسلم (118) .
[3] رواه مسلم رقم 854 .

علامـات الساعـة الكبـرى

1- خروج الدخان: قال تعالى {فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاء بِدُخَانٍ مُّبِينٍ 10 يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ} (الدخان 10). وهذا الدخان يأخذ الله به أنفاس الكافرين، قال رسول الله ρ "لن تقوم الساعة حتى تروا قبلها عشر آيات". ذكر منها "الدخان والدجال"[1].

2- ظهور المهدي: وقد صحت الأحاديث في المهدي وأفادت بأنه من نسل نبينا ρ وعلى شبهه. يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً. قال ρ [2]"لو لم يبق من الدهر إلا يوم لبعث الله رجلاً من أهل بيتي، يملؤها قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً. يملك سبع سنين (وفي رواية) "يواطئ اسمُهُ اسمي واسمُ أبيه اسمَ أبي".

3- ظهور الدجال الذي يدعي الألوهية وعلى يديه تكون فتنة عظيمة، يتبعه على ضلاله كثيرون، وكان نبينا ρ يحذر من فتنته ويستعيذ منها عقب كل صلاة، ويكون ظهوره واتّباعُ الغالبية له ثمرة كفرهم وفسادهم في الأرض. ويأتي ومعه نهران يجريان أحدهما تراه العين ناراً والآخر تراه ماءً أبيض. قال ρ "فليأت النهر الذي يراه ناراً وليُغمض ثم ليطأطئ رأسه فيشرب منه فإنه ماء بارد"[3].

وتبقى فتنته أربعين يوماً. يأمر السماء فتنبت. ويأمر الأرض فتُخرج كنوزها. لا يزال كذلك حتى يقتله عيسى بن مريم ويريح الناس من شره. وقد أمرنا نبينا ρ أن نعلم أولادنا أوائل وأواخر الآيات العشر من سورة الكهف كيما تضرهم فتنته[4]. ومن علاماته أنه أعور مكتوب بين عينيه (كافر) يقرأها كل مؤمن.

3- خروج يأجوج ومأجوج. قال تعالى {حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ} (الأنبياء 96) أي يسرعون في الإفساد في الأرض. وقد ذكر القرآن وجودهم في الأرض، غير أنه لم يعين لنا شيئاً عن مكان وجودهم. وقال فيهم رسول الله ρ "ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون، فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها، ويمر آخرهم فيقولون: لقد كان مرة بهذه ماء[1].

4- نزول عيسى علي السلام إلى الدنيا لا كرسول، بل يتبع شريعة نبينا الذي قال "والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الحرب، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدة الواحدة خير من الدنيا وما فيها"[2] "وليضعن الجزية. ولتذهبن الشحناء والتباغض والحسد"[3] ومعنى وضع الجزية هنا أنه لا يقبل إلا الإسلام أو السيف. ولا يقبل منهم الجزية.

---

(1) رواه مسلم رقم (2901) .
(2) رواه أحمد والترمذي بسند حسن (المشكاة 3:24) .
(3) رواه مسلم (2249) .
(4) البخاري 7131 .
(1) رواه مسلم رقم (2937) .
(2) رواه البخاري رقم 2222 و3448 .
(3) رواه مسلم رقم (155) .

ويهلك الله تعالى به الدجال وقوم يأجوج ومأجوج. بعد أن يستجيب لدعوته فيهم فيهلكون جميعهم[4].

5- عودة البشرية إلى الجاهلية القديمة وإلى الشرك، وتلتحق بهم طائفة من هذه الأمة. قال ρ "لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق"[5] وقال "لا تقوم الساعة حتى تلتحق قبائل من أمتي بالمشركين، ويعبدون الأوثان"[6].

6- شروق الشمس من مغربها كما تقدم. عن أبي هريرة أن رسول الله ρ قال "لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها. فإذا طلعت فرآها الناس آمنوا أجمعين: فذاك حين لا ينفع نفساً إيمانها: لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً[7]".

7- خروج الدابة التي تبهر الناس فيجعلها الله تتكلم. قال تعالى {وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ} (النمل 96).

---

[4] رواه مسلم رقم (2937) .
[5] رواه مسلم رقم (2949) .
[6] رواه أبو داود بإسناد صحيح (3072) .
[7] رواه البخاري (4635) .

النفخ في الصور

فإذا جاء وعد القيامة أمر الله الملك فينفخ في الصور، فلا يبقى أحد سمع صوت النفخة إلا صعق وخرَّ ميتاً في الحال. في ذلك اليوم، يبدل الله الأرض، فتصير على خلاف هيئتها المعهودة.

قال تعالى {يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ للّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} (إبراهيم 48).

* وينفخ في الصور ثانية، بعد أن مات الناس كلهم، ويأمر الله الملك فينفخ نفختين: نفخة يصعق منها كل حي، فيموت جميع الأحياء، ويبقى ربنا الحي الذي لا يموت. ونفخة أخرى يقوم منها الناس قال تعالى {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلا مَن شَاء اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ} (الزمر 68).

نفخة البعث

فالنفخة الأولى تسمى نفخة الصعق، والنفخة الثانية تسمى نفخة البعث ويقوم الناس لهذه النفخة الثانية. ويبعث الله جميع الموتى. فيقومون من قبورهم لرب العالمين، ويحشرون بين يدي خالقهم حفاة عراة غرلاً[1].

لا ينظر بعضهم إلى بعض من شدة الموقف، كل إنسان مشغول بنفسه يطلب لها الأمن والنجاة. قال تعالى {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلا مَن شَاء اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ} (الزمر 68).

وقال {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ، قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ، إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ، فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلا تُجْزَوْنَ إِلا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} (يس 51).

[1] أي على خلقتهم الأولى من غير اختتان .

أدلة البعث وحكم من أنكره

والمسلم يشهد أن البعث حق لمجرد أن الله تعالى أخبر به، وأنه من مقتضى الحكمة والعدل أن يأخذ للمظلوم من الظالم، وإلا: فلو لم يكن يوماً آخر يجازى فيه الظالم ويؤخذ للمظلوم بحقه لصار الظالم أفضل من المظلوم لأنه أخذ حق المظلوم ومات بعد أن تمتع به. وفي هذه الحال ينتصر الباطل على الحق.

* وليس الأمر كذلك. فإن الله أعد للناس يوماً يجزي فيه الظالمَ بظلمه والعادل بعدله. فالإيمان بالبعث هو الذي يليق بجلال الله وعدله وحكمته. والعقل السليم يشهد بذلك. والنفس السليمة تطمئن إليه.

* ولهذا قال رسول الله ρ [1]"لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة". فإذا لم يعد الحق لأهله في الدنيا ولا في الآخرة فمتى يعود إذن؟ هل يجوز أن تكون عاقبة الأمور على هذا النحو المجحف؟

مفاسد إنكار البعث

لذا كان في إنكار البعث مفاسد عديد في الاعتقاد:

أولاً: نسبة الظلم إلى الله. لا سيما إذا مات الظالم والمظلوم من غير أن يحصل المظلوم على حقه.

ثانياً: أن في إنكاره تكذيب لله ولرسوله. لأننا قد علمنا خبر البعث من خلال ما أوحى الله إلى رسله. وما من رسول إلا وأنذر قومه يوم الحساب.

ثالثاً: أن من أنكر البعث لا بد أن يعتقد أن وجود الكون ضرب من العبث.

ولقد بين الله في القرآن أن من أنكر البعث لن يرى هناك أية جدوى من خلق ذا العالم. فقال {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ ، فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ} (المؤمنون 115).

وإنكار حكمة الله واعتقاد البعث في فعله كفرٌ لا تنفع معه صلاة ولا صيام، ولا إيمان بالرسل ولا بالكتب. قال تعالى {زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} (التغابن 7).

إن الله تعالى ما خلق السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق، وبعث هذا الخلق يسير على الله القدير. كيف لا وهو القائل {مَّا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إلا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ} (لقمان 28).

وقال {لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ} (غافر 57) ويقول {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ

---

[1] رواه مسلم (2582) .

مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ، إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ، فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} (يس 81).

نماذج من أنواع المبعوثين

ويختلف البعث من شخص لآخر:
* فمن مات في الحج وهو محرم ولم يُكْمِل حجه بعد، فإنه يُبعث يوم القيامة وهو يلبي، يموت وتبقى أحكام الإحرام جارية عليه السلام كتحريم لبس المخيط وتغطية الوجه والرأس. فإذا رد الله إليه روحه استأنف التلبية (لبيك اللهم لبيك).

فعن ابن عباس رضي الله عنه الله عنه أن رجلاً كان واقفاً مع النبي ρ بعرفة فوقع من راحلته فأوقصته (دقت عنقه) فقال النبي ρ "اغلسوه بماء وسدر وكفنوه في ثوبيه ولا تخمروا (تغطوا) وجهه ولا رأسه فإنه يُبعَث يوم القيامة ملبياً"[1].

* ومن كان يأكل الربا الحرام في الدنيا: فإنه يُبعث يوم القيامة كالمصروع المسعور من مس الشيطان كما قال تعالى {الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ} (البقرة 275).

* ويُبعَث المتكبرون المكذبون بيوم القيامة، فيبصرون عياناً ما جحدوه. قال تعالى {فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ} فتمتلئ قلوبهم حسرة وندماً ويقولون {يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ} فيخاطبهم الله {هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ، احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ، مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ 23 وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ، مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ ، بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ} (الصافات 14).
فيندمون أشد الندم ولكن لا ينفع الندم يومئذ. ويقولون {يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا} فيجابون {هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ، إِن كَانَتْ إِلا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ، فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلا تُجْزَوْنَ إِلا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} (يس 52).
لقد كانوا في الدنيا يقولون بسخرية {إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ} (المؤمنون 37) {إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُّبِينٌ ، أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ، أَوَآبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ} فيجيبهم الله {قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ ، فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ}.

الحشر

ثم يساق الناس جميعاً إلى الموقف العظيم حيث يقفون فيه، ينتظرون قضاء الله تعالى بين العباد. وفي هذا الموقف يصيبُ الناس منه كرب شديد، حيث تدنو الشمس من الخلائق ويتصبب منهم العرق: كل بحسب عمله. فمنهم من يصل عرقه إلى كعبيه، ومنهم من يصل إلى ركبتيه. ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً: حتى يبلغ فوق الرؤوس.

* ويشتد الكرب حينئذ على الناس فيفزعون إلى الأنبياء يستشفعون إلى الله أن يريحهم من هذا المكان.

ويأتون آدم فيقولون له "أنت آدم، أبو الخلق، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك، اشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا، فيقول لهم: لستُ لها ولكن ائتوا نوحاً. فيأتون نوحاً فيجيبهم بمثل ذلك ويحيلهم على النبي الذي كان

[1] متفق عليه .

بعده، وكلهم يقول نفسي نفسي حتى يأتوا عيسى عليه السلام فيقول لهم: لست لها ولكن ائتوا محمداً، عبداً غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. ويقول كل منهم "إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب مثله قبله، ولن يغضب مثله بعده".

حتى يأتوا محمداً ρ فيقولون: يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء، قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول "أنا لها أنا لها"[1]. فيشفع عند الله ويخر ساجداً تحت العرش، قال:

"فيأتوني، فأستأذن على ربي، فيؤذن لي، فآتي تحت العرش، فيؤذن لي، فإذا أنا رأيته وقعت ساجداً لربي، ثم يفتح الله عليّ من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبلي، فيَدَعني ما شاء الله، فيقال: يا محمد. ارفع رأسك، وقل يُسمَعُ لك، وسل تُعطهُ، واشفع تُشَفّع. فيرفع ρ رأسه فيقول: يا رب، أمتي، أمتي. ويقول: يا رب، ائذن لي فيمن قال: لا إله إلا الله، قال: فليس ذلك إليك، ولكن: وعِزَّتي وكِبريائي وعظمتي لأخرِجَنَّ منها من قال: لا إله إلا الله[2].

* ويرى كل منهم ما قدم من عمل في الدنيا، فتُعطى له صحيفة مكتوب فيها كل ما عمل في الدنيا. قال تعالى {يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً ، وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً} (مريم 85). وقال {وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً ، وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ، وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً} (الكهف 47) ويقال لهم {هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} (الجاثية 29).

* ويُحشر المعرضون عن الله عمياً كما قال تعالى {ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى. قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنتُ بصيراً؟ قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها: وكذلك اليوم تُنسى} (طه 124).

* ويحشر مانع الزكاة فيُعَذَّبُ بكنزه الذي كان يخفيه أهله. {وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ، يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ} (التوبة 35).

قال رسول الله ρ "ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقه إلا إذا كان يوم القيامة صُفِّحَت له صفائح من نار، فأحمِيَ عليها في نار جهنم، فيُكوى بها جنبه وجبينه وظهره، كلما بردَتْ أعيدَت له في يوم مقداره ألف سنة، حتى يُقضى بين العباد فيُرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار (ويقال هذا مالك الذي كنتَ تبخل به)[1].

---

[1] متفق عليه .

[2] أخرجه البخاري (7510) ومسلم (193) .

[1] متفق عليه .

ويُحشر الكافرون يوم القيامة على وجوههم عمياً وبُكماً وصُمّاً، جزاء تكبرهم وجحودهم وتناسيهم يوم القيامة. قال تعالى {إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ ، يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ} (القمر 48) وقال {وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً} والسبب {ذَلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً} (الإسراء 98).

سئل رسول الله ρ "يا نبي الله كيف يحشر الكافر على وجهه؟ فأجاب "أليس الذي أمشاه على رجليه في الدنيا قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة؟ قال قتادة: بلى وعزة ربنا"[1]. ويحشر المتكبرون المتعالون المتألهون يوم القيامة أمثال الذر يطؤهم الناس إمعاناً في إذلالهم جزاء تكبرهم وتجبرهم في الدنيا.

---

[1] مسلم رقم (2806) .

الآمنون من فزع اليوم الأكبر

وفي المقابل يؤوي الله أنواعاً من الصالحين إلى ظله يوم لا ظل إلا ظله[1] يؤمنهم وينجيهم مما يغشى الناس من الفزع والحر والخوف، منهم:

1 - إمام عادل.
2 - وشاب نشأ في عبادة الله.
3 - ورجل قلبه معلق بالمساجد.
4 - ورجلان تحابا في الله: اجتمعا عليه وتفرقا عليه.
5 - ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله.
6 - ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه.
7 - ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه.

يؤمّنهم الله مما يفزع منه الناس يوم القيامة. قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ، لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ، لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ} (الأنبياء 102).

وقد استعرض القرآن حال الفريقين فقال {مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ، وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إلا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}. وبيّن أنه لا وجه للمقارنة بين الفريقين فليعمل كل منهم ما شاء.

قال تعالى {أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} (فصلت 40). وقال {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ} (الجاثية 21). وقال {لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ} (الحشر 20). وقال {أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ، مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ} (القلم 35).

---

[1] متفق عليه .

الحوض

ويَرِدُ المسلمون حوض النبي ρ العظيم الذي هو أبيض من اللبن، وأحلى من العسل وآنيته أكثر من عدد نجوم السماء، يمد من نهر الجنة وهو غاية في الاتساع ويكفيك أن تعلم أن كل زاوية من زواياه مسيرة شهر. وذلك ليشربوا منه، وكلما شربوا منه ازداد اتساعاً.

قال رسول الله ρ "حوضي مسيرة شهر، ماؤه أبيض من اللبن، وريحه أطيب من المسك، وآنيته كعدد نجوم السماء: من شرب منه لم يظمأ بعدها أبداً" إلا أنه يُحال بين المبتدعين وبين الحوض فيقول[1] النبي ρ آنذاك: أصيحابي أصيحابي، فيقال له: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك. فيقول "سحقاً".

ويقول الله تعالى[2] "من كان يعبد شيئاً فليتبعه، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت. فلا يبقى أحد كان يعبد غير الله من الأصنام والأنصاب (ومن كانوا يعبدون عيسى وعزيرا) إلا يتساقطون في النار".

وهؤلاء لا يحاسبون على ما اقترفوه من الذنوب التي هي دون الكفر والشرك. كما قال تعالى {وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ} (القصص 78). فإن جريمة الشرك وتكذيب الرسل من أعظم الذنوب، والعقوبة عليهما أشد أنواع العقوبات.

---

[1] متفق عليه .

[2] متفق عليه .

الحساب والجزاء

وبعد بعث العباد وحشرهم يبدأ عرض أعمالهم ومن ثم الحساب والجزاء. قال تعالى {إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ} (الغاشية 25). وقال فيما أخبر عنه النبي ρ "يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفّيكم إياها. فمن وجد خيراً فليحمد الله. ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه"[1].

يوقف الله تعالى عباده بين يديه، ويعرّفهم بأعمالهم التي عملوها وأقوالهم. وتتطاير الصحف والسجلات كما قال تعالى {وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ} وهي مع انتشارها وتتطايرها فإن الله قادر على أن يوصل كل صحيفة إلى صاحبها، فيستلمها. لا يحصل في ذلك لبس ولا اختلاط.

ويُعطى كل واحد كتابه: إما بيمينه إن كان سعيداً، لا يمكن أن يستلمها بشماله، ويستلمها بشماله إن كان شقياً، لا يمكن أن يتسلمها بيمينه. وهذا من مشاهد الإعجاز الإلهي. قال تعالى {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيهْ ، إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيهْ ، فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ، فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ، قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ، كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ، وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهْ ، وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهْ ، يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ، مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهْ ، هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهْ}.

ثم يؤمر به فيؤخذ إلى حيث مأواه ومستقره {خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ، ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ، ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ ، إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ، وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ} (الحاقة 20).

---

[1] رواه مسلم (2577) .

ولا يظلم ربك أحداً

فإذا تسلم العباد كتبهم وقرأوها، تذكروا عند ذلك ما كانوا يعملونه في الدنيا:
{فَإِذَا جَاءتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى ، يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ مَا سَعَى ، وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى ، فَأَمَّا مَن طَغَى ، وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ، فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ، وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى} (النازعات 36).
{يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ، يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي} (الفجر 24).
{وَلَوْ تَرَىَ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ فَقَالُواْ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} (الأنعام 27).

فالمسبح أُحصِيَت له تسبيحاته.
والمصلي أحصيت له صلواته.
والمتصدق أحصيت له صدقاته.
والزاني أحصي عليه زناه.
والسارق أحصيت سرقاته.
وآكل الربا والحرام أحصي حرامه.

قال تعالى {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ، فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً ، وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً ، وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاء ظَهْرِهِ ، فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً ، وَيَصْلَى سَعِيراً} (الانشقاق 8).

أحصاه الله ونسوه

ويذهلهم ما تضمنه هذا الكتاب من دقة متناهية في تسجيل وإحصاء كل ما عملوه {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً} (الكهف 47-49). {وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُورًا ، اقْرَأْ كَتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً} (الإسراء 14).

وهذا مقتضى العدل الإلهي، فإن أعمال الناس مرتبطة بهذا اليوم.

قال تعالى {وَعَدَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ، وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ} (المائدة 9).

قال ρ[1] "لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله: من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن عمله: ماذا عمل به.

وقال[2] "ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه يوم القيامة ليس بينه وبينه ترجمان. فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه

(1) رواه الترمذي (2419) وهو حسن بشواهده .
(2) متفق عليه .

فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه. فاتقوا النار ولو بشق تمرة. ومعناه ولو أن تتصدقوا بشق تمرة لأن الصدقة تدفع النار عن صاحبها.

أول ما يُسأل عنه العبد

وأول ما يحاسَب عليه العبدُ: عن توحيده وإخلاصه لربه.

ثم أول ما يُسأل عنه من الأعمال الصلاة. فإن صلحت صلح سائر عمله، وإن فسدت فسد سائر عمله[1].

وأول ما يُقضى بين الناس في الدماء[2].

أول من تشتعل بهم النار

وأول أنواع الناس يدعون للحساب ثلاثة ورد ذكرهم في حديث أبي هريرة أن النبي ρ قال[3]: "إن أول الناس يدخل النار يوم القيامة ثلاثة نفر:

1 - عالم جمع القرآن أي حفظه.

2 - ومجاهد قتِلَ في سبيل الله.

3 - وغني كثير المال.

فأولُ من يُدعى للحساب قارئ القرآن، فيقول الله له:

ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي؟

قال: بلى يا رب.

قال: فماذا عملتَ فيما علِمتَ؟

قال: كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار رجاء ثوابك.

فيقول الله: كذبتَ، وتقول الملائكة: كذبتَ. ويقول الله: بل أردتَ أن يقال: فلان قارئ، وقد قيل ذلك (أي قالوا فيك ما كنت ترجوه منهم). اذهبوا به إلى النار.

ويؤتى بصاحب المال فيقول الله: ألم أوسِّع عليك حتى لم أدَعْكَ تحتاج إلى أحد؟ قال: بلى يا رب.

قال: فماذا عملت فيما آتيتك؟

فيقول: رب قد رزقتني مالاً فوصلت به الرحم، وتصدقت به على المساكين رجاء ثوابك وجنتك.

فيقول الله له: كذبت. وتقول الملائكة: كذبت. ويقول الله: إنما أردت أن يقال: فلان جواد. وقد قيل. اذهبوا به إلى النار.

ثم يُؤتى بالذي قُتِلَ في سبيل الله فيقول الله: فيم قتلت؟

فيقول: رب خرجت في سبيلك فقاتلتُ حتى قتلت رجاء ثوابك وجنتك.

فيقول الله كذبت. وتقول الملائكة كذبت. ويقول الله: إنه كنت تقاتل ليقال أنك جريء وشجاع، وقد قيل. خذوا به إلى النار.

قال رسول الله ρ : يا أبا هريرة، أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة.

ويأتي أقوام: لا يكلمهم الله، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم، منهم:

الشيخ الزاني.

والملك الكذاب الغاش لرعيته.

والفقير المستكبر.

---

(1) رواه الطبراني بإسناد حسن (صحيح الترغيب 222) .

(2) رواه البخاري في كتاب الديات، ومسلم رقم (1678) .

(3) رواه الحاكم 111:2 بإسناد صحيح .

ورجل حلف على سلعة وهو كاذب، قد أعطي بحلفه أكثر مما تستحق سلعته.
والعاق لوالديه.
والزناة والزواني.
وآكل أموال الناس ظلماً. والديوث[1].
والمتشبهون بالنساء من الرجال، والمتشبهات من النساء بالرجال.

ـ ويؤتى بشارب الخمر فأول عقوبته أن يسقيه الله من طينة الخبال وهي عصارة فروج المومسات التي تخرج منهن في النار. وهذا الماء المنتن يتناسب ونتن الخمر الذي كان يشربه في الدنيا. قال ρ [2] "تكفل الله لشارب الخمر في الدنيا أن يسقيه من طينة الخبال، قالوا وما طينة الخبال يا رسول الله؟ قال: عصارة فروج المومسات".

---

[1] هو الذي يرضى الفاحشة والفساد في أهله .
[2] مسلم (2002) وغيره .

الـميـزان

وتوزن أعمال العباد بميزان الله الحكم العدل يوم القيامة. وهو أعدل الموازين وأدقها، فلا يظلم يومئذ عنده أحد. ويكون بعد مرحلة الحساب. قال تعالى {وَنَضَعُ المَوَازِينَ القِسْطَ لِيَوْمِ القِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ} (الأنبياء 47). وقال {وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ، وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَـئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يِظْلِمُونَ} (الأعراف 8).

وقال رسول الله ρ "يوضع الميزان يوم القيامة، فلو وزن فيه السماوات والأرض لوسعت. فتقول الملائكة: يا رب لمن يزن هذا؟ فيقول الله: لمن شئت من خلقي. فتقول الملائكة: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك، ويضع الصراط مثل حد الموسى، فتقول الملائكة: من تجيز على هذا؟ فيقول: من شئتُ مِن خلقي، فيقولون: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك"[1].

ومع عظمة هذا الميزان وسعته، فإن من رحمة الله أن يسَّرَ لعباده المؤمنين من قليل الذكر ما يملأ هذا الميزان حسنات يوم القيامة. قال رسول الله ρ "الحمد لله تملأ الميزان. وسبحان الله تملآن ما بين السماء والأرض"[2]. وقال "كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن، سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم"[3].

ونعلم أنه مهما كثرت أعمالنا الصالحة ومهما بلغت بنا العبادة، فإنه لا يمكن أن تتكافأ مع فضل الله وجزيل نِعَمِه. فلو وزنت أعمال العباد الكثيرة بنعمة البصر التي أنعم الله عليه لكانت هذه النعمة تفوق جميع أعماله. ولكن تثقيل الحسنات ومحو السيئات فضل ونعمة من الله الغني الكريم، والله ذو الفضل العظيم. فنسأل الله تعالى أن يعاملنا يوم القيامة بعفوه وفضله لا بعدله. فإنه إن عاملنا بعدله: فأي شيء يعدل ويكافئ نِعَمَه؟

وذكرت عائشة النار يوماً فبكت، فقال لها النبي ρ [1] "ما يبكيك؟ قالت: ذكرتُ النار فبكيت، فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة؟ قال: أما ي ثلاثة مواطن فلا يذكر أحد أحداً: عند الميزان حتى يعلم أيخف ميزانه أم يثقل. وعند الكتاب حتى يعلم أين يقع كتابه: أفي يمينه أم في شماله؟ وعند الصراط إذا وضع بين ظهري جهنم: حتى يجوز الصراط".

وتجثو الأمم بأعدادها الهائلة على الرُّكَب تترقب نتيجة أعمالها وقرارَ الله عز وجل فيها. قال تعالى {وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ، هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ، فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ، وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ} (الجاثية 28).

---

[1] رواه الحاكم 586/4 وصححه ووافقه الذهبي .
[2] رواه مسلم (223) .
[3] رواه مسلم رقم (2694) .
[1] رواه أبو داود (4755) بسند حسن .

وتُدعى الأمم بأوثانها وما كانت تعبد، وتُصَوَّرُ لهم صور تشبه من كانوا يعبدونهم في الدنيا: ويُنادى: لِتتَّبع كل أمة ما كانت تعبد. فلا يبقى أحد يعبد غير الله من الأصنام والأنصاب إلا يتساقطون في النار.

ويقال لليهود الذين كانوا يعبدون عزيراً "كذبتم؛ ما اتخذ الله صاحبة ولا ولداً".

ويقال للنصارى الذين كانوا يعبدون المسيح "كذبتم؛ ما اتخذ الله صاحبة ولا ولداً". ويؤمر بهم فيُكَبّون في جهنم.

فضيحـة المنـافقيـن

وبعد أن يكب الكفار والمشركون على وجوههم إلى جهنم، هكذا ومن غير حساب يبقى:

النوع الأول: المؤمنون ظاهراً وباطناً، وهم أتباع الرسل الموحدون، وفيهم أهل الذنوب والمعاصي. الذين خلطوا من الأعمال الصالح والعمل السيئ. واقترفوا من كبائر الذنوب وصغائرها. فهؤلاء يُعطون نوراً، غير أن هذا النور يختلف من مؤمن لآخر بحسب أعمالهم الصالحة أو السيئة. ويقال لهم "أمضوا على قدر نوركم" أي سيروا على الصراط وتكون نجاتكم بحسب ما معكم من عمل.

النوع الثاني: قوم أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، وهم المنافقون الذين كانوا يندسّون بين صفوف المؤمنين يرجفون ويثبطون ويتربصون بالمؤمنين ويدينون بالولاء إلى الكفار والمشركين. فبينما هم واقفون إلى جانب المؤمنين يتأهبون معهم لمجاوزة الصراط، وبينما يعطي الله جميع المؤمنين نوراً ليمشوا به على الصراط مع كل مؤمن نور يمشي به: إذا بنور المنافقين ينطفئ فجأة فينكشف حالهم ويفتضح نفاقهم، فيسألون المؤمنين أن يمدوهم بشيء من نورهم، ولكن يحال بينهم وبينهم.

قال تعالى {يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ، يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّى جَاء أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ، فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} (الحديد 13).

وهكذا؛ فالجزاء من جنس العمل، فكما كان المنافقون يتظاهرون في الدنيا بالإيمان وهم في حقيقة أمرهم يبطنون الكفر، ويتخذون من أيمانهم ستاراً واقياً، يخادعون الله والذين آمنوا، لكنهم لم يكونوا يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون، فكذلك اليوم ينطفئ نورهم وينكشف حالهم، ويعرف نفاقهم كل مؤمن ويستحقون اللحق بالكفار والمشركين.

* أما سبب تأخرهم عن اللحوق بالمشركين فإنما كان مقابلة لخداعهم لله وللمؤمنين بخداع من جنسه. فإنهم ظنوا أنهم بانخراطهم في صفوف المؤمنين يستطيعون التستر بثوب الإيمان كما كانوا يفعلون في الدنيا.

وهكذا كانت نتيجة انطفاء نورهم بين الناس:

1 - كشف نفاقهم.

2 - مقابلة خداعهم بخداع مثله.

3 - زيادة في حسرتهم وندمهم حيث ظنوا أن نفاقهم سيمر يوم القيامة من غير عقوبة وأن موعد دخول الجنة قد اقترب: وإذا بهم يُحْرَمُون منها بعد أن صاروا على مشارفها. وهكذا ينقلب خداعهم إلى خداع مثله في الآخرة. فما كادت السعادة تدخل قلوبهم وما كادوا يظنون حتمية النجاة حتى تحول كل شيء فجأة. فانقلبت السعادة حسرة وتبدل الاطمئنان بالخوف والندم العظيم. انطفأ نورهم، وانكشف حالهم بين المؤمنين.

قال تعالى {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً} (النساء 142).

ثم تأتي الآية التي تليها لتبين عاقبتهم وأنهم سيذوقون يوم القيامة أشد العذاب {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ} (النساء 145) ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله.

وهكذا يفرق الله بين الفريقين: كل يمشي في طريق واتجاه مختلف عن الآخر. المنافقون يلتحقون بركب الكفار والمشركين. والمؤمنون يلتحقون بركب رفاقهم من أهل الجنة.

الصراط

وبعد الحساب والميزان ينصرف الناس من الموقف إلى الصراط، وهو جسر يُنصَب فوق جهنم موصلاً إلى الجنة وعليه كلاليب معلقة وخطاطيف مأمورة تأخذ من أُمِرَت به. فمخدوش ناج قد تصيب جوانبه النار، ومكدوس في النار. والناس يمشون عليه ليصلوا إليها، تجري بهم أعمالهم، ويكون مشيهم على الصراط بحسب استقامتهم على صراط الله المستقيم في الدنيا:

فمن كان صراطه على دين الله مستقيماً: كان وروده على صراط الآخرة المنصوب يوم القيامة سريعاً.

ومن كان منحرفاً عنه يميناً وشمالاً كان مروره على صراط الآخرة عسيراً.

أنواع المارين على الصراط

ويؤمرون بالمضي عليه، تجري بهم أعمالهم:

فمنهم من يمر مثل لمح البصر.

ومنهم من يمر مثل البرق.

ومنهم من يمر مثل الريح.

ومنهم من يمر يعدو عدواً.

ومنهم من يمشي مشياً.

ومنهم من تعجز عنه أعماله، حتى يجيء فلا يستطيع السير إلا أن يزحف زحفاً.

ومنهم من تزل قدمه ويهوي في جهنم. قال أبو هريرة راوي الحديث "والذي نفس أبي هريرة بيده، إن قعر جهنم لسبعين خريفاً"[1]. قال تعالى {وَإِن مِّنكُمْ إِلا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيّاً ، ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً} (مريم 71) كل ذلك ونبينا ρ قائم على الصراط يقول: رب سَلِّم سَلِّم".

---

(1) مسلم 195 .

الشفاعة في أهل الكبائر

أما من هوى عن الصراط من أهل الكبائر والذنوب من المؤمنين الموحّدين، فإنهم يمكثون فيها ما شاء الله لهم أن يمكثوا. ثم يخرجون منها بالشفاعة.

قال أنس رضي الله عنه "سألتُ رسول الله ρ أن يشفع لي فقال: أنا فاعل إن شاء الله، قلتُ: فأين أطلبك؟ قال: أول ما تطلبني على الصراط، قلت: فإن لم ألقك على الصراط؟ قال: فاطلبني عند الميزان، قلت: فإن لم ألقك عند الميزان؟ قال: فاطلبني عند الحوض: فإني لا أخطئ هذه الثلاثة مواطن"[1].

قدر شهادة التوحيد عند الله

"حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد، وأراد أن يُخرِج برحمته من أراد من أهل النار، أمر الملائكة أن يُخرجوا من النار من كان لا يشرك بالله شيئاً ممن أراد الله تعالى أن يرحمه ممن يقول: لا إله إلا الله.

قدر السجود عند الله

فتعرفهم الملائكة في النار، يعرفونهم بأثر السجود. تأكل النار من ابن أدم كل شيء إلا أثر السجود. فإن الله قد حرم على النار أن تأكل مواطن وآثار السجود، وذلك تعظيماً لقدر السجود عند الله تعالى. قال رسول الله ρ "وحرّم الله على النار أن تأكل أثر السجود"[2]. فتأمل كيف نفعته صلاته وسجوده حتى في هذا المكان.

---

[1] رواه الترمذي 2435 بسند جيد .

[2] البخاري رقم (806) .

شفاعة الشافعين

حتى إذا خلص المؤمنون من النار فيسألون الله عن إخوان لهم بقوا في النار، يقولون "ربنا، إخواننا كانوا يصومون معنا، ويصلون ويحجون، فيقال لهم: أخرجوا من عرفتم. فتحرم صورهم على النار. ويعرفونهم بصُوَرِهِم، لا تأكل النار صُوَرَهم، ويُخرِجون خلقاً كثيراً.

فمنهم من أخذته النار إلى ركبتيه، ومنهم من أخذته إلى أنصاف ساقيه، ومنهم من أخذته إلى كعبيه.

فيقولون: ربنا أخرَجْنا من أمرتنا.

فيقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه، فيُخرجون خلقاً كثيراً.

فيقول الله: أخرجوا من كان في قلبه وزن نصف دينار . . . مثقال ذرة.

فيقولون: ربنا ما بقي فيها أحد ممن أمرتنا به، ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها أحداً مما أمرتنا.

فيقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من الخير فأخرجوه. فيخرجون خلقاً كثيراً.

ثم يقولون: ربنا لم نذر أحداً ممن أمرتنا.

فيقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه. فيُخرجون خلقاً. إلى أن يقولوا: ربنا لم نذر فيها خيراً قط[1]. فإذا خرجوا من النار أدخلهم الله الجنة.

---

[1] مسلم رقم (183).

شفاعة أرحم الراحمين

ويخرج كثير من الخلق بالشفاعات: فيشفع الأنبياء والعلماء والشهداء فتخرج بشفاعاتهم أعداد كثيرة من البشر من النار، حتى إذا فرغ أهل الشفاعة من الشفاعة:

بقيت أعظم الشفاعات، وهي شفاعة ربنا أرحم الراحمين، التي بها يَسعَد أضعاف أضعاف من خرجوا بشفاعة غيره. فيقول ربنا جل جلاله "ذهبت شفاعة الشافعين، وبقيت شفاعة أرحم الراحمين. شفعت الملائكة، وشفع النبيون وشفع المؤمنون: ولم يبق إلا أرحم الراحمين.

فيقبض قبضة أو قبضتين من النار، فيُخرج منها أقواماً لم يعملوا لله خيراً قط. قد صاروا حمما، فيؤتى بهم ويُلقون في نهر اسمه "نهر الحياة" فيُصَبّ عليهم فيَنبُتون فيَخرجون كما تخرج الحبة في حميل السيل[1].

ويأمر ملائكته فيقول "أخرجوا من النار من ذكرني يوماً أو خافني في مقام. أخرجوا من النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان" حتى لا يبقى في النار موَحّد. يعصمهم توحيدهم من الخلود الأبدي في النار، ثم يدخلون بعد ذلك الجنة.

فيخرجون من أجسادهم مثل اللؤلؤ، في أعناقهم الخاتم **(عتقاء الله)** فيُقال لهم ادخلوا الجنة، فما تمنّيتم أو رأيتم من شيء فهو لكم، عندي أفضل من هذا. فيقولون: ربنا! وما أفضل من ذلك؟ فيقول: رضائي عليكم، فلا أسخط عليكم أبداً"[2].

---

[1] مسلم 183 .

[2] رواه أحمد 94/2 بسند صحيح .

الشفاعة

والشفاعة فضل من الله وإظهار لشرف خواص عباده بين سائر الخلق يوم القيامة يمنحها من يشاء هو وحده. لا يشفع أحد إلا بإذنه، ولا يُشفع لأحد إلا بعد أن يرضى الله الشفاعة فيه. قال تعالى {يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا} (طه 109). وقد جمع الله هذين الشرطين في آية واحدة {وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى} (النجم 26).

الشفاعة المشروعة والشفاعة الممنوعة

وقد ضل المشركون في مفهوم الشفاعة وخلطوا فيها الحق بالباطل حتى اتخذوا من دون الله آلهة زعموا أنهم شفعاء لهم عند الله يتقربون بهم إليه، استدرجهم الشيطان بهذه الذريعة إلى الشرك. قال تعالى {وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ} (يونس 18).

وإذا نظرنا في الآيات التي ذكرت حال المشركين وبينت أسباب شركهم نجدها تدور حول ثلاث مسائل:

1 ـ دعاؤهم شفعاء من دون الله {إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} (الأعراف 194).

2 ـ اتخاذهم شفعاء يتقربون بهم إلى الله. قال تعالى {أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاء} {قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً} (الزمر 43) {مَا نَعْبُدُهُمْ إلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى} (الزمر 3).

3 ـ تحليلهم ما حرم الله وتحريم ما أحل. قال تعالى {وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَـذَا حَلاَلٌ وَهَـذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ} (النحل 116) {وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ} (النحل 35). فطالبهم الله بالدليل قائلاً {قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ} (الأنعام 148).

فالشفاعة منها ما هو مقبول ومنها ما هو مردود:

1 - الشفاعة الشرعية المقبولة: هي التي يطلبها الموحد من ربه مع علمه بشروط الشفاعة على النحو الذي علمنا الله إياه. سواء كانت بشفاعة الله أم بشفاعة غيره كالأنبياء والشهداء والعلماء.

2 - الشفاعة الشركية الممنوعة: وهي ما يطلب من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله. وفيما لم يأذن به الله . .

مسائل مهمة في الشفاعة

أن الشفاعة لا ينالها من كان مشركاً مخالفاً للتوحيد. سئل رسول الله ρ "من أسعد الناس بشفاعتك؟ فقال: من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه"[1]. وقال ρ [2] "لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجّل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً".

فجعل أحد أعظم أسباب نيل الشفاعة: تحقيق التوحيد.

أما الذين إذا سألوا: سألوا غير الله، وإذا استعانوا: استعانوا بغير الله واستغاثوا بالأموات من دون الحي الذي لا يموت ويتمسحون بجدران وتراب قبورهم ويتخذونها قبلة للدعاء فما أبعدهم عن نيل الشفاعة. فالشفاعة لأهل التوحيد.

3 - أن أعظم أنواع الشفاعة شفاعة ربنا الذي يَخرُج بشفاعته من النار أضعاف ممن شفع لهم الأنبياء وغيرهم، حتى إذا شفع الشافعون قال تعالى "ذهبت شفاعة الشافعين وبقيت شفاعة أرحم الراحمين". وهذا يغفل عنه المشركون الذي يرجون من القبور ما لا يرجون من ربهم.

وقد ثبت أن الصيام والقرآن والصدقة يشفعون كما قال ρ "القرآن شفاع مُشفّع"[3]، وكما أنه لا يصح لك أن تقول أيتها الصدقة اشفعي لي عند الله، أيها الصيام اشفع لي. أيها القرآن: اشفع لي عند الله. فكذلك لا تقول: أيها النبي أيها الصالح اشفع لي عند الله".

شفاعة محمد ρ

---

(1) رواه البخاري (99) .

(2) رواه البخاري رقم (6304) .

(3) رواه ابن حبان بسند صحيح (انظر صحيح الجامع 4443) .

وأعظمها بين شفاعات المخلوقين: شفاعة نبينا محمد ρ. وهي على نوعين:

1) شفاعة عامة وتسمى "الشفاعة العظمى، وهي الشفاعة العامة في كل البشر مؤمنهم وكافرهم، أن يعجل الله في نقلهم من مرحلة الموقف إلى الحساب. حين يشتد بهم الكرب، وتدنو الشمس من الخلائق ويشتد حرها، فيأتون الأنبياء جميعاً فيقول كل نبي منهم "لست لها" حتى يأتوا محمداً ρ فيقول "أنا لها أنا لها". فيشفع للناس جميعهم في تجاوز ذلك الموقف. وحينئذ يبعثه الله ذلك المقام المحمود الذي يحمده الناس (مؤمنهم وكافرهم) عليه. فهذه الشفاعة العامة التي تنفع المؤمن وغيره. ويومئذ يتحسر كل كافر سمع به أو رآه ولم يؤمن به.

2) شفاعة خاصة للمؤمنين الموحدين من أمته، قال ρ "لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجّل كلُّ نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة". وقال "شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي"[1].

أنوع الشفاعات والشفعاء

فالشفاعات التي يكرم الله بها نبيه ρ :

1 - الشفاعة العامة عند الموقف يوم يحشر الله الناس على صعيد واحد.

2 - الشفاعة في قوم استوجبوا دخول النار: ألا يدخلوها.

3 - الشفاعة فيمن دخلوا النار أن يخرجوا منها.

4 - الشفاعة فيمن خلدوا في النار أن يُخفف عنهم فيها.

5 - الشفاعة فيمن تساوت حسناتهم وسيئاتهم بدخول الجنة.

كيفية الفوز بشفاعة النبي ρ .

وقد علمنا النبي ρ كيفية الفوز بشفاعته:

فقال "إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا علي فإنه من صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلو الله لي الوسيلة[1] فإنها منزلة في الجنة لا ينبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو

---

[1] متفق عليه .

[1] أي سلوا الله أن يبلغني هذه المنزلة العظيمة في الجنة .

أن أكون هو. فمن سأل لي الوسيلة: حلت له الشفاعة"[2] وقال ρ "من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة، وابعثه مقاماً محموداً كما وعدته: حلّت له شفاعتي"[3].

فتأمل نص كلام النبي ρ كيف علمنا أن نسأل الله له لننال شرف شفاعته لا أن نسأله من دون كما يفعل بعض المعاندين الذين لا يفقهون سنته لا يقنفون أثره.

وكثرة الصلاة عليه سبب آخر للشفاعة. فعن أبي الدرداء أن النبي ρ قال "من صلى علي حين يصبح عشراً وحين يمسي عشراً: أدركته شفاعتي يوم القيامة"[4].

---

[2] أخرجه مسلم رقم (384) في الصلاة .
[3] رواه البخاري (614) .
[4] رواه الطبراني بإسنادين أحدهما جيد. وصححه الألباني في صحيح الترغيب (ص 346) .

الجنـة

وتنتظرهم الجنـة، المسكن الأبدي الذي لا يفنى ولا يبيد، من دخلها لا يخرج منها أبداً. دار النعيم، ودار الثواب التي تفوق الوصف، والتي شوقنا الله إليها قائلاً "أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر"[1].

قال تعالى {مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وِظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ}

وقال {مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاء غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ} (محمد 15).

وقال {جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ، وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ، الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ} (فاطر 34).

ويزين الله كل يوم جنته، ولا يزال يزيدها كرامة وجمالاً استعداداً لأهلها الذين هم في طريقهم إليها. ليطمئنوا ويسعدوا بعدما قاسوا في الدنيا أنواع الباطل من طغيان وكفر وفساد وفتن.

بل إن قطرة واحدة من نعيم الجنة تُنسيهم كل ما لاقوه من اضطهاد وتعذيب وشدة. قال ρ [2] "يُؤتى بأنَعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة فيُصبَغ في النار صَبغة ثم يقال له: يا ابن آدم، هل رأيتَ خيراً قط؟ هل مرّ بك من نعيم قط؟ فيقول: لا والله يا رب. ويؤتى بأشد الناس بؤساً في الدنيا، من أهل الجنة. فيُصبَغ صَبغةً في الجنة فيقال له: يا ابن آدم! هل رأيتَ بؤساً قط؟ هل مرَّ بك شدة قط؟ فيقول: لا والله يا رب، ما مرَّ بي بؤسٌ قط، ولا رأيت شدة قط".

إنه لم يكذب لكنه ذاق قطرة من نعيم الجنة التي لا تساوي الدنيا بأجمعها شيئاً منه.

---

[1] رواه مسلم (2824) .

[2] مسلم 2807 .

فإذا اجتاز أهلُ الجنة الصراط ومروا عليه آمنين مطمئنين، وقبل قدومهم على الجنة: يُحبَسُون في قنطرة بين الجنة والنار ويُقتصُّ لبعضهم من بعض، فإذا هذّبوا ونُقوا أُذِنَ لهم بدخول الجنة. وجاء في ذلك أن الله يُري صاحبَ الحق قصرَه فتبهره روعته وعظمته:

فيقول: رب لمن هذا؟ فيقول الله: هذا لمن يعطي ثمنه.

فيقول: بأي ذهب هذا بأي فضة هذا؟

فيقول: هو لك أن عفوت عن أخيك. فيبادر إلى العفو عنه ويقول "اللهم إني أشهدك أني قد عفوت عنه".

وعند وصولهم إلى مشارف الجنة يجدون الملائكة قد فتحت لهم الأبواب إيذاناً لهم بدخولها. قال تعالى {وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً[1] حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ، وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاء فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} (الزمر 73).

فإذا دخلوها عرفوا منازلهم فيها. قال رسول الله ρ "إذا خلص المؤمنون من النار حُبِسوا بقنطرة بين الجنة والنار، فيتقاصّون مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا نُقوا وهُذّبوا: أُذِنَ لهم بدخول الجنة، فوالذين نفس محمد بيده: لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا"[2].

ولا عجب: فالذي هدى الرضيع من الإنسان والحيوان إلى ثدي أمه عند اللحظة التي يخرج فيها من بطنها: قادر على أن يهدي أهل الجنة إلى مساكنهم فيها. إن الله على كل شيء قدير.

---

[1] أي جماعات .

[2] رواه البخاري (2440) .

أول الداخلين إلى الجنة

ويُساق أهل الجنة إلى الجنة يمشون زمراً، وتتقدمه زمرة السبعين ألفاً ممن يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب. وجوههم مضيئة كالقمر ليلة البدر، يتقدمهم رسول الله ρ وهو أول الداخلين قال ρ "آتي بابَ الجنة يوم القيامة فأستفتِحُ، فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد. فيقول: بك أُمِرتُ، لا أفتح لأحد قبلك"[1].

وتزدحم الأمم عند باب الجنة، أكرمها هذه الأمة ρ قال "أنتم موفون سبعين أمة أنتم آخرها وأكرمها على الله عز وجل"[2].

وتبلغ هذه الأمة نصف عدد أهل الجنة قال ρ [3]:

"أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة؟ قالوا: نعم. فقال:

أترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة؟ قالوا: نعم. فقال:

أترضون أن تكونوا شطر أهل الجنة؟ قالوا: نعم. قال: والذي نفس محمد بيده إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة.

ويسبق الفقراء الأغنياء كما قال "يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام"[4].

ويُدعَى الناس لدخولها: فأهل الصلاة يُدعَوْن من باب الصلاة، وأهل الجهاد يُدعَون من باب الجهاد، وأهل الصدقة يُدعَون من الصدقة. وأهل الصيام يُدعَون من باب الريّان.

ومن الناس من يأتون وقد جمعوا بين أعمال الخير هذه جميعها، فيُدعون من هذه الأبواب جميعها تكريماً لهم لكثرة مسابقتهم إلى كل أبواب الخير. وقد شهد النبي ρ لأبي بكر بأنه سيكون واحداً ممن يُدعَون من هذه الأبواب جميعاً، وذلك حين سأله قائلاً "هل هناك من يُدعَى من هذه الأبواب جميعاً؟ قال ρ "نعم. وأرجو أن تكون منهم"[1].

---

[1] رواه مسلم (197) .

[2] رواه أحمد 447/4 والحاكم 84/4 وصححه ووافقه الذهبي .

[3] رواه البخاري (6528) .

[4] رواه الترمذي (2354) بسند صحيح .

[1] رواه البخاري (1897) .

وينزلون في الجنة مراتب مختلفة ومنازل بعضها فوق بعض. يتفاوتون فيها بحسب تفاوتهم في العمل الصالح.

ـ فيقال لصاحب القرآن[2] الذي كان يكثر من تلاوته وحفظه "اقرأ وارتق كما كنت ترتّل في الدنيا: فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها".

ـ ويدخل والد الرجل الصالح بدعاء ولده له كما قال ρ "إن الرجل لترتفع درجته في الجنة، فيقول: أنى لي هذا، فيقال: باستغفار ولدك لك"[3]. و"إن الرجل ليكون له عند الله المنزلة فما يبلغها بعمل، فما يزال الله يبتليه بما يكره حتى يبلّغه إياها"[4].

موت الموت

وبعد دخول أهل الجنة الجنة وأهل النار النار: يجاء بالموت على هيئة كبش أملح[5] ويُجعَلَ بين الجنة والنار ويُذبَح. وينادي مناد يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت. فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم، ويزداد أهل النار حزناً إلى حزنهم"[6].

---

(2) رواه أحمد 192/2 بإسناد حسن .
(3) رواه أحمد 509/2 بسند صحيح .
(4) رواه الحاكم 344/1 بسند صحيح .
(5) أي مختلط البياض والسواد .
(6) رواه البخاري 6548 ومسلم 2850 .

نداء الله لأهل الجنة

ويناديهم ربهم "يا أهل الجنة: إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا، وإن أن تنعموا فلا تبتئسوا أبداً"[1].

وهم فيها لا يبولون ولا يتغوطون ولا يمتخطون. وإنما هي سعادة أبدية. ويُعطى المؤمن منهم قوةمائة من الجماع[2]. لهم فيها ما تشتهي نفوسهم ولدى الله مزيد. قال رسول الله ρ "من يدخل الجنة ينعم، ولا ييأس. ولا تبلى ثيابه. ولا يفنى شبابه"[3].

وهي درجات، أقل أهلها منزلة رجل آتاه الله مثل الدنيا وعشرة أمثالها، يظن أنه أكثر أهل الجنة منزلة. وأنه في الحقيقة أقلهم[4].

ويناديهم مناد "يا أهل الجنة: إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه. فيقولون: ما هو؟! ألم يثقل موازيننا ويبيّض وجوهنا ويدخلنا الجنة وينجنا من النار؟

فيَكشِف الله لهم الحجاب ويرون ربهم، فما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إلى وجهه الله عز وجل[5].

ويقول لهم "يا أهل الجنة. فيقولون: لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا ربنا وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك؟ فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: وأي شيء أفضل؟ فيقول: أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً"[6].

يقول تعالى {إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ، هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِؤُونَ ، لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ، سَلَامٌ قَوْلا مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ} ثم ينتقل الخطاب الإلهي إلى أهل النار: {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ، وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ، وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلا كَثِيراً

(1) رواه مسلم (2837) .
(2) رواه الترمذي 2539 .
(3) رواه مسلم 2386 .
(4) رواه مسلم (182) وسيأتي الحديث بتمامه .
(5) رواه أحمد والترمذي عن صهيب بسند صحيح .
(6) رواه البخاري (7518) .

أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ، هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ، اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ، الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} (يس 60).

آخر الداخلين إلى الجنة

وآخر أهل الجنة دخولاً هو آخر أهل النار خروجاً منها، يخرج منها زحفاً فيقول الله له اذهب وادخل الجنة، فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها. فيسعد ويهنأ، ويظن أنه أكثر أهل الجنة عطاء وأعلاهم منزلة، وهو في الحقيقة أدناهم منزلة، وأقلهم عطاء.

قال رسول الله[1] ρ "سأل موسى ρ ربه: ما أدنى أهل الجنة منزلةً؟ قال: هو رجل يجيء بعدما أُدخِل أهلُ الجنة الجنة، فيقال له: ادخلِ الجنة.

فيقول: يا رب، كيف وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أَخَذَاتِهم؟[2].

فيقال له: أما ترضى أن يكون لك مثل مُلكِ مَلِكٍ من ملوك الدنيا؟

فيقول: رضيت يا رب.

فيقول (الله) لك ذلك ومثله ومثله ومثله ومثله. فقال في الخامسة: رضيت رب.

فيقول: هذا لك وعشرة أمثاله، ولك ما اشتهت نفسك ولذَّتْ عينُك.

فيقول: رضيت رب.

قال (موسى) : فأعلاهم منزلة؟

قال: أولئك الذين أردتُ، غرسْتُ كرامتهم بيدي، وختمت عليها، فلم تر عين ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر".

قال رسول الله ρ "لو أن ما يقلُّ ظُفرٌ مما في الجنة بدا: لتزخرفت له ما بين خوافق السماوات والأرض، ولو أن رجلاً من أهل الجنة اطلع فبدا أساوره لطمس ضوء الشمس كما تطمس الشمس ضوءَ النجوم"[3].

ويحمدون الله أن أذهب عنهم الحزن والنصب والتعب. فلا يتحسّرون في الجنة إلا على شيء واحد: يتحسرّون على ساعات

---

[1] رواه مسلم 189 والترمذي 3196 .

[2] أي نزلوا منازلهم المختصة بهم في الدنيا .

[3] رواه أحمد 169/1 وهو صحيح .

قضوها في الدنيا: لم يذكروا الله فيها. قال رسول الله ρ "ليس يتحسّر أهل الجنة على شيء إلا على ساعة مرّتْ بهم لم يذكروا الله عز وجل فيها"[1].

ولا يزيدهم ما هم فيه من النعمة إلا زيادة في الثناء على الله وشكره لما هم فيه من النعم والخير الدائم فيقولون {الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَـذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللّهُ لَقَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُواْ أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} (الأعراف 43).

له الحمد في الأولى والآخرة

قال تعالى {وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} (الزمر 75).

ـ فاستفتح الله لنفسه بالحمد عند بداية الخلق {الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ}.

ـ واختتم لنفسه بالحمد عند نهاية الخلق {وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}.

ـ وجمع ذلك بقوله {وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ، يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ} (الروم 18).

فالحمد لله أولاً وآخراً. له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن.

---

[1] رواه الطبراني بسند صحيح وصححه الألباني (صحيح الجامع 5322) .

تحية السلام في دار السلام

ويدخلون الجنة (دار السلام) بسلام كما قال تعالى {لَهُمْ دَارُ السَّلاَمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} (الأنعام 27) وقال {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ، ادْخُلُوهَا بِسَلاَمٍ آمِنِينَ} وقال {وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ، هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ، مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ وَجَاء بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ، ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ، لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ} (ق 33).

وتكون تحيتهم فيما بينهم {سلام} وتكون تحية الملائكة لهم {سلام}:

كما قال تعالى {جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ، سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ} (الرعد 23) بل يلقاهم الله بهذه التحية كما قال {تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا} (الأحزاب 44).

وتزداد محبة أهل الجنة ومودتهم في بينهم. قال تعالى {هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ، الأَخِلَّاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلا الْمُتَّقِينَ ، يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ، الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ، ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ} ويصف ما هم فيه من النعمة والسعادة قائلاً {يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ، وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ، لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ} (الزخرف 66-73).

النـار

وهي مأوى كل من كفر بالله وعصى رسله، قال تعالى {إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ، لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ، وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ، وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ، لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ، أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ، أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ}[1] (الزخرف 78). وقال {إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً، خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً ، يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولا} (الأحزاب 66) وقال {إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاء كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءتْ مُرْتَفَقاً}[2].

- لباسهم وشرابهم وطعامهم من نار، لا يموتون في جهنم. كلما أذابت النار جلودهم بدلهم ربهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب جزاء كفرهم ومعاصيهم. قال تعالى {فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ، يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ، وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ، كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ} (الحج 19).

- لا يموتون فيها، إذ لو ماتوا لاستراحوا. قال تعالى{وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ، وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ} فيجيبهم الله {أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ} (فاطر 34). أولم يعطهم الله فسحة من العمر يتفكرون فيها وأرسل لهم الرسل!

- وأما طعامهم فمن شجرة الزقوم في جهنم وغيره. قال تعالى {إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ، طَعَامُ الأَثِيمِ ، كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ، كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ، خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاء الْجَحِيمِ، ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ

(1) أي الملائكة المكلفون بتسجيل أعمال العباد .

(2) أي سورها .

عَذَابِ الْحَمِيمِ} (الدخان 43). قال ρ "لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا، لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم، فكيف بمن تكون طعامه؟"[1].

ـ وإذا شربوا هذا الماء تقطعت أمعاؤهم كما قال تعالى {كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاء حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءهُمْ} (محمد 15) ثم يعيدها الله على ما كانت عليه ثم يضطر إلى شربها لأنها أخف من نار جهنم غير أنها لا تلبث أن تقطّع أمعاءه مرة أخرى.

فيا لها من خسارة عظيمة؟ كما فاتهم من خير الدنيا؟ لقد حَرَمُوا أنفسهم خير الدنيا والآخرة، قال تعالى {كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ، وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ، وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ، كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ ، فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاء وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ} (الدخان 25). هذا عن خسارة الدنيا! فكم تكون الخسارة أعظم حين يكون الأمر خسارة جنة الآخرة وعيونها.

وأقلهم عذاباً: رجل يقف على جمرتين من نار يغلي منهما دماغه. ويظن أنه أكثر أهل النار عذاباً وإنه في الحقيقة لأقلهم غذاباً.

ـ ويعظم الله أجسادهم أضعاف ما كانت عليه في الدنيا، قال رسول الله ρ "إن الرجل من أهل النار ليعظم للنار حتى يكون الضرب من أضراسه كأُحُد"[2].

ويركضون يميناً وشمالاً علّهم يجدوا ملجأ يؤويهم أو مخرجاً ينجيهم من النار، فتقابلهم الملائكة ويضربونهم ويقولون لهم أخرجوا أنفسكم من النار. قال تعالى {وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُواْ الْمَلآئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ} (الأنفال 50) وقال {وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ} (السجدة 20).

فيبكون الدم لفرط الندامة ويصرخون إلى مالك خازن جهنم أن يريحهم الله من هذا المصير ولو بأن يموتوا. {وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ

(1) رواه أحمد 338/1 .
(2) رواه أحمد 366/4 بسند صحيح .

عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ، لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ} (الزخرف 78). إنهم الآن يتمنون الموت بعد أن كانوا يتمنون الحياة في الدنيا. ولكن حتى الموت يُحرَمون منه. فيا لها من متعة قليلة أعقبها سوء المصير الخالد.

بل يطلبون إلى الملائكة أن يسألوا الله لهم تخفيف العذاب ولو ليوم واحد {وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ، قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ إِلا فِي ضَلالٍ} (غافر 49).

حوار بين أهل الجنة وأهل النار

وأثنار ذلك يلتفت أهل الجنة إلى أهل النار ويتذكرون كيف كانوا يستهزئون بهم، ويصفونهم بأشنع الأوصاف، وكم يعتريهم اليوم الأسى والندم الشديد وهم يرون ما حل بأنفسهم من الشقاء والعذاب. وما انتهى إليه حال المؤمنين من النعيم الأبدي في جنة الخلد.

وقد وُضع سور بين أهل الجنة وأهل النار له باب: باطنه الذي يلي أهلَ الجنة: فيه الرحمة. وظاهره الذي يلي أصحاب النار: فيه العذاب. فيخاطبهم أهل الجنة يوم القيامة ممن كانوا يعرفونهم في الدنيا من وراء هذا السور كما قال تعالى:

{وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا} فلا يملك أهل النار إلا أن يقولوا {نعم} فينادي مناد من أهل الجنة أن {لَّعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ، الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ} (الأعراف 50).

فانظر كيف صاروا في غاية الذلة بعد أن كانوا في الدنيا غاية في الاستكبار: إنهم الآن يستجدون من أهل الجنة أن يلقوا عليهم شيئاً من الجنة يخفف عنهم حرّ جهنم. {وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الْمَاء أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ، الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هَـذَا وَمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ} (الأعراف 51).

ويجأرون إلى الله أن ينجيهم مما هم فيه فيقول لهم {لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لا تُنصَرُونَ} ويتوجهون إليه بتضرع وخشية قائلين {رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ، رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ، قَالَ اخْسَؤُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ ، إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ، فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ، إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ} (105).

ـ كانوا يضحكون من المؤمنين ويستهزئون بهم. غير أن الأمر سيختلف في الآخرة عما كان عليه في الدنيا {إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُواْ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ، وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ، وَإِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُواْ فَكِهِينَ ، وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاء لَضَالُّونَ، وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ، فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ، عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ} (المطففين 29).

ـ كانوا يتهمون المؤمنين بالضلالة والتطرف، ويحكمون عليهم بأنهم من أهل النار، وهاهم اليوم يبحثون عنهم في النار لكنهم لن يجدوهم {وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الأَشْرَارِ ، أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ} ألعلهم معنا في جهنم لكننا لا نراهم أننا كنا نحكم عليهم زوراً بالضلالة. ثم يختم الله هذا المشهد بقوله {إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ}.

تخاصم أهل النار فيما بينهم

وفي ذلك اليوم تظهر العداوات بين أهل النار يوم أن يلقيهم الله فيها أفواجاً وجماعات فوق إخوانهم. وتكون تحية أهل النار لبعضهم {لا مَرْحَبًا بِكُمْ} كما قال تعالى {هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ، قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ}. ويلعن كل منهم الآخر {قَالَ ادْخُلُواْ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّن الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا}.

وقد أخبر إبراهيم ρ قومه المشركين بأنهم يجتمعون اليوم على الشرك غير أن كل واحد منهم سيتبرّأ من الآخر يوم القيامة ويلعنه {وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ} (العنكبوت 25).

وتبدو ملامح هذه العداوة بين المجرمين من خلال تخاصمهم كما بينه القرآن:

{وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ ، قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ، قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ، وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْماً طَاغِينَ ، فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ، فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ} ويختم الحوار بين المتخاصمين بقوله {فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ، إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ} (الصافات 19).

ويزداد خصامهم ويتبادلون التُّهَمَ، ويلقي كل منهم التبعة على كاهل الآخر بينما يحاول الآخر التنصل منها بشتى الحِيَل {وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِّنَ النَّارِ ، قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ} (غافر 47).

{وَبَرَزُواْ لِلّهِ جَمِيعاً فَقَالَ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللّهِ مِن شَيْءٍ قَالُواْ لَوْ هَدَانَا اللّهُ

لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاء عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ} (إبراهيم 21).

{وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ، قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ، وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ} (سبأ 30).

ويطالب كل فريق أن يزيد الله من عذاب الفريق الآخر ويقولون {رَبَّنَا هَؤُلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النَّارِ} فيجيبهم الله تعالى {رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ} فيجيبهم الله تعالى {لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ}. بل يتمنون يومئذ أن يظفروا بهم ليدوسوهم بأقدامهم. قال تعالى {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلانَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ} (فصلت 29).

الشيطان خطيب القوم في جهنم

ويقف المجرم الأكبر والعدو الأكبر لبني آدم، الذي كان وراء كل فساد في الأرض وسبب دخول جميع أهل النار فيها: يقف خطيباً على منبره في النار ليعلن براءته من كل ما نُسِبَ إليه من التُّهَم. {وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم مَّا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} (إبراهيمك 22).

ويتبرأ كل فريق من الآخر {وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ، إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ ، وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُواْ مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ} (البقرة 166).

وتظهر هذه الحسرة والندامة بجلاء ووضوح كما قال ربنا تبارك وتعالى {إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً ، خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً ، يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولا ، وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا ، رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً} (الأحزاب 68).

ويندمون ويتحسرون ويتمنون لو أنهم أطاعوا رُسُلَهم، قال تعالى {وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلا ، يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلا ، لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً} (الفرقان 27).

تلك هي أنباء اليوم الآخر أوضحها الإسلام بعد أن خفيت معالمها في الكتب السابقة حتى إن العهد القديم من الكتاب المقدس بالرغم من كبر حجمه وكثرة صفحاته قد أغفل ذكر شيء عن اليوم الآخر وصرف الناس بذلك عن تذكره والعمل له. قارن ذلك بما قاله النبي ρ حين أتاه رجل يسأله عن موعد قيام الساعة فأجابه النبي ρ قائلاً: ماذا أعددت لها.

الفائدة من الإيمان باليوم الآخر

وموضوع اليوم الآخر يصنف عادة في الرقائق وأبواب الزهد. وهو في الحقيقة من أهم الأمور. فإنّ تذكره والاستعداد له سبب كل خير، ونسيانه والإعراض عنه سبب كل شر. قال رسول الله ρ "من كانت الدنيا همّه: فرّق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كُتِبَ له. ومن كانت الآخرة همه: جمع الله له أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة"[1].

فلو صدق النصراني في تفضيل الآخرة على الدنيا والخوف من عذاب الله لبادر إلى تحري الدين الحق غير عابئ بما يلقى في سبيل ذلك. ولا يظنن ظان أن غير المسلمين حريصون على العمل بتعاليم دينهم، حريصون على اليوم الآخر.

فمع أهمية اليوم الآخر فإن أكثر الناس معرضون عنه. قال تعالى {قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ، أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ} (ص 67) وقال {وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاء رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ} (الروم 8) وهم الأغلب والأكثر إلا من رحم الله. قال تعال {وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ} (الأنعام 116).

والله ما خلق الخلق لمجرد أن يعلموا أن هناك يوماً أخر ثم يقرّوا به إقراراً نظرياً، وإنما أراد أن يستعدوا له ويعملوا له ليكون إيمانهم عملياً مثمراً. ولذلك يقول تعالى {مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً} ثم قال {وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً} (الإسراء 18).

فاشترط لمن أرد الآخرة شرطين:

1) أن يسعى لها سعيَها ولا يتمنى على الله الأماني.

2) أن يكون مؤمناً.

ولما ظن بعضهم أن الإيمان باليوم الآخر مجرد إقرار به واعتراف لفظي فقط صار إيمانهم نظرياً، وشجرة لا ثمر لها. ولذا

[1] رواه ابن ماجة بسند صحيح (سلسلة الصحيحة 949) .

تجدهم يخافون نار الدنيا أكثر من نار الآخرة مع أن نار الآخرة أشد. وصار طمعهم في يواب الدنيا أعظم من الطمع في ثواب الآخرة.

ـ وربما زعموا أن الأشغال قد كثرت عليهم حتى شغلتهم عن الصلاة. وتراهم يفنون أعمارهم في تجميع حطام الدنيا، وهم معرضون عن ثواب الآخرة، قال تعالى {أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ، حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ، كَلا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ، ثُمَّ كَلا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ، كَلا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ، لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ، ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ، ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ}.

تسألهم: ألستم تؤمنون باليوم الآخر فيقولون بلى. غير أن لسان حالهم يخالف لسان مقالهم. فإنهم في الواقع يطلبون ثواب الدنيا ولا يبالون بالآخرة. ولو أنهم عملوا للآخرة لكسبوا ثواب الدنيا والآخرة، قال تعالى {فَآتَاهُمُ اللّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} (آل عمران 148). وقال {مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ} (النساء 134).

من أحب دنياه أضر بآخرته

ـ ولقد آل حب الدنيا بأقوام إلى الشرك. وبآخرين إلى النفاق فقعدوا عن الجهاد في سبيل الله. وقد حذر الله المؤمنين أن يحذوا حذوهم فيركنوا إلى الدنيا فقال {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ} (التوبة 38).

ـ وأودى بآخرين إلى اتباع الهوى حتى صارت قلوبهم قابلة لكل فتنة، يبيعون دينهم بدنياهم كما قال ρ "فتن كقطع الليل المظلم. يصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسي كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل".

ـ وحمل قوماً آخرين على التحاسد والتباغض حتى سفكوا دماء بعضهم البعض مما أفسد عليهم آخرتهم. قال رسول الله ρ "إياكم والشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم: حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم"[1]. والشح سببه حب الدنيا.

[1] رواه مسلم (2578).

إن ذكر اليوم الآخر بهذا التفصيل لا بد أن يثمر العظة والخوف من سوء المصير، ويثمر بالتالي العمل للهروب من النار ولطلب الجنة.

ولقد عجب رسولنا ρ ممن يخافون النار ولا يأخذون بأسباب النجاة منها. ومن قوم يطلبون الجنة وهم نائمون متكاسلون عن اتخاذ أسباب الفوز بها، قال ρ "ما رأيتُ مثل النار: نام هاربُها، ولا مثل الجنة نام طالبُها"[2].

أن الله أنذر الناس على ألسنة رسله ذلك اليوم، ووعد الله حق وصدق. والناس مأمورون بالتصديق بذلك، وهم في ذلك بين مصدق ومكذب فالمؤمن يقول {هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ}. والكافر يقول {مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا} (الأحزاب 12 و22).

أن الله أثنى على المؤمنين بالغيب (من غير شك ولا تردد) أنهم مهتدون ومفلحون.

أن المؤمن باليوم الآخر سيدفعه إيمانه إلى طاعة الله فيما أمر ونهى لا سيما إذا كان الفوز والنجاة يوم القيامة متوقف على العمل.

إخراج المؤمن من عبودية الدنيا الفانية أو التعلق بها، وتزهيده بها. وربطه (وهو في دار الدنيا الفانية) بالدار الآخرة الباقية وتشويقه إليها. ولذلك كان من دعاء نبينا ρ "اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا ولا إلى النار مصيرنا".

ولما افتتن الناس بكنوز قارون في زمن موسى عليه السلام حذرهم أهل العلم من ذلك قائلين {وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلا يُلَقَّاهَا إلا الصَّابِرُونَ} (القصص 80). فتفضيل الآخرة على الدنيا لا يمنع من التعامل مع الدنيا بقدر، والتمتع بنعم الله وإنفاق الأموال ولكن بشرط أن لا يؤدي إلى تفضيلها على الآخرة.

---

[2] رواه الترمذي (2604) بسند صحيح (سلسلة الصحيحة 953) .

ومن ثمرات الإيمان باليوم الآخر: التواضع والتقوى والحذر من التكبر. فإن الله كتب الجنة للمتواضعين المصلحين في الأرض فقال {تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} (القصص 83). وقال رسول الله ρ "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر"[1]. والمؤمن إذا سمع هذا الحديث أرغم نفسه على التواضع إذا علم أن جهنم مأوى المتكبرين. وبذلك يذيب حرصه على ثواب الآخرة كل رواسب الكبر في قلبه.

ومن ثمرات الإيمان باليوم الآخر: الصبر. قال تعالى {وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ} (القصص 80). وقال {إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ} (الزمر 10). ولهذا يصبر المؤمن في الدنيا طلباً لثواب الله في الآخرة.

أن من كان لا يرجو إلا الدنيا وثوابها دون الآخرة: أعطاه الله شيئاً مما يشتهيه منها ثم حرمه من ثواب الآخرة. قال تعالى {مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ ، أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} (هود 16). وقال {مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ} (الشورى 20).

ولهذا كان حب الدنيا وتقديمها على الدار الآخرة باب لكل شر. ووسيلة إلى الشرك والكفر.

فهرس الموضوعات

[1] رواه مسلم (91) وأبو داود (4091) .

الباب السابع : الإيمان بالله

أركان الإيمان بالتفصيل

الباب الثامن : الشرك ومظاهره

الباب التاسع : الأولياء ومفهوم الولاية

الباب العاشر : الشفاعة

الباب الحادي عشر : مبحث الكفر

التكفير وموقف أهل السنة منه

الباب الثاني عشر : الولاء والبراء

الباب الثالث عشر : السحر والشعوذة

الباب الرابع عشر : الكهانة والعرافة

الباب الخامس عشر : الإيمان بالقضاء والقدر

الباب السادس عشر : كلمات حول صلاح الأمة الاجتهاد والتقليد

الباب السابع عشر : الإيمان باليوم الآخر

الجنـــة

النـــار